رواية

جيجانتيــك

آيان ماكسويل



قصة حقيقية عن
واحدة من أبشع
كوارث القرن العشرين

جيـــجانتيـــك

« رواية »

آيان ماكسويل

« **جيجانتيك**» وهو عمل روائي للمؤلف : « **آيان ماكسويل**»

وإنَّ هذا العمل الأدبي يعد من الأعمال النادرة التي توثق مأساة سفينة كاب أركونا، مستنداً إلى الحقائق التاريخية بنسبة تقارب 75٪ مع فسحة للخيال الروائي لاستكشاف العاطفة الإنسانية العميقة والنفوس المتصارعة بين الألم والأمل،

ويُعتبر هذا العمل الأول من نوعه باللغة العربية الذي يتناول تفاصيل هذه الحادثة البحرية بشكل أدبي متكامل، جامعاً بين الدقة التاريخية والابتكار الفني، في محاولة لرفع الوعي الثقافي والإنساني وإحياء ذكرى الضحايا والصراع الإنساني الذي دار على متن السفينة.

الإهداء

أرواح اختفت بين أمواج البلطيق الباردة،

أجساد احترقت في لحظةٍ لا تُنسى،

وصدى صرخاتكم ما زال يتردد في البحر والصمت،

سبعة آلاف وجوهٍ لم يُرَ لهم أثر إلا في ذاكرة الزمن،

غابوا في الليل الطويل، تاركين خلفهم قصصًا لم تُكتب

وذكريات لا تموت.

هذه الرواية محاولة لإعادة ضوء خافت على غيابكم

لتبقى شهادتكم حجرًا أخيرًا في هرم لم يكتمل

وصوتكم يهمس بأن التاريخ لا ينسى...

الفصل الأول

عـقدة البدايـة

3 مايو 1945، خليج لوبيك، ألمانيا

الساعة 2:30 ضُهرًا

على ارتفاع 15,000 قدم، لم يكن هناك صوت سوى هدير محرك "هال فايبر" السداسي الأسطوانات الذي يدفع مقاتلة "هوكر تايفون"، والصوت الخافت لجهاز التنفس الذي يثبت حياة الكابتن ريس ضمن مقعده الضيق. كانت درجات الحرارة تهبط إلى ما دون الصفر، لكن ريس كان في مأمن بفعل حتمية الواجب. كانت قوة الجذب هي الشيء الوحيد الذي يثق به في هذا العالم المضطرب. ريس ضغط على مفتاح الإرسال في مقبض التحكم، وتحدث بنبرة مهنية ثابتة:

— تايفون واحد إلى تايفون اثنين، تأكيد نقطة الاشتباك، يا ديف؟

جاء صوت ديف حاداً وسط التشويش عبر جهاز الإرسال:

– مؤكَّد سيدي. الزاوية الجنوبية الغربية لخليج لوبيك. هدف واحد ثابت. يبدو ضخمًا جدًا للمهمة يا ريس.

ريس أمسك المقبض بإحكام، وارتفعت نبرته بحدة لا تقبل الجدال:

– لا يهم الحجم، ديف. الأوامر واضحة من قيادة العمليات التكتيكية. سفن نقل عسكرية تحمل جنوداً رفيعي المستوى باتجاه الشمال. هدف مشروع، لا تردد.

شعر ريس بضربات خفيفة على خوذته بسبب اهتزاز الطائرة. مد يده ليتفحص محدد الهدف. كان الهدف في الأسفل مرئياً الآن: سفينة ضخمة، بيضاء اللون، تبدو غريبة وسط هذا الجنون الحربي. كانت تطفو بجوار سفينتين أصغر، كأنها أم تحمي صغارها.

ديف، وقد بدا التوتر واضحاً في صوته، كرر تحذيره:

– أؤكد، ريس. إنها سفينة ركاب كبيرة. لا تبدو كحمولة عسكرية تقليدية. هل نطلب إعادة تأكيد؟

ريس هز رأسه بنفي، ولو كان ديف يراه لعرف أن الحسم لا يترك مجالاً للشكوك:

– لا وقت لإعادة التأكيد، يا ديف. هذه هي اللحظات الأخيرة للحرب. أي شيء يطفو هو خطر، الواجب هو الواجب.

ضغط ريس على عتلة التحكم بيده القوية، معطياً الطائرة أمراً بالانقلاب الحاد. فجأة، انقلب العالم رأساً على عقب. بدأ انحدارهم نحو الأسفل بزاوية 70 درجة، وكانت قوة 4G تضغط على جسده. شعر ريس بأن عظام وجهه تنسحب نحو الأسفل، وأن رؤيته بدأت تضيق.

ريس تحدث بصوت يكاد يختنق من الـ G-force:

– تايفون واحد في الانحدار. قوة الجذب معنا، ديف. السرعة... تجاوزنا الـ 500 عقدة.

ديف كان صوته متقطعاً، يحسب المسافة المتبقية:

– أستعد للإطلاق، ريس. 3000 قدم. 2500 قدم.

في هذا الانحدار، اقتربت الطائرات من أقصى سرعة ممكنة لها تحت الصوت، مما أدى إلى توليد موجة ضغط هائلة في الجو. هذه الموجة ضربت السفينة كاب أركونا في الأسفل قبل أن تصل الطائرات نفسها، مما تسبب في اهتزاز عنيف في الهيكل.

في هذه اللحظة، رأى ريس تفصيلاً مروعاً: صفوف من الأشخاص، بعضهم يلوحون، بعضهم يرتدون ملابس رثة، لكنه قمع هذا الشك فوراً ووجه ناظريه إلى الهدف.

ريس تحدث بصوت ثابت كالرصاص الموجه:

– نقطة الإطلاق. تالي-هو! إطلاق صواريخ RP-3 صافٍ!

ضغط ريس على الزر، وشعر بارتياح هائل في الطائرة عندما تخلص من حمولة ثمانية صواريخ RP-3 زنة 60 رطلاً.

ديف صرخ بأعلى صوته آمراً:

– تأكيد الإطلاق، ريس! اخرج! اخرج!

سحب ريس عصا التحكم بأقصى قوته، صاعداً للأعلى، والـ G-force يضغط عليه حتى كاد يفقد وعيه. عندما استعاد رؤيته للحظة، نظر للأسفل. كانت كاب أركونا قد ابتلعتها نيران ضخمة. لم يكن حريقاً عادياً، بل كرة من اللهب الأبيض اندفعت من داخل الهيكل، مصحوبة بدخان كثيف. كانت الصواريخ قد اخترقت أسطحها الهشة، وانفجرت في الأعماق. ريس همس بهدوء مرعب وهو يرفع الطائرة بعيداً:

– الهدف دُمِّر. تايفون واحد يعود إلى القاعدة.

ديف تنفس بعمق ثم سأل بنبرة متحشرجة:

– يا إلهي... كانت سفينة ضخمة. كم عدد الضحايا؟

ريس رد عليه بحسم وقسوة:

– لا تسأل، ديف. لا تسأل عن الأعداد. نحن فقط نطيع القانون.

(خرجت الطائرتان من زاوية الرؤية، تاركة السفينة الضخمة تتحول إلى آخر حجر في الهرم المتداعي للرايخ الثالث، غارقة في النيران وموجات الضغط التي تولدها صواريخهم الدقيقة. وفي الأسفل، كانت أجساد عشرات الرجال الذين تمكنوا من النجاة من النار، تُطلق عليها نيران رشاشة من قوارب النجاة الألمانية التي كانت تقترب).

30 نيسان 1945

ساوثهامبتون - إنكلترا

في قصر آل لورنس، تتدافع الخادمات صامتات حول غرفة مزينة بالشموع الثقيلة والمرايا المصقولة.

تجلس على الكرسي المجهز لها، ثوبها الأبيض يفصلها عن الواقع لكنه لا يفصلها عن ضغط العائلة. إحدى الخادمات حملت علبة صغيرة مخملية، فتحته ببطء أمام وجهها ليظهر زوجًا من الأقراط الفاخرة من اللؤلؤ الطبيعي، إطارهما من الذهب المطلي بالفضة. شعاع خافت من الضوء ينكسر على كل حبة لؤلؤ ليزيد من وهج المكان ويجعل من كيت محط الأنظار وكأنها تمثال حي.

– وَضَعْنَاهَا بلطف يا صغيرتي، لتتلاءم مع ملامحكِ الناعمة.

قالت الخادمة بصوت منخفض محاولةً التخفيف من رهبة الموقف. مدّت كيت يديها، أصابعها ترتجف حين أمسكت الأقراط، تشعر ببرودتها تتسلل إلى جلدها وكأن كل حجر يحاكي ألمها الداخلي...

خلفها أصوات النسوة تتسرب من الزوايا، خافتة لكن حادة بما يكفي لتخترق صمت قلبها:

– مسكينة... فقدت أمها منذ صغرها ووالدها لم يعد.

– والآن ستتزوج لتصبح واجبًا أمام الجميع... لا خيار لها، مجرد قطعة في لوحة العائلة.

– يا لها من مأساة صغيرة، لكن الأهم أنها ستكون مناسبة للعرض كما تحب العائلات الغنية.

ضغطت الفتاة على حافة الكرسي بعنف، شعرت بالدوار من صخب الأصوات وكأن كل كلمة تمتص جزءًا من روحها. انتبهت لها إحدى السيدات، بصوت صارم ضغطت كتف زميلتها بسرعة وهمست:

– اصمتي... لقد سمعتكِ.

حين لاحظت زوجة العم همسات السيدات في الخلفية أدركت الانزعاج الذي ارتسم على وجه كيت. تقدمت بهدوء نحوها، لمست كتفها برفق وصوتها كان هادئًا عميقًا يحمل في طياته الاحترام والود:

– عزيزتي... سندعكِ الآن بمزيد من الخصوصية لتجهزي نفسك قبل الزفاف المنتظر بعد دقائق.

شعرت الفتاة بمزيج من الصدمة والارتياح. مع انسحاب السيدات تدريجيًا بقيت وحدها محاطة بالمرايا العالية التي تعكس كل حركة، كل خيط من الفستان، كل حجر من اللؤلؤ.

الصمت أصبح ثقيلًا لكنه يتيح لها لحظة لممارسة التحكم في أنفاسها لمراجعة كل شعور مختلط: رهبة، شعور بالحرية الوشيكة، القلق، والإصرار على أن تختار خطواتها بنفسها...

غُمَّة ثقيلة خيمت على قلبها، شعور خانق يجعل كل نفس صعبًا. عينها تتبع الطيور التي تحلّق في السماء،

طيور الحدأة الرمادية التي لطالما رأت صراعها قرب النهر حين حاول أحد الحيوانات افتراسها لكنها نجت لتواصل التحليق بحريّة. قلبها تعاطف مع تلك الطيور وكأنها تعكس رغبتها العميقة في التحرر... أغمضت عينيها للحظة، دمعة واحدة انسكبت تتلوها أخرى، لكنها سرعان ما استعادت السيطرة على نفسها. شدّت قبضتها على الفستان ونظرت في المرآة، ترى نفسها، ترى المرأة التي يفرض عليها الآخرون حياتها، تشعر بالغصة تتصاعد في صدرها حتى أصبحت تضغط على قلبها. كل نفس يصعد وينزل بعنف كأنه يعكس الصراع الداخلي بين الطاعة والرغبة في الانطلاق.

همست لنفسها بصوت خافت صارم:

– لستُ عرضاً مناسباً للأثرياء...

وقفت للحظة، شعرت بالحرقة والتمزق في روحها ثم بدأت تتصرف بانفجار داخلي صامت: تلمس مكياجها، تزيح كل طبقة منه بعنف، تمسح أحمر الشفاه، تمسح الكحل من عينيها، حتى اختفت كل علامات الزينة

المفروضة عليها. بعد ذلك قبضت على شعرها، مزيج من الغضب واليأس جعلها تخلع التسريحة الفاخرة، تترك خصلات فضفاضةً تتساقط على كتفيها كأنها تتخلص من القيود المفروضة عليها. كل عقدة وكل تثبيت كان يرمز إلى القيود الاجتماعية التي تحاصرها.

توجهت ببطء نحو الباب، عينها تلمح الطاولات المزينة بالزهور والشموع، الطاقم يجهز كل شيء للزفاف المنتظر. نظرت نظرة قصيرة كأنها تقيم المشهد، ثم عادت بعينيها نحو الغرفة، شعور بالاختناق يغلق عليها الهواء.

جلست على طرف السرير ثم انحنت بسرعة لتفتح أدنى درج، أخرجت حقيبة صغيرة مخملية ثم بدأت بحركة هادئة لكنها متسارعة في الوقت نفسه: تجمع بعض الملابس،

تلتقط الأموال التي خبأها عمها، تضيف قلادتها الثمينة، كل شيء يحمل قيمة لها وحدها، كل قطعة تمثل حياتها الخاصة بعيدًا عن قيود العائلة.

نظرت إلى ثوب الزفاف الأبيض، شعرت بالغضب يشتعل في صدرها، ببطء وهدوء بدأت تمزق قطعة صغيرة من الثوب عند الخصر ثم عند

الحافة، فتسيل خيوط النسيج على يديها كأنها تمزق القيود المفروضة عليها، كأنها تصرخ بصمت: هذه حياتي، ليست ملك أحد.

رفعت حقيبتها على كتفها، نظرت مرة أخيرة نحو الغرفة المليئة بالزينة والشموع، شعرت ببرودة الهواء تلتصق بيدها ثم اتجهت نحو النافذة.

القلب يخفق بعنف، كل خطوة تقترب من الحرية تُكثِّفُ التوتر داخلها.

وقفت عند حافة النافذة، نظرت إلى الأرض البعيدة أسفلها، شعرت بمزيج من الخوف والحماس. أخذت نفسًا عميقًا ودفعت بنفسها ساقطة في الهواء، شعور الرياح يلف جسدها، شعرها وخصلاتها المتناثرة تتطاير حولها، حقيبتها تتأرجح بجانبها وكل شيء حولها يتجمد للحظة قصيرة وكأن الزمن توقف ليشهد لحظة ولادة حرية جديدة.

عندما سقطت على الأرض، ركبتها ارتطمت بحافة صلبة، جرح خفيف انفتح على يدها، والشعور بالشلل الخفيف امتد على ظهرها للحظة. كل عضلة مشدودة من صدمة السقوط. قلبها ينبض بعنف، تنفسها سريع ومضطرب.

رفعت عينيها نحو نافذتها، نظرة سريعة ثم إلى الأعلى نحو القصر الممتد في صمت طويل. كل جدار وكل نافذة يذكّرها بالقيود المفروضة عليها، شعور بالرهبة امتزج بالحماسة، وببطء تلاشى الخوف عندما أدركت أنها باتت حرة في هذه اللحظة.

قفزت على قدميها، ركضت بجنون، كل خطوة كأنها تصرخ بصمت: لن أعود بعد الآن.

تسلقت السياج بسرعة. شعور الهواء يصفع وجهها، العشب يلمس كاحليها، وكل شيء حولها أصبح انعكاسًا لحريتها الجديدة. الرحلة نحو البحر، نحو المستقبل، بدأت بالفعل...

انطلقت بسرعة عبر الشوارع الضيقة لساوثهامبتون متجنبة الأنظار متجهة نحو الميناء. المدينة تعج بالحركة؛ فالسفن العسكرية والتجارية كانت تملأ الأرصفة، والجنود والعمال يمرون بسرعة مشغولين بأعمالهم. مرت بشارع "High Street" الشهير، حيث كانت المحلات التجارية تغلق أبوابها مبكرًا بسبب الحرب، والأعلام البريطانية ترفرف على المباني.

بينما كانت تسير، لفت انتباهها حديث بين رجلين مسنين يجلسان على مقعد خشبي في الزاوية:

– هل سمعت عن السفينة كاب أركونا؟ يقولون إنها ستبحر الليلة.

– نعم، فرصة لا تعوض. إذا سنحت لنا، يجب أن نركبها.

تسارعت نبضات قلبها وأحست بأن القدر يهمس لها: هذه فرصتكِ.

وصلت إلى الميناء، حيث كانت السفينة كاب أركونا راسية. كانت سفينة ضخمة طولها حوالي 200 متر وعرضها 25 مترًا، مزودة بثلاث مدخنات عالية وهيكلها المعدني اللامع يعكس أشعة الشمس. كانت تبدو كقلعة عائمة محاطة بالجنود والعمال، والضباب يلف الأفق.

وصلت إلى نافذة الحجز، والفستان الممزق يلتصق بجسدها من آثار الهروب. تركزت الأعين عليها.

بعضهم يحدق باستغراب، وآخرون يهمسون. الهمسات تتسرب إلى قلبها مثل خنجر صغير:

– انظري إلى فستانها... ممزق بالكامل!

وقف الموظف خلف النافذة ، نظراته صارمة، صوته منخفض لكنه حاد:

– أنتِ تبدين صغيرة... وفستانكِ، لا يمكن السماح لكِ بالصعود هكذا.

ارتجفت لوهلة، شعرت بالغضب يملأ صدرها. رفعت يدها بسرعة وأخرجت القلادة الذهبية من عنقها ممسكة بها بإحكام، وعيناها الثابتتان تَقِفَان أمامه بلا أي ارتعاش:

– ستفي بالغرض.

توقف لبرهة، فحص القلادة بعناية ولم يملك سوى أن يسلمها التذكرة، ثم دفعها بلطف من كتفه لتندفع بين الركاب الآخرين.

الفصل الثاني

ليفياثان فـي ميناء لوبيك

1 أيار 1945

الساعة 09:00 صباحًا

الشمس تتسلق فوق مياه بحر البلطيق، شعاعها يلمع على الهيكل المعدني للسفينة الضخمة مُلَوَّنَةً بألوان الطلاء الرمادي الداكن، ثلاثُ مداخن ترتفع نحو السماء كأبراج حارسة للرحلة وصوت المحركات العميق يملأ الجو كقلبٍ ينبض بثقل

الركاب يتحركون فوق السطح، بعضهم يحمل حقائبه، آخرون يلوّحون للوداع من الأرصفة التي بدأت تتلاشى في الخلف، أطفال يركضون بين أقدام الركاب الأكبر سنًا، يضحكون بصوت عالٍ يختلط بأزيز الرياح وهدير البحر:

– احذر، لا تقترب من الحافة !

صرخ أحد البحارة بينما كانت فتاتان صغيرتان تتعثران بين الخطوات السريعة. القبطان هاينريش بيرترام واقف على جسر القيادة، يتفقد الحبال والمراسي، صوته يأمر بهدوء وصرامة :

– الطاقم، تحققوا من الحبال وجاهزية القوارب

– رصدوا سرعة الرياح واتجاه التيار، كل شيء يسير وفق الجدول

على السطح، ضباط ينقلون الأوامر إلى البحارة بينما بعض الركاب يسألونه بفضول :

– كم تستغرق الرحلة ؟

– أيام قليلة، فقط أصبروا، البحر هادئ اليوم

– انظروا إليّ !

صرخت فتاة صغيرة بحماس ورفع أحد الأولاد يديه كما لو كان يقود السفينة، الركاب يمشون ببطء على سطح السفينة بعضهم يحمل حقائب صغيرة، آخرون يراقبون البحر لأول مرة في حياتهم

الأطفال يركضون مبتسمين بين الأرجل، أصوات ضحكاتهم تملأ الجو بالبراءة بينما النساء يراقبنهم بعينين حانتين وهن يتبادلن همسات عن جمال البحر وروعة اليوم

أحد الركاب، رجل مسن يرتدي معطفًا داكنًا يلوح بيده إلى صديقه :

– انظر إلى حجم السفينة! لم أرَ شيئًا كهذا من قبل

– نعم، شعور غريب... وكأننا نركب قلعة عائمة

على السطح، الطاقم يتحرك بتنظيم كامل ينظف الأسطح ويضبط الحبال، كل خطوة محسوبة

كل حركة تحمل إحساسًا بالكفاءة والانضباط، فتاة صغيرة تمسك بيد والدها تحاول الوقوف بثبات على الأرض المائلة قليلاً، تُطْلِقُ ضحكات خفيفة حين تدور مع الرياح التي تلف شعرها

القبطان بيرترام يرفع صوته مرة أخرى بصوت هادئ لكن حازم :

– أيها الركاب، أهلاً بكم على متن كاب أركونا، استمتعوا بالرحلة وتعاونوا مع الطاقم لضمان راحتكم وسلامتكم

سيدة شابة تبتسم إلى صديقتها، تقول :

– لا أصدق أنني أخيرًا أرى بحر البلطيق بهذه الصفاء

– إنه شعور غريب... الحرية

قالت الأخرى وهي تشد قبضة يد ابنتها الصغيرة

الموسيقى الخفيفة من أوركسترا السفينة تصل من القاعة الكبرى، أصوات الأجراس تدق بحركة إيقاعية لإعلان الإقلاع الرسمي، الركاب يتبادلون التحايا، بعضهم يصور الأطفال، آخرون ينظرون إلى السماء والبحر يتأملون الشعور الجديد بالابتعاد عن الشاطئ

المدخنات الثلاث تتصاعد منها أعمدة خفيفة من الدخان تنشر رائحة الفحم والحرارة المعتدلة بينما الطاقم يتحرك بخفة على السطح لِيُنَظِّمَ الأشرعة، يرفع العلم بفخر، أصوات أحذية على الأرض المعدنية تتناغم مع هدوء البحر

وفي الدرجة الثانية، عند مقصورة رقم 120

الضوء الصباحي يتسرب من باب المقصورة المعدني متسللاً عبر النافذة المستديرة الصغيرة وينعكس على المياه الزرقاء المتحركة خارج السفينة، كيت تفتح عينيها ببطء تتثاءب

صوت الرياح وأزيز المحرك يمزجان مع أصوات الركاب الآخرين على السطح، تتوقف لدقيقة تحدق في البحر أمامها، شعاع الشمس يلمع على لون عينيها وكأن الضوء يحاول أن يبعث في قلبها طاقة جديدة رغم التعب والقلق...

المقصورة ضيقة لكن مرتبة بعناية، الأسرّة الثلاث مصطفة جنباً إلى جنب، كل واحدة مغطاة بأغطية صوفية رقيقة مع مساحة صغيرة في وسط الغرفة لتتحرك الركاب، بجانبها الفتاتان الأخريان المشتركتان معها نفس المقصورة مازالتا نائمتين، تتنفسّان ببطء وتنعكس وجوههما في ضوء الصباح

كيت ترفع يدها لتلمس الزجاج البارد للنافذة، تشعر بنسيم البحر يداعب يدها، قلبها ينبض ببطء ثم يسرع بعد لحظة تنهض بخفة من سريرها، تحاول ألا تزعج الأخريات تتجه نحو الحمام الصغير الزاوي

أبوابه خشبية مصقولة والمغسلة نحاسية تتلألأ في ضوء الصباح

تمسح وجهها بالماء البارد، شعور البرودة يوقظ جسدها ويعيد لها انتباهها، تفتح حقيبتها الصغيرة وتبدأ بتبديل الملابس، كل حركة محسوبة، كل خطوة متأنية، الأصوات تتسلل من الخارج: صوت خطوات الطاقم على السطح، صوت حديث الركاب الجدد، ضحكات أطفال تصعد من القاعات السفلية

كل شيء يبدو حياً ومتواصلاً كأن السفينة نفسها تتنفس معها

الفتاتان الأخريان تستيقظان تدريجياً، تلتقطان أنفاسهما تبدآن بمحادثة خفيفة عن الرحلة وعن البحر الذي يلمع في الخارج، كيت تنصت قليلاً، لا تشارك إلا بابتسامة خفيفة لكنها تشعر بالفضول تجاه حياة الآخرين كيف تختلف مخاوفهم، رغباتهم، أحلامهم

بعد تبديل الملابس، تنظف كيت شعرها بعناية، تضفره ضفيرةً خفيفةً ثم تنظر إلى المرآة الصغيرة المثبتة على الحائط ترى نفسها، الهدوء في ملامحها يعكس قوة جديدة، وعي بأنها بدأت رحلة لا رجعة فيها، وأن كل يوم على هذه السفينة سيكون خطوة نحو مصيرها المجهول

تجلس للحظة تراقب حركة الأمواج من خلال النافذة، ترى انعكاس الشمس على سطح الماء وتشعر بالتماوج الداخلي بين القلق والإثارة، الأصوات تتغير قليلاً: حديث الركاب يزداد، أقدام على الأرض المعدنية للسطح، أمواج تصطدم بجسم السفينة، كل شيء يضيف بعدًا حيًا للمكان، يجعل الرحلة واقعية أكثر ومليئة بالإحساس بالانغماس في بحر من التجارب الجديدة

كيت تنهض مجددًا، تأخذ حقيبتها الصغيرة، تتأكد أن كل شيء جاهز ثم تتجه نحو باب المقصورة، فتسمع صوت القبطان يمرر أوامره للطاقم، صوته مكتوم لكنه حازم:

– تأكدوا من جاهزية القوارب والإشراف على الركاب في كل قسم !

قاعة الطعام للدرجة الثالثة

كانت القاعة ممتلئة برائحة الخبز الأسود الطازج مع طبقات خفيفة من الزبدة الموزعة على قطع صغيرة من الخبز، ووعاء الشاي المخفف الذي لا يكفي سوى لجرعة سريعة، الطاولات الخشبية الطويلة ذات المقاعد الصلبة لا تترك مجالًا للخصوصية، لكن الركاب حاولوا التكيف، فهم يجلسون بمجموعات صغيرة يتبادلون كلمات حذرة عن حياتهم السابقة أم شابة، ترتدي معطفًا داكنًا، تجلس مع ابنتها، تلتقط أنفاسها ببطء قبل أن تتحدث إلى المرأة التي جلست مقابلها :

— من أين أتيتم؟

أجابت المرأة الأخرى بصوت منخفض، تحاول قياس ردود الفعل:

— من برلين

ثم اضافت مرة أخرى ، عيناها تحملان تعب الرحلة :

– تركنا كل شيء، المال، المنزل، وكل ما كنّا نملك... النظام لم يترك لنا شيئًا

– حتى زوجكِ ؟

– نعم... قتله الجنود، وأخذوا كل شيء

في الطاولة المجاورة، كان يجلس رجل في منتصف العمر، شعره أشعث وملابسه متعبة ينظر إلى الطعام البسيط أمامه: خبز أسود، قطع صغيرة من الجبن، حساء خفيف بالكاد يغطي الرغبة

في دفء المعدة، قال بصوت ساخر، لكنه حاول أن يخفف من وقع الجوع :

– هذا كل ما لدينا اليوم ؟

ردت امرأة مسنّة :

– نعم، على الأقل لدينا مكان نجلس فيه... وحرية حتى لو كانت محدودة

المكان كان مكتظًا، الأطفال يركضون بين الأرجل يضحكون بصوت عالٍ بينما الأمهات يراقبنهم بحنان وقلق، بعض الرجال يتحدثون عن الحرية المستقبلية بينما بعض النساء يحاولن حماية أطفالهن من الازدحام، كل حركة، كل همسة، كل صوت، كانت تعكس اختلاف الطبقات الاجتماعية

من زاوية أخرى ، دخلت العائلة الجديدة، ماركو هاريسون (26 عامًا)، إليزابيث هاريسون (22 عامًا) ووالدتهم مارغريت هاريسون في نهاية الأربعينات

وقفوا للحظة يتفحصون المكان ثم جلسوا بهدوء بالقرب من طاولة فيها بعض الركاب الآخرين

لاحظوا الفضول في عيون الآخرين لكنهم لم يتحدثوا حتى بادرت بالتعريف عليهم امرأة عجوز كانت قد فقدت كل شيء في فيينا :

— أنتم... حديثو الوصول ؟

قالت وهي تراقبهم بعينين حادتين لكنها ودودة

– نعم، نحن نحاول أن نبدأ من جديد بعد أن فقدنا كل شيء

أجابتْ مارغريت بهدوء

– أنا أيضًا، لكننا سننجو أليس كذلك؟

ابتسم ماركو بخفة وقال بصوت حازم لكنه لايُخفِي التوتر:

– نعم... ربما هذه الرحلة تمنحنا فرصة

إليزابيث نظرت إلى المرأة العجوز وشعرت بشيء من التعاطف، الجو حولهم كان نابضًا بالحياة رغم ضيق المساحة، أصوات المحركات والبحر تمتزجُ مع همسات الركاب وضحكات الأطفال والحرارة المعتدلة من الشمس المنعكسة على سطح السفينة تضيف شعورًا بالطمأنينة

الطاقم يتحرك بخفة على السطح، ينقل الطعام، يراقب الأطفال، ينظف الأسطح، كل شيء مرتب ومنظم بدقة كما لو أن النظام داخل السفينة يعطي الركاب شعورًا بالأمان ولو مؤقتًا

الطعام توزع بشكل عادل، كل مجموعة تتناول ما لديها من خبز أسود وقطع من الجبن وحساء خفيف لكن كل كلمة، كل نظرة، كل ابتسامة، تعكس قصصًا عن القمع والتهجير والخسارة

ومع ذلك هناك روح مشتركة بين الجميع، ورابطٌ خفي يربط بين أولئك الذين فقدوا كل شيء ولم يبق أمامهم سوى الرحلة والمستقبل المجهول...

ماركو أدار رأسه نحو إليزابيث ومارغريت وقال :

– هيا كلوا على راحتكم، لا داعي للعجلة

مارغريت ابتسمت بخفّة، ثم نظرت إلى إليزابيث ابنتها :

– لنبدأ بالأكل قبل أن يبرد

بعد رشفة قصيرة من الطعام، المرأة العجوز رفعت رأسها عن طبقها، نظرت إلى ماركو وإليزابيث ووالدتهم

وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن تبدأ الكلام بصوت هادئ مشبع بالتجربة :

– حين بدأ النظام يفرض قبضته، لم أعد أعرف سوى أمنية واحدة: البقاء على قيد الحياة... فقدت كل شيء... منزلي، ذكرياتي، أحفادي الذين لم أعد أراهم، هذه السفينة كانت آخر ملاذي

مارغريت نظرت إلى ابنتها وإلى ماركو ثم قالت بصوت منخفض واضح :

– لم نملك خيارًا آخر، اضطرتنا الظروف للمغادرة... المنزل الذي كبرنا فيه، كل شيء أحرقوه. التهديد كان دائمًا يلاحقنا... اضطررنا إلى الهروب ليلاً، وسط الرياح والبرد، حتى وجدنا طريقنا إلى السفينة

إليزابيث كانت تستمع بصمت، عيناها تلمعَانِ بالدهشة والحزن بينما ماركو يحدق في الطعام أمامه يضغط على يديه كأن حديث النساء يلمس شيئًا عميقًا في داخله

قبل أن تتمكن الأسرة من استيعاب الصمت، تدخلت امرأة شابة تجلس على الطاولة المقابلة عيناها متعبتان لكن مليئتان بالعزم :

– نحن... كنا من أغنى العائلات في النمسا، كل ما امتلكناه سرقته الحرب، وزوجي قُتل على يد النظام... بقيت أنا وابنتي على قيد الحياة بالهروب عبر الغابات في ليلة باردة قاسية... لم يكن أمامنا سوى الاعتماد على أنفسنا حتى وصلنا إلى هنا، إلى هذه السفينة. ابتسمت مارغريت ابتسامة ضعيفة وأخذت نفسًا عميقًا :

– يبدو أننا جميعًا نشارك نفس القصة... لكن كل واحد منا وجد طريقة للبقاء ولو لفترة قصيرة.

الركاب الآخرون من حولهم بدأوا بالانتباه، بعضهم ينظر بفضول، بعضهم يهمس بينه وبين نفسه

وبينما كان الأطفال في الدرجة الثالثة يلعبون بالقرب من الطاولات الخشبية، لاحظت مارغريت

طفلاً مشاغباً من الدرجة الثانية ينزل بخفة نحو درج المقصورة، ممسكًا قطعة لحم كبيرة هارباً من الدرجة الثانية، ارتجف الطفل للحظة لكنه

تمسك باللحم وركض بسرعة نحو الدرجة الثالثة كأنه يهرب من الرقيب الصارم للطبقة العليا

صاح أحد الموظفين من الدرجة الثانية... وهو يلاحقه ويلوح بعصا صغيرة في يده :

– أوقِفوه ! أعد الطعام فورًا ! هذا غير مقبول !

ارتجف الطفل، نظر إلى الموظف بخوف ثم هرب بسرعة وهو يختبئ خلف إحدى الطاولات

جميع ركاب الدرجة الثالثة لاحظوا المشهد والعيون تتبادل النظرات، بعضهم يهمس :

– انظر حتى هنا يوجد فرق كبير... لن يضيع أحد من الصفوة لحظة من طعامهم

– نعم، نحن نأكل ما يُعطَى لنا... بينما هم يمكنهم أن يملأوا أطباقهم بدون سؤال!

مارغريت نظرت إلى ماركو وإليزابيث وهمست لهم بهدوء:

– تلاحظون الفرق أليس كذلك؟ كل شيء مُرَتَّب حسب مكان الولادة والمال... حتى هنا على متن السفينة.

ماركو نظر إلى الطفل المسكين، ثم إلى الطاقم الذي أعاد الطفل إلى مكانه، ثم نهض بسرعة. خطواته قوية على الأرض المعدنية للدرجة الثالثة وصوته يعلو:

– دَعْ الطفل وشأنه! ما دَخْلُكَ أنت بما يأكله؟

توقف الموظف متلعثمًا:

– لكن... هذا طعام الدرجة الثانية، لا يحق للآخرين التعدي عليه.

ابتسم ماركو ابتسامة نصف ساخرة، أمال رأسه قليلاً وقال بنبرة حازمة ومتواضعة في الوقت نفسه:

– إذن، لَنَسْمَحَ للغريب بأن يُسَخَرَ منا جميعًا؟ دَعْ الطفل يأخذ خبزه، يبدو أنه جائع أكثر من أيٍّ منا.

التفت الموظف إليه بدهشة وحاول الرد، لكن ماركو أشار بيده بحدة:

– اُتْرُكْهُ أو ستجد نفسك أمام الجميع سخيفًا!

ضحك بعض الركاب، أصواتهم ممتزجة بالدهشة والارتياح، ثم عاد الطفل الصغير مبتسِمًا يمسك باللحم وهو يشعر بالأمان.

ابتسم ماركو للطفل وربَّت على كتفه، ثم عاد إلى مكانه على الطاولة وأضاف على كلام أمه بنبرة ثابتة هادئة:

– قد نولد فقراء... لكن هذا لا يعني أننا أقل شرفًا أو أقل قوة. سنعيش بكرامة ولن نسمح لأحد بأن يقلل من قيمتنا.

ابتسمت الأم وابتسمت إليزابيث بجانبها. العجوز التي أمامهما قالت لمارغريت وهي تبتسم وتنظر إلى ماركو:

– لديكِ ابن قوي.

بينما الجو حولهم امتلأ بشعور بالثقة المتجددة؛ الأطفال يضحكون، والركاب الآخرون يلاحظون موقف ماركو، بعضهم يشعر بالإعجاب وبعضهم بالتقدير الصامت لشجاعة شاب في مقتبل العمر.

الحديث استمر لساعات، الأصوات تتداخل بين ضحك الأطفال، وهمسات النساء، وصوت تحريك الصحون، وخطوات الطاقم، بينما

ماركو يحدق أحيانًا في البحر عبر نافذة الدرجة الثالثة ملاحظًا انعكاس الشمس على الأمواج وكأن الضوء يمنحهم شعورًا خافتًا بالأمل وسط قصصهم الثقيلة.

الدرجة الثالثة على متن السفن في أربعينيات القرن العشرين:

" كانت درجات الركاب الأدنى، أو ما يُعرف بالدرجة الثالثة، مخصصة للفقراء والمهاجرين الذين يسافرون بحثًا عن حياة جديدة، غالبًا تحت ظروف اقتصادية أو سياسية صعبة. لم تكن هذه الدرجة مجهزة بنفس الرفاهية التي حظي بها الركاب في الدرجات العليا، فالمقاعد كانت بسيطة، أما الطاولات والطعام فكان محدودًا، وغالبًا ما يقتصر على خبز أسود وحساء خفيف وبعض الجبن أو اللحم المقدد.

رغم صعوبة الظروف، كانت الدرجة الثالثة تعكس روح الجماعة والتعاون بين الركاب الذين يشاركون قصص معاناتهم اليومية، ويُكَوِّنُونَ روابط اجتماعية قوية رغم التمييز الطبقي الصارم الذي كان سائدًا

آنذاك. يُظهِر التاريخ أن هذه الفروق الطبقية لم تمنع الركاب من إقامة حياة صغيرة على متن السفن، وممارسة أنشطة الترفيه البسيطة، ومحاولة التكيف مع قيود المكان والزمن. "

قاعة الطعام للدرجة الثانية

القاعة الكبيرة التي تتسع لمئات الركاب كانت تحفة فنية كبيرة، سقفها العالي مزخرف بزخارف بوهيمية مستوحاة من الطبيعة. أوراق الشجر الذهبية تتماوج على طول الحواف، والنوافذ العريضة تسمح لأشعة الشمس بأن تتسلل وتنعكس على الأرضية الخشبية المصقولة. الطاولات الطويلة مغطاة بمفارش بيضاء، والأطباق الفضية تتلألأ تحت الضوء، والمزهريات الصغيرة المليئة بالزهور الموسمية تزين كل زاوية. على خلفية هذه الفخامة، تصدح موسيقى بيانو كلاسيكية لألكسندر غولدمارك شائعة في عام 1945، ممزوجة بنغمات خفيفة من الكمان تُضفِي على المكان إحساسًا بالهدوء والانتظام، رغم حركة الركاب المستمرة.

كيت جلست على الطاولة مع الفتاتين الأخريين من نفس المقصورة. فستانها البسيط الأنيق بلون رمادي فاتح مُزَيَّن بتطريز بسيط حول الأكمام، وشعرها مرفوع بعناية. تعكس ملامحها الهادئة قسوة الرحلة الماضية،

بينما الفتاتان الأخريان ترتديان ألوانًا ناعمة بين البيج والأزرق الفاتح، وتحاولان التكيف مع الفخامة الجديدة للقاعة.

إحدى الفتيات ابتسمت وقالت:

– تبدو السفينة مذهلة، أليس كذلك؟ لقد جئت من باريس وهذه أول مرة أستقل فيها شيئًا بهذا الحجم.

والأخرى أضافت:

– وأنا من لندن. كنت أرغب دائمًا في رحلة بحرية، والآن حلمي تحقق.

كيت استمعت بهدوء، لم تشارك كثيرًا. عيناها تتأملان حركة الطاقم وهم يحملون صواني الطعام، يوزعون شرائح الجبن الطري، والخبز الفرنسي الطازج، وحساء الكريمة بالخضار، وبعض الأسماك المدخنة. كل شيء مرتب بعناية، كل حركة محسوبة.

أحد الراكبين الجانبيين، رجل في الثلاثينيات، التفت إلى الفتيات:

– من أين أَتَيْتُنَّ؟

ابتسمت الفتاة الفرنسية وقالت:

– من باريس. كما قلت، أردنا فقط المتعة... تجربة شيء جديد بعيدًا عن الحياة اليومية.

كيت همست لنفسها، بجدية قليلاً:

– الحرية... على الأقل هنا.

ثم نظرت إلى الفتاتين الأخريين وأجابت بهدوء:

– هذه الرحلة بالنسبة لي أكثر من متعة... إنها بداية جديدة.

ضحكت الفتاتان بخفة، واجتمع الفضول على وجوههما. سألت إحداهن بابتسامة:

– وأنتِ من أين؟

أجابت كيت بعينين ثابتتين:

– من إنكلترا... لن أعود لها مرة أخرى.

تبادلت الفتاتان نظرات سريعة، ثم قالت إحداهما بلطف:

– هل كنتِ بخير؟

أجابت كيت بحدية بصوت منخفض واضح:

– اضطررت للهروب... كانوا يريدون أن يُجبروني على الزواج.

سكتت لوهلة، ثم أمالت رأسها قليلاً. فبادلتها الفتاتان نظرة مواساة وابتسمتا بحنان:

– على الأقل أنتِ هنا الآن...

وقامتا بتغيير الموضوع وبدأتا الحديث عن المدن التي تخططان لزيارتها، وعن الأزياء الجديدة التي تحاولان اكتشافها على متن السفينة، وعن الأغاني التي استمعتا إليها قبل المغادرة، بينما كيت استمعت بحذر تشعر بأنها مختلفة قليلاً عنهن، لكنها لم تفقد شعورها بالارتباط البشري.

الطعام كان يُقَدَّم بعناية. الأطباق الفاخرة والفضية تلمع على الطاولات، الحساء الكريمي يُسكَب بهدوء، الخبز الفرنسي يُقَطَّع بعناية، والجبن الطري يُقَدَّم في شرائح متساوية. كيت تناولت الطعام ببطء. شعورها بالدفء والراحة يمتزج مع توقع المستقبل.

كل حركة للطعام، كل نظرة من الركاب، تشعرها بالانتماء النسبي لهذا المكان، رغم أنها تعرف أن رحلتها جاءت نتيجة ظروف قاسية وليست من باب المتعة.

وحين حان وقت تقديم المشروبات، ظهرت الخادمات وبدأن تجول بين الطاولات حاملات صواني مليئة بالأكواب الفضية. كل واحدة منهن تتحرك بخفة وهدوء، محاولة الحفاظ على توازن الأكواب أثناء مرورهن بين الركاب. اقتربت إحدى الخادمات، فتاة سمراء البشرة ترتدي زي الخدم الرسمي، تحمل صينية معدنية عليها أكواب من نبيذ أحمر خفيف من إنتاج فرنسا، تحاول توزيعها على الطاولات بدقة، محافظة على توازن الأكواب مع حركة السفينة المتذبذبة برفق.

بدا أحد الرجال الأثرياء جالسًا على طاولة قريبة غير راضٍ عن لون بشرتها، وأخذ ينظر إليها بازدراء:

— ماذا هذا؟ انظري إلى نفسكِ! مُقَرِّفَة!

ارتجفت الفتاة، وشعر الخجل يرتسم على ملامحها. حاولت أن تبتسم بخجل:

– أرجو المعذرة سيدي... لم أقصد.

صرخ عليها بصوت عالٍ، وأخذ يضرب الطاولة بيده:

– اللعنة عليكِ!

تبادل الركاب من حوله النظرات، بعضهم بدأ يهمس، والجو أصبح متوترًا. شعرت كيت بتصاعد الغضب بداخلها، وعيناها توهجتا. كانت تعرف أن الموقف يعكس العنصرية الصارخة، وعجز الفتاة عن الدفاع عن نفسها يثقل قلبها. نهضت ببطء، خطواتها حازمة على الأرض الخشبية، صوتها يعلو فوق موسيقى البيانو وهمسات الركاب:

– يكفي! توقف فورًا عن هذا السلوك!

توقف الرجل للحظة، نظراته مليئة بالدهشة والغضب، لكنه لم يجرؤ على الرد. بينما استمر الركاب في مراقبة الموقف، تقدمت كيت بخطوات ثابتة نحو الطاولة، صوتها واضح وحاد:

– أنت هنا بين بشرٍ وليس لك الحق في السخرية من أي شخص بسبب لونه أو أصله. أنت لا تملك الحق أصلاً في السخرية!

تجمع الركاب حول الطاولة، بعضهم متفاجئ، وبعضهم يصمت احترامًا لشجاعتها، بينما ظل الرجل يحدق بها بعينين مليئتين بالإحراج والغضب، لكنه لم يجرؤ على الرد بعد ثبات كيت وصرامتها.

وحينما استجمع الرجل شجاعته محاولاً الرد:

– ومن أنتِ لتتحدثي هكذا؟

ابتسمت كيت ابتسامة نصف ساخرة، نظراتها تتوهج تحديًا وقالت بنبرة حادة:

– الطفل الذي في بطنك لن يُجهض لك الحق في ازدراء الآخرين.

اندهاش الركاب كان واضحًا، همسوا لبعضهم البعض، بينما الرجل جمد مكانه محاولاً استيعاب ما قيل له. التقطت كيت الفتاة الخادمة بلطف ودعتها للخروج من القاعة. خطواتها حازمة، وعيونها تتابع كل حركة حولها. وعندما وصلت إلى باب القاعة، سمعت الرجل من جديد وهو يصرخ بغضب:

– ما هذه العاهرات هنا؟

التفتت بسرعة وأمسكت بكأس النبيذ الذي كان على الطاولة وسكبته على وجهه بلا تردد، وهي ردة فعل مفاجئة أذهلت الجميع. الفتاة الخادمة الواقفة بجانبها كانت تنظر بدهشة وفخر، وعيناها تتلألأ بإعجاب. الركاب حول الطاولة، والفتيات اللواتي جلسن مع كيت، تنهدن من الدهشة وهن يقلن بهمس:

– إنها مذهلة... لم أرَ أحدًا يرد بهذه الشجاعة.

تقدمت كيت مع الفتاة للخارج، وتركا وراءهما صمتًا ثقيلًا ممتلئًا بالدهشة والاحترام، بينما الطاولة التي كان الرجل يجلس عندها أصبحت مركز أنظار الجميع، وكأن الحادثة نفسها أرسخت درسًا صامتًا عن الجرأة والعدالة بين البشر.

على سطح السفينة

ارتفعت أصوات الأمواج وهي تصطدم بهيكل السفينة، مخترقة الهواء البارد الذي حمل نسيم البحر إلى سطح السفينة. كيت تمشي ببطء، شعورها بالحرية يمتزج مع رائحة الملح والهواء النقي، فيما تتابع خفوت الموسيقى من قاعة الطعام بعيدًا. بجانبها تمشي الفتاة سمراء البشرة متحفظة لكن مسترخية بعد الموقف الأخير، تنظر إلى الأفق بعيون واسعة مليئة بالدهشة.

كيت توقفت للحظة، تلمس حاجز السفينة البارد بيديها، تنظر إلى الأمواج البيضاء التي تتبع السفينة، كيف تقطع خطوطها بسرعة، وتراقب الطيور البحرية تحلق حولهما وكأنها جزء من المشهد.

صمتت الفتاة قليلاً، وعيناها تتأملان البحر، ثم قالت بصوت منخفض:

– شكرًا لكِ... لم أتوقع أن يقف أحدٌ هكذا في وجهه.

كيت التفتت إليها ببطء، عينها تتأمل البحر ثم تعود إليها:

– كان من المفترض أن يوقفه شخص ما... لكنه لم يفعل، أليس كذلك؟

ابتسمت الفتاة بخفة، وهواء البحر يلامس شعرها المجعد:

– ربما لم يكن لديهم الشجاعة...

كيت نظرت إليها بعينين ثابتتين ثم قالت:

– ما اسمكِ؟

الفتاة نظرت للأسفل قليلاً تتردد، ثم ابتسمت بخجل:

– اسمي صوفيا... صوفيا لينغ.

– صوفيا... جميل. هكذا إذن، منذ اليوم سنكون على الأقل صديقتين على هذا السطح.

صوفيا رفعت رأسها، عيناها تتلألأ بعزم هادئ:

– صديقتين، نعم... لقد مر وقت طويل منذ آخر مرة شعرت بأن هناك شخصًا يقف بجانبي.

كيت اقتربت قليلاً، تنظر إلى صوفيا بدهشة وحنان:

– أنا... هربت من إنكلترا، كانوا يريدون أن يُجبروني على الزواج... لم أعد أستطيع البقاء هناك. هذه الرحلة بالنسبة لي ليست مجرد متعة... إنها هروب وبداية جديدة.

صوفيا توقفت للحظة، ثم أمالت رأسها إلى الوراء، عينها تلمع بالفضول والاحترام:

– وأنا أيضاً... جئت من جنوب أفريقيا... الحياة لم تكن سهلة هناك. كنت أساعد أسرتي في أعمال الحقول، وأحيانًا أتعرض للإهانة بسبب لون بشرتي... لم يكن أحد ليقف بجانبي.

كيت اقتربت أكثر، تنظر إليها بعينين ثابتتين:

– لقد كنتِ شجاعة جدًا للوصول إلى هنا، وحيدة في عالم لا يرحم...

ابتسمت صوفيا، وأمالت رأسها على الدرابزين وهي تتنفس بعمق:

– كل شيء تغير عندما صعدت على هذه السفينة... كل خطوة على السطح كانت تحملني بعيدًا عن الماضي، نحو شيء يمكن أن نسميه بداية.

كيت نظرت إلى الأمواج، شعورها بالانتماء بدأ يزداد:

– ربما هنا سنتعلم كيف نكون أحرارًا، حتى لو كانت الرحلة قصيرة.

ابتسمت صوفيا وأمالت رأسها قليلاً وهي تقول:

– نعم... وسأبقى قوية، ليس لأحد سوى لنفسي... وأعتقد أن وجودك هنا إلى جانبي يجعل الأمر أكثر احتمالاً.

صمتتا لدقيقتين، تسمعان فقط هدير البحر وحفيف الرياح وصوت الطيور. شعور بالسكينة يعم المكان، شعور لم يختبرا مثله من قبل...

الفصل الثالث

أوديسة المهمشين في قصر عائم

الساعة 3:00 عصراً

الشمس بدأت تميل نحو الغرب، أشعتها الذهبية تلمع فوق سطح البحر كأنها لوحات مُتَكَسِّرَة من الزجاج. سطح السفينة امتلأ بالركاب؛ بعضهم يتمشّى بمحاذاة السور المعدني، وآخرون جالسون على الكراسي الخشبية الطويلة يقرأون الجرائد القديمة أو يتبادلون الأحاديث. رائحة الملح مختلطة بدخان خفيف صاعد من مداخن السفينة، والطيور البحرية ما زالت تحوم قريبة من السطح كأنها تراقب كل حركة.

ماركو يسير بخطوات هادئة على الممر، رافعًا يديه في جيوب معطفه الخفيف. إلى جانبه أخته إليزابيث، شعرها مرفوع بعناية، ووجهها يحمل مزيجًا من الفضول والملل. أما الأم مارغريت فكانت تلاحقهما بعينين يقظتين. قالت إليزابيث بنبرة متململة:

— كل هذا البحر بلا نهاية... أشعر وكأننا نسير في دائرة.

ماركو ابتسم بخفة:

– البحر ليس دائرة، هو مساحة لا نهائية... لكنه يكشف لك دائمًا كم أنت صغير.

مارغريت تنهدت وهي تشد وشاحها حول كتفيها:

– يكفيني أن تصل بنا هذه السفينة بسلام، لم أعد أُطِيق حياة السفر الطويل.

توقفوا قليلاً قرب السور المعدني، حيث الموج يرتطم بجانب السفينة بقوة فَيُشَكِّل رغوة بيضاء كأنها أنفاس عملاق غاضب. إليزابيث وضعت يدها على السور وقالت:

– تخيّل لو سقط أحدهم الآن؟ البحر يبتلعه في لحظة...

مارغريت ارتجفت:

– لا تتفوهي بمثل هذه الأفكار!

ضحك ماركو وحاول تخفيف الجو:

– لا تقلقي، إليزابيث تحب المبالغة دائمًا.

في الطرف الآخر من السطح، جلست كيت على كرسي خشبي قرب مجموعة صغيرة من الركاب. شابة فرنسية في بداية العشرينات كانت ترتدي قبعة صغيرة وتضحك بخجل، ورجل نرويجي مسن يقرأ صحيفة قديمة، وامرأة ألمانية أنيقة تحمل دفترًا تُدَوِّنُ فيه ملاحظات.

كيت وضعت كتابًا بين يديها: "Gone with the Wind" (ذهب مع الريح)، الطبعة الإنجليزية الشهيرة التي انتشرت منذ عام 1936. حاولت أن تغوص في الصفحات لكن الرياح تعاندها وتقلّب الورق.المرأة الألمانية ابتسمت وقالت:

– يبدو أن الرياح لا تريد لكِ القراءة.

كيت ابتسمت بلطف:

– نعم... لكن ربما يناسب الكتاب اسمه أكثر اليوم، كل شيء يذهب مع الريح.

ضحكت الفرنسية بخفة:

– على الأقل لديكِ كتاب، أنا تركت روايتي في المقصورة. هل هو حقًا ممتع كما يقولون؟

كيت أومأت:

– أكثر من ممتع... إنه يريكِ كيف يمكن للإنسان أن يصمد أمام أقسى الظروف.

الرجل النرويجي رفع عينيه من الصحيفة وقال بصوت بطيء:

– الكتب دائمًا تخبركِ الحقيقة بشكل أجمل من الواقع. الواقع عادة أقسى مما تظنين.

سادت لحظة صمت قصيرة لم يقطعها سوى صوت الموج والطيور. إلى الخلف، كان بعض الأطفال يركضون على الخشب الصلب، يضحكون، وتلاحقهم مربياتهم. أزواج في منتصف العمر تبادلوا الأحاديث عن المدن التي سيزورونها بعد الحرب.

أما الطاقم فكان منشغلًا بجمع الكراسي وترتيب الطاولات استعدادًا لوجبة المساء.

وفجأة دوّى صوت قصير من مكبرات السفينة:

– إلى الطاقم... تقرير عاجل إلى غرفة اللاسلكي.

رفع بعض الركاب رؤوسهم باهتمام، بينما حاول آخرون تجاهل الأمر.

إليزابيث همست لماركو:

– هل سمعت؟ بدا الأمر جديًا.

ماركو هز كتفيه وقال بثقة:

– ربما مجرد إشعار روتيني... لكن لا أنكر أن النبرة لم تكن عادية.

كيت التي لم يَغِب عنها انتباهها، أغلقت كتابها ببطء وحدقت في الأفق. الهواء أصبح أبرد قليلاً، والسماء بدأت تغطيها غيوم رمادية متفرقة كأن شيئًا ما يقترب. بعض الزوارق الصغيرة التي كانت مثبتة على جوانب السفينة اهتزت قليلاً مع كل موجة، مما جذب أنظار الأطفال الذين توقفوا عن الركض للحظة.

إلى جانب كيت، أمسكت الفرنسية بيدها وشجعتها بصوت منخفض:

– هل لاحظتِ التغيير؟ يبدو أن الطقس يتحول سريعًا.

كيت نظرت نحو الغيوم وهي تعكس ضوء الشمس الخافت:

– نعم... هناك شيء مختلف في الجو. أشعر وكأننا على وشك اكتشافه.

ماركو وإليزابيث اللذان بقيا قرب السور المعدني، لاحظوا ضباط الطاقم وهم يتحركون بسرعة غير معتادة. بعضهم يحمل مذياعًا لاسلكيًا محمولاً، ويشير بإيماءات متوترة نحو قبطان السفينة.

وفي تلك اللحظة، دوّى صوت آخر من غرفة اللاسلكي متقطع ومرتفع قليلاً، كما لو أن الطاقم استمع إلى تردد غامض:

– إشارة غير معتادة تتصاعد... تجاه الشمال.

الرجل النرويجي الذي بالقرب من كيت رفع رأسه ببطء متأثرًا بالغموض:

– لم أسمع شيء كهذا طوال سنوات عملي على البحر.

الركاب بدأوا يشعرون بالقلق، بعضهم تحرك إلى أماكن أكثر أمانًا على السطح، بينما ظل آخرون واقفين يراقبون حركة الطاقم. كيت نظرت إلى كتابها المفتوح بين يديها ثم أغلقته، متجهة نحو السور لتتأمل على طول

جناح السفينة. الرياح صارت تزداد قوة، وصرخة الموج أصبحت أشبه بصوت تحذير بعيد. ماركو الذي أصبح مشدودًا للغاية التفت إلى أخته وقال:

– هذه ليست مجرد ريح، هناك شيء آخر...

إليزابيث لم تجب، عيناها تتسعان بترقب، بينما بدأت الغيوم تتجمع بشكل أسرع من المتوقع. ظلالها تتخلل أشعة الشمس الذهبية، وتخلق تباينًا مثيرًا **وعلى سطح السفينة.** كيت تنفست بعمق، شاعرةً بالتوتر يتسرب إلى قلبها، لكنها حاولت الحفاظ على هدوئها:

– يبدو أن شيئًا ما يقترب... لكن علينا الانتظار لنرى ما هو...

وفي غرفة القيادة، رَفَعَ قبطان السفينة السماعة، عيونه تلمع بالترقب، بينما الطاقم حوله يحاول تفسير الإشارات القادمة من اللاسلكي. كل شيء أصبح فجأة أكثر جدية، والسطح الذي كان مسرحًا للضحك والتمشية صار مكانًا للتأمل والقلق، وكأن اللحظة السابقة من الفرح والحرية تحولت إلى مشهد من التشويق والدراما.

وفي زاوية من السطح، وقف رجل متوسط العمر مع صديقه يحدقان نحو الأفق، بينما يحاولان فهم سبب تزايد الإشارات على أجهزة اللاسلكي المحمولة التي يحملها الطاقم. قال الرجل بصوت منخفض وهو يمسك بذراعيه ليحمي نفسه من الرياح:

– أشعر أن تجربة 1912 ستعود... شيء ما في البحر يشبه ما حدث مع تايتانيك.

صديقه، شاب في أواخر الثلاثينيات، ارتجف قليلاً وقال:

– تقصد التايتنك؟ أنت تمزح؟

ابتسم الرجل بمرارة:

– لا... أنا جاد. الإشارات، الترددات، الرياح، الأمواج... كل شيء يذكرني بما حدث هناك.

ثم ابتسم الرجل بحزم، ثم ضرب صديقه بخفة على صدره بطريقة مازحة قائلاً:

– لقد غرقت قبل أكثر من ثلاثين سنة قبل أن تولد أنت! لكن شعور الموج والريح لا يمكن إنكاره، يذكرك بما حدث هناك.

صديقه ضحك بعصبية يحاول تخفيف التوتر:

– حسناً، لكن هذه السفينة تبدو أكثر صلابة. لا أعتقد أن التاريخ سيكرر نفسه بهذه الطريقة... أليس كذلك؟

الرجل أومأ برأسه ببطء، بينما الركاب الآخَرُون بدأ بعضهم يشعر بالخوف الخفيف، يتبادلون نظرات القلق، وبعض النساء أمسكن بأيدي أولادهن بحذر.

أحد الشبان، وهو يمسك بجهاز لاسلكي صغير، كان يحاول تفسير الإشارات المتزايدة:

– النبضات أقوى الآن... لا أفهم السبب، لكنها تتصاعد بسرعة.

بعض الركاب الذين كانوا بالقرب من الدرابزين شعروا بأن السفينة بدأت تتحرك بشكل أقل استقراراً، الموجات تضرب الهيكل بقوة أكبر. همس رجل مسن إلى زميله:

– لو استمرت الأمور هكذا، سنشهد ليلة صعبة... أشعر بالارتباك.

الطاقم بدا متوترًا بشكل واضح، بعضهم تجمّع حول غرفة اللاسلكي، وأصوات المكبرات تتقطع بين الحين والآخر، تعكس علامات الاستنفار غير المألوفة.

وعلى مقربة من الدرابزين، لاحظ الركاب أن السفينة بدأت تميل قليلًا مع موجة أكبر من المعتاد. بعض النساء أمسكن بأيدي أولادهن وارتجفت أصواتهم الصغيرة.

كيت التي كانت تمشي على الطرف الآخر من السفينة، لاحظت الحركة والهمسات بين الركاب. فضولها دفعها لتغيير مسارها قليلًا، متجهةً نحو جناح آخر من السطح حيث يمكنها رؤية الطبقات الأدنى للركاب.

وبينما كانت تمر بجانب الممر، لمحت صوفيا من بعيد داخل إحدى القاعات، رفعت يدها وأشارت لها بابتسامة ودّية. كيت ابتسمت وردّت لها التحية ولوّحت خفيفة بيدها قبل أن تكمل طريقها. مع كل خطوة، لاحظت كيت اختلاف الطبقات: الأزياء الراقية للدرجة

الأولى، الألوان الأكثر بساطة للدرجة الثانية، وحركة الركاب في الدرجة الثالثة التي توحي بالاعتياد على الحياة العملية أكثر من الفخامة.حين اقتربت من مكان ماركو وإليزابيث، سمعت إليزابيث تهمس:

– انظر إلى هذه الشابة من الدرجة الأخرى... أزياؤها رائعة جدًا.

كيت لم تفوت الفرصة، تبادلت نظرة احترام سريعة مع ماركو الذي ابتسم خفيفًا وقال لأخته:

– كفى هراءً يا إليزابيث، كل شخص هنا له قيمته، ونحن أيضًا لسنا أقل فخامة.

إليزابيث ضحكت وتراجعت بخفة، بينما واصلت كيت السير على طول السطح، عيناها مركزة على البحر وعلى الركاب الذين بدأوا يتجمعون عند الدرابزين، بعضهم يهمس لبعضه عن ما يقترب من الأفق.وبينما كان ماركو وإليزابيث يسيران بمحاذاة السور المعدني، بدأ المارة من الركاب يتنقلون من جانبهم. بعض الرجال يرتدون بدلات داكنة وقبعات، يتحدثون بنبرة منخفضة عن الأعمال والمدن التي سيزورونها. بينما النساء

اللواتي يمشين بجانبهم يرتدين فساتين ملونة وخفيفة، يضحكن أحيانًا أو يتبادلن نظرات سرية مع صديقاتهن، وكأن كل حركة تحمل جزءًا من حياتهن اليومية أو اهتمامًا صغيرًا بالترف.إليزابيث لم تستطع مقاومة الملاحظة، توقفت للحظة وأشارت إلى سيدة ترتدي قبعة كبيرة جدًا وقالت مازحة بصوت مرتفع قليلًا:

– انظر إلى حجم هذه القبعة! هل تعتقد أنها تخفي شيئًا أم أنها مجرد إعلان عن الأناقة؟

ماركو ابتسم مندهشًا قليلاً من صراحة أخته، لكنه حاول تجاهل المبالغة. ثم توقفت إليزابيث عند مجموعة من الشباب الذين يسيرون بسرعة، يتحدثون بحماس عن ألعاب رياضية أو أخبار حديثة. أحدهم اصطدم بخفة بإليزابيث، لكنها لم تتضايق بل ضحكت وقالت:

– واو... يبدو أنهم في عجلة من أمرهم، ربما يفقدون شيئًا في الطريق إذا استمروا هكذا!

ماركو الذي بدا منزعجًا قليلًا من تعليق أخته، تابعها بنظرات متقطعة ثم قال بابتسامة مزاح:

– لا تكوني عنصريةً، كل شخص هنا له قيمته... ولا تقارني.

إليزابيث ضحكت بخفة، تتراجع قليلاً:

– حسنًا حسنًا... أنت محق، لا داعي للمبالغة.

مع اقتراب الكائن أكثر، بدأ يتضح أنه جسم ضخم، ولكنه ليس مثل السفينة الكبيرة التي يركبونها. قُطْرُهُ أصغر، وشكله ثابت ومستقيم على الماء، وأشرعتُهُ تتمايل مع حركة البحر.

اقتربت السفينة الصغيرة ببطء من جانبهم، تقطع الأمواج بخفة لكنها مستقرة، تشبه في حجمها السفن المرافقة الكبيرة لكنها أصغر، مزودة بأشرعة وعلامات رسمية واضحة. بعض الركاب التفتوا بدهشة وأخذوا يهمسون فيما بينهم:

– ما هذه السفينة الصغيرة؟

رد آخر بحذر:

– ربما تنقل ركابًا آخرين للسفن الكبيرة.

على جسر القيادة، ركَّز القبطان بصره على السفينة القادمة، وأصابع يديه تلمس الدرابزين المعدني. اقترب أحد أفراد الطاقم من القبطان، همس في أذنه بخفة:

– سيدي... هناك شخص على تلك السفينة يريد الإبحار معنا.

رفع القبطان حاجبه، عيناه تتسعان قليلًا من الدهشة. ثم اقترب الطاقم قليلًا ليشاوِر بوضوح وأكد له الأمر. أومأ القبطان برأسه ببطء ثم أعطى الأمر:

– أعدوا الحبال... افتحوا أبواب السفينة.

تحرك الطاقم على الفور بحذر، بينما السفينة الصغيرة تقترب أكثر فأكثر من الجانب الكبير، والركاب على السطح يراقبون بفضول من بعيد، متسائلين عن هذه الشخصية التي ستنضم إليهم.

ومع تمايل السفينة على الأمواج، أصدر القبطان إشارة لطاقمه بتمرير الحبال وفتح باب السفينة الصغيرة التي اقتربت قبل لحظات. بدأت الحبال تتدلى من السفينة، والسلم المعدني يتأرجح قليلًا مع حركة البحر. تجمَّع الركاب عند الدرابزين، بعضهم يمسك بالسور بينما يراقب الآخرون بخوف وفضول.

وببطء ظهر ظل رجل طويل القامة على السلم، يرتدي معطفًا داكنًا رسميًا، شارات تلمع على كتفه، ويمسك حقيبة جلدية فاخرة. تقدم بثقة خطوة بخطوة، فيما يرفع بعض الركاب رؤوسهم بدهشة ويبادلون النظرات الخفية مع بعضهم البعض.

أمر القبطان أحد الطاقم بسرعة:

— أحضر باقة ورد صغيرة... وقدمها بطريقة رسمية.

اقترب الطاقم حاملاً الباقة بعناية، والقارب الهزاز لا يمنحه فرصة للتردد. ركَّزت عيون الركاب، ومن بينهم كيت التي تلمست حافة السور، على كل حركة. قال أحدهم بابتسامة ساخرة نصف مكتومة:

– حتى بمنتصف البحر هناك من يعرف كيف يستخدم واسطته.

ابتسم القبطان ابتسامة مصطنعة بينما استقبل الرجل القادم وأشار له بيده بحرارة مصطنعة:

– أهلاً بك على متن سفينتنا، سيدي.

نظر الرجل فالتر فون هانسن ببرود، عيناه تتفحصان السفينة من أعلى إلى أسفل، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة تكاد لا تُشعِرُ بالدفء.

اقترب من القبطان ومد يده ليصافحه، وربت على كتفه بحركة ودية لكنها مشحونة بالسلطة:

– جيد... أرى أن كل شيء يسير وفق الخطة.

الركاب الذين تجمعوا لم يستطيعوا إخفاء دهشتهم، بعضهم تنفس بصعوبة خفية، وأعينهم تتنقل بين الرجل والقبطان والباقة في يده. كيت لاحظت البرودة المطلقة في تصرفاته، لكنها شعرت بالفضول. لاحظت الترتيب والانضباط في كل حركة يقوم بها حتى وهو يبتسم. ابتسم فالتر فون هانسن بشكل قصير ثم استدار ليراجع الطاقم:

– تأكدوا من أن كل شيء مرتب... لن أتحمل أي خلل.

القبطان متوتر قليلًا ولكنه يحاول إخفاء ذلك، أومأ برأسه وأشار إلى الطاقم أن يفسحوا الطريق للرجل. تقدَّم الرجل على السطح بخطوات ثابتة، كل حركة محسوبة، وكل ابتسامة دقيقة، مما جعل الركاب يتهامسون لبعضهم البعض.

أخذ القبطان نفسًا عميقًا، ثم أعاد الباقة إلى الطاقم ليضعها على طاولة القهوة، بينما ركَّز فالتر انتباهه على الممرات والسطح وكأنه يقرأ خطة كل شخص من حركاته. نظراته كانت دقيقة واحترافية، وقادرة على بث شعور بسيط بالهيبة بين الجميع، حتى الركاب الذين لم يعرفوه سابقًا.

أكمل الرجل خطواته نحو الكابينة المركزية على السطح، والبحر يلمع تحت أشعة الشمس المائلة. الموج يتلاطم بهدوء نسبي، والطيور تستمر في التحليق فوق السطح كأنها مراقبون صامتون لكل هذه السلطة الباردة التي اجتاحت المشهد. كيت نظرت إلى تحركاته ثم إلى الركاب من حولها

وهم يحاولون أن يظهروا غير متأثرين، لكنها شعرت بالفضول الحقيقي:

من هذا الرجل الذي يمكن أن يجعل حتى القبطان يبدو متوترًا؟

الساعة 7:00 مساءً، قاعة الطعام الفاخرة – الدرجة الأولى

القاعة الكبيرة سقفها مغطى بزخارف ذهبية دقيقة، تتدلى منه ثريات كريستال تتلألأ بضوء الشموع تنعكس على المرايا الكبيرة على الجدران. الأرضية خشبية مصقولة، وعلى الطاولات مفارش بيضاء ثقيلة مختومة بختم السفينة "كاب أركونا"، مع أدوات فضية لامعة وأطباق خزفية تحمل نقوشًا دقيقة. كل شيء مرتب بدقة من الكؤوس إلى المناديل المطوية بشكل نخم.

الركاب يجلسون في هدوء، كل حركة محسوبة. النساء يرتدين فساتين سهرة مخملية ومطرزة، بعضها مزين بالدانتيل والأحجار، والرجال بدلات سوداء مع ربطات عنق أنيقة وأزرار ذهبية. بعضهم يبتسم ويحادث زملاءه عن الفن، السفر، أو تجارة الأسهم، بينما آخرون يراقبون بفضول تصرفات النادلين.

الطعام يصل إلى الطاولات: أطباق من لحم الضأن المشوي مع صلصات الفطر، الأسماك البحرية الطازجة مع شرائح الليمون، خضار مطهوة على البخار، وحلويات مثل موس الشوكولاتة والتيراميسو. النبيذ الأحمر والأبيض مُوَزَّع بعناية، مع كؤوس دقيقة متلألئة من البلور.

في زاوية القاعة يجلس فالتر فون هانسن على طاولة طويلة مواجهًا القبطان. جسده منتصب، حركاته محسوبة، وابتسامته خفيفة لكنها بارزة بالسلطة. قال القبطان بهدوء:

– سيدي، آمل أن تكون كل التفاصيل للرحلة الليلة مناسبة.

رفع فالتر حاجبه، نظر إلى الطاولة حوله ثم إلى القبطان:

– التفاصيل هنا دقيقة... لكن التنظيم الحقيقي يظهر في كل لحظة، حتى في أصغر الأمور.

ابتسم القبطان وأشار للنادلين:

– يمكنكم تقديم المقبلات الآن.

بدأ الركاب بتناول الطعام، بعضهم يبادل الحديث عن آخر العروض الفنية في أوروبا أو عن رحلات سابقة، بينما البعض الآخر يناقش السياسة والاقتصاد. رفع فالتر كأسه بصمت، نظر حوله:

– حتى في البحر، القوة تُقَاس بالترتيب والانضباط.

أومأ القبطان، محاولًا أن يبدو واثقًا:

– بالطبع، كل شيء يسير وفق المخطط.

تابع فالتر ببرود صريح:

– وإذا لزم الأمر، يمكن للتفاصيل الصغيرة أن تحدد نجاح الرحلة أو فشلها.

أثناء العشاء، بدأ الركاب يلاحظون الطريقة التي يسيطر بها فالتر على الجو: كل نظرة، كل حركة يديه على المائدة، كل ابتسامة محسوبة، جعلت حتى أكثر الأثرياء ثقة يشعرون بالرهبة الخفية. قال أحد الركاب الجالسين إلى جانبه وهو يشير إلى فالتر:

– يبدو أن هذا الرجل يعرف كيف يجعل الجميع يشعرون بأهميته...

رد آخر بابتسامة:

– نعم، حتى القبطان يبدو وكأنه يراقب كل كلمة قبل أن ينطق بها.

على إحدى الطاولات، تجلس سيدة مسنّة ترتدي فستانًا من الحرير الأزرق الداكن مزينًا بدانتيل أبيض دقيق، أبدت فضولها تجاه طبق صغير من التوت البري الذي لم تَرَه كثيرًا في حياتها. قالت بنبرة هادئة لكنها حازمة:

– هل يمكنكم توفير هذا النوع من الفاكهة بشكل دائم على السفينة؟

النادل، شاب مهذب يرتدي معطفًا أبيض نظيفًا، انحنى قليلًا قائلاً:

– بالطبع سيدتي، سنتأكد من أن يصل إليكم في أي وقت.

ابتسمت السيدة ورضيت عن الإجابة، بينما بعض الركاب حولها ألقوا نظرات إعجاب بكيفية تلبية الطلبات الدقيقة دون تأخير.

في طاولة أخرى، مجموعة من رجال الأعمال يناقشون خططًا استثمارية، يهمسون بالأرقام والنسب المالية. أصواتهم منخفضة لكن الكلمات تحمل قوة وتهديدًا ضمنيًا. رجل في منتصف العمر قال:

– إذا استمرت هذه الأسواق على هذا المنوال، ستكون أوروبا بحاجة لمزيد من الاستقرار المالي.

صديقه رد مبتسمًا:

– الاستقرار؟ أحيانًا أشعر أن البحر هنا أكثر استقرارًا من الأسواق!

ضحك هادئ اجتاح الطاولة، بينما القاعة استمرت في انطباعاتها المختلفة. كل طاولة وكأنها عالم صغير بذاته. فالتر فون هانسن في طاولته المركزية يراقب كل هذا بهدوء: كل حركة من النادلين، كل ابتسامة من الركاب، كل همسة، وكأنه يحللها كقطع شطرنج. أحيانًا يرفع يده ليشير إلى أحد النادلين ليُحَرِّك طبقًا أو يملأ كأسًا. كل حركة منه محسوبة بدقة لكنها تبدو طبيعية للآخرين.

إحدى الشابات من الدرجة الأولى، ترتدي فستانًا أخضر مخمليًا مزينًا بترتر خفيف، أمسكت بطرف منديلها المزين بخيوط ذهبية وقالت لصديقتها:

– أتساءل من أين يأتي كل هذا التوت؟ لم أرَ مثله منذ سنين...

صديقتها ابتسمت وردت:

– ربما حتى بعيدًا عن البرِّ هناك من يحرص على التفاصيل الصغيرة لتدلنا على الفخامة هنا.

في زاوية أخرى، مجموعة من الشباب يناقشون آخر أخبار الرياضة، يضحكون بصوت منخفض، يتبادلون التعليقات حول فريق كرة القدم المفضل لديهم. أحدهم قال:

– لم أصدق أن الفريق حقق الفوز الأسبوع الماضي!

صديقه أومأ قائلاً:

– وأنت ترى؟ حتى في البحر، تتحدث القلوب عن الانتصارات.

بين الحوارات المتعددة، النادلون يتحركون بخفة يملأون الكؤوس، يضعون الأطباق الجديدة، ويمسحون أي بقايا على الطاولات. كل شيء يبدو

وكأنه رقصة متناغمة بين الأيدي البيضاء والملابس الفاخرة وأدوات المائدة البراقة.

الطعام استمر في الوصول: طبق السمك كان يزينه شرائح ليمون دقيقة وفروع أعشاب خضراء، والأطباق الساخنة كانت تبعث بخارًا لطيفًا، والحلويات على صواني فضية رفعت أصوات إعجاب بين الحضور، بينما الكؤوس تلمع وتلتقط الضوء من الشموع. النادلون استمروا في التحرك بهدوء، يملأون كؤوس النبيذ، يقدمون المقبلات، ويحرصون على تلبية أي طلب مهما كان صغيرًا أو غريبًا، مع ابتسامة مهذبة تظهر الانضباط الفائق.

قاعة طعام الدرجة الثالثة

كيت وقفت عند سلم الدرج المؤدي إلى قاعة الطعام في الدرجة الثالثة، قلبها يخفق بسرعة. رائحة الطعام البسيط انتشرت في المكان: خبز طازج، حساء خفيف، وفاكهة موسمية. الهواء هنا أثقل قليلًا لكنه مليء بالحياة؛ ضحكات الأطفال وثرثرة الركاب تعكس حيوية الطبقة الثالثة.

بينما كانت تمشي على طول الممر، شعرت بعيون الركاب عليها، بعضهم يحدق بدهشة، وآخرون يبتسمون بخجل. لم تفعل كيت أي شيء مميز، لكنها شعرت بالفضول يندفع فيها لمعرفة كل شيء: كيف يعيش هؤلاء الناس، كيف يتعاملون مع بعضهم، وما الذي يجعل حياتهم مختلفة عن الدرجة الثانية.

وفي الوقت ذاته، كان ماركو وأخته إليزابيث وأمهم مارغريت قد جلسوا على طاولة قريبة. الطاولة كانت خشبية بسيطة تغطيها مفارش قطنية بيضاء، والوجبات بسيطة جدًا: حساء خفيف، خبز، تفاح، وبعض الجزر المسلوق. ماركو رفع رأسه ليلتقط حركة كيت وهي تمر بمحاذاتهم، وعيناه توقفتا عليها للحظة كما لو كان يراقب شخصًا مألوفًا في مشهد جديد.

إليزابيث لاحظت الحركة قبل أخيها وقالت مازحة:

– يبدو أن هناك أحدًا يلفت انتباه ماركو.

ماركو ابتسم بخفة ولم يرد، لكنه لم يخف اهتمامه بكيت وهي تتحرك بين الطاولات. وصلت إلى مجموعة من الفتيات اللواتي جلسن على طاولة قريبة، وابتسمت لها إحدى الفتيات قائلة:

– تعالي اجلسي معنا، لا تقفي وحدكِ.

ابتسمت بخجل وجلست وبدأ الحديث فورًا:

– أنا كيت لورنس، من الدرجة الثانية...

إحدى الفتيات نظرت إليها بدهشة:

– من الدرجة الثانية؟ لم نرَ أحدًا من طبقتكم ينزل هنا من قبل.

ضحكت كيت بخفة:

– أردت أن أفهم كيف تعيشون... وأن أتعرف عليكم أكثر.

في نفس الوقت، ماركو وإليزابيث يتبادلان نظرات خفية معًا، بينما الأم مارغريت تنظر بعين يقظة إلى الجميع. على الطاولة، أحد الصبية قدم لكيت تفاحة حمراء وقال مبتسمًا:

– هل تحبين التفاح الأحمر؟ لقد وصل اليوم من الميناء الأخير.

أخذت التفاحة وقالت بابتسامة دافئة:

– شكرًا لك.

الفتيات الأخريات شاركنها قصص حياتهن اليومية: عن العمل في المدينة، عن الحافلات التي يستقلونها للوصول إلى الميناء، وعن أحلامهن الصغيرة. كل شيء بسيط لكنه ينبض بالحياة. كيت شعرت بمزيج من الدهشة والاحترام، وأدركت أن البساطة هنا تحمل حرارة مختلفة عن رفاهية الدرجة الثانية: حياة حقيقية، مليئة بالضحك والمشاركة، لا بالمظاهر والزخرفة.

ماركو استمر يراقبها بين الحين والآخر كلما التفتت نحو إحدى الطاولات.

إليزابيث لاحظت ذلك مرة أخرى وقالت مازحة:

– يبدو أن لديك فعلاً اهتمامًا خاصًا بشخص هنا، ألا ترى يا ماركو؟

ابتسم بخفة وقال:

– مجرد فضول... لا أكثر.

الحديث استمر وتبادلت كيت الضحكات مع الفتيات، وتعلمت بعض الألعاب الصغيرة وأسئلة عن الحياة اليومية في السفينة. أحد الشبان قال:

– الطعام هنا بسيط لكنه أكثر دفئًا من أي وجبة فاخرة... لأننا نأكله ونحن معًا.

شعرت كيت بالصدق في كلامه ونظرت إلى الصحون: الخبز، الحساء، التفاح، والجزر. كل شيء بسيط لكنه مليء بالمعنى. استمرت كيت في تناول الحساء، والفتيات اللواتي بجانبها ما زلن يراقبن كل حركة، وابتساماتهن لم تختفِ. إحداهن قالت بفضول:

– هل هذه زيارتكِ الأولى للسفينة؟ كيف هي الدرجة الثانية؟

أجابت بصوت هادئ ولكنه دافئ:

– نعم هي مختلفة... أكثر ترتيبًا وهدوءًا. لكن هنا أرى حياة حقيقية، الضحك والقصص اليومية تشعرني بالراحة.

سيدة مسنة تجلس على طاولة مقابلة لاحظت اهتمام كيت بالمكان والناس فابتسمت وقالت:

– أنتِ شجاعة لتأتي إلى هنا... معظم ركاب الدرجة الثانية لا يجرؤون على النزول إلى هذا القسم.

نظرت إليها واحترمت تلك الملاحظة:

– أردت فقط أن أتعلم وأن أفهم الناس أكثر.

بينما كان الحديث يجري حولها، ماركو رفع رأسه مرة أخرى ولاحظ حركة غير معتادة... إحدى الفتيات صرخت بخفة:

– هل يمكنكم إحضار بعض الكرز؟ سمعت أنهم وصلوا من ميناء بعيد اليوم.

النادل مبتسمًا بحرص، أومأ وقال:

– بالطبع سيدتي، سنحضره لكم على الفور.

كيت شعرت بالإعجاب بدقة التفاصيل واهتمام النادل حتى بأبسط الطلبات، وأخبرت الفتيات عن الكتب التي تحب قراءتها وعن القصص التي تعلمتها من المدينة، بينما كن يشاركنها قصصهن اليومية.

أحدهم قال:

– نحن نعيش هنا كل يوم، نعمل، نضحك، نحلم... الطعام بسيط لكنه يعكس حياتنا بالكامل.

بينما كان الطعام مستمرًا، لاحظت كيت تفاعلات بسيطة أخرى: أحد الشبان ساعد فتاة صغيرة في حمل طبقها، وأخرى أبدت اهتمامها بالخبز الطازج الذي وُضع على الطاولة. وكل حركة كانت تعكس احترامًا متبادلًا وحياة متواضعة لكنها مليئة بالدفء. ضحكت خفيفة عندما لاحظت نظرات

الفتيات الشابات:

– لماذا تنظرون إليَّ بهذا الحماس؟

واحدة منهن ردت بابتسامة:

– لم نرَ أحدًا من الطبقة الثانية يتحدث معنا بهدوء واهتمام... أنتِ تبدين وكأنك تعرفين كل شيء عن الحياة هنا!

كيت شعرت بارتباك بسيط، لكنها أدركت أن صداقتها الجديدة بدأت تتشكل ببطء. ولاحظت أن السيدات اللواتي بجانبها بدأن ينظرن إليها بدهشة وفضول. واحدة منهن ابتسمت بلطف وسألت بصوت هادئ:

– هل أنتِ سائحة؟ أم أن عائلتكِ هنا على متن السفينة؟

ابتسمت بخفة وأجابت بصراحة:

– لا، أنا مهاجرة.

السيدة الأخرى بابتسامة دافئة قالت:

– ونحن أيضًا مهاجرات... نعمل، نحلم، ونحاول أن نعيش كل يوم بأفضل ما يمكن.

في تلك اللحظة، مارغريت أم ماركو التفتت إليها بابتسامة هادئة وقالت:

– هذا جميل جدًا... نحن أيضًا مهاجرون، ونعرف معنى صعوبة الرحلة والصبر على الظروف.

إليزابيث التي تجلس بجانب والدتها همست بخفة:

– نعم، نحن أيضًا نعرف ذلك... الحياة علمتنا الكثير.

ابتسمت كيت وشعرت بدفء غريب يملأ قلبها، وكأنها وجدت مكانًا آمنًا بين هؤلاء الناس. قالت وهي تميل قليلًا نحوهم:

– سعدت بلقائكن حقًا... يبدو أن لكل منا قصته الخاصة، لكننا نتشارك نفس الأحلام والطموحات.

ابتسمت مارغريت بلطف وبدأت التعريف:

– هذا ابني ماركو، وهذه ابنتي إليزابيث.

التفتت إليهما بابتسامة صغيرة وقالت:

– سررت بلقائكما، وأتمنى أن نتعرف أكثر خلال الرحلة.

إليزابيث ردت بخفة:

– ونحن أيضًا. هذه كيت من الدرجة الثانية، جاءت لتتعرف علينا وعلى حياتنا هنا.

ماركو اكتفى بمراقبتها قليلاً، وعيناه تركزتا على حركاتها الطبيعية وابتسامتها المتواضعة، بينما هي قدمت نفسها للجميع.

الساعة 11:30 مساءً، سطح السفينة والدرجات المختلفة

السفينة تشق طريقها بهدوء عبر الأمواج. صوت الماء وهو يضرب هيكل السفينة منخفض ومعتدل يختلط مع نسيم البحر البارد. الهواء أصبح أكثر نقاءً، والسماء داكنة تتلألأ فيها النجوم وكأنها آلاف الأضواء الصغيرة المعلقة بلا ثقل. بعض الركاب عند حافة السطح يتأملونها بصمت، مستمتعين بالهدوء الذي يخلّفه الليل.على سطح الدرجة الأولى، رجل مسن يجلس على كرسي خشبي منحوت بعناية يقرأ كتابًا حديثًا آنذاك بعنوان "The Growth of the British Empire"، ويتمعن في الصفحات. يرتدي بدلة داكنة رسمية ووشاحًا خفيفًا حول عنقه، يبدو مستغرقًا في عالمه الخاص.

أسفل قليلاً عند الدرجة الثانية، امرأة في الخمسينات من عمرها تجلس على مقعد مع صديقتها. ترتدي فستانًا حريريًا بسيطًا باللون الأزرق الداكن، يزينه شريط حريري عند الخصر.

تضحكان بهدوء بينما تتحدثان عن آخر الأخبار، وعن حفلة موسيقية حضرتاها مؤخرًا، وعن أحد عروض الأزياء التي نزلت للتو في باريس.

تناقشان أحدث صيغ المكياج والألوان الرائجة بين النجمات الفرنسيات. أصواتهما لطيفة ومرنة، تكمل الجو الهادئ على السطح.

على مقربة من قوس السفينة، بعض الأزواج يقفون مستندين على الدرابزين، يتأملون البحر الهادئ. أيديهم متشابكة أحيانًا، يتحدثون بصوت منخفض عن المدن التي تركوها وراءهم وعن أحلام السفر القادمة، بينما الأطفال نيام داخل مقصوراتهم، تاركين الكبار يستمتعون بلحظة الصفاء الغريبة في وسط المحيط الواسع.

وفي مقصورة كيت، الهدوء مختلف نوعًا ما لكنه ممتع ومليء بالحياة الداخلية. الفتيات الثلاث اللاتي تشاركنها المقصورة، مارغريت، وإليس، وأنيت، بدأن يغفن بين الحين والآخر بعد يوم طويل. بعضهن تتحدث بنعاس عن مستحضرات التجميل: كريم الأساس الجديد، بودرة الوجنتين، وألوان أحمر الشفاه التي تم الإعلان عنها حديثًا في المجلات. ضحكاتهن خافتة ومختلطة بالتمتمة وكأنهن يحاولن مشاركة أخبار الموضة قبل النوم.

ضحكت مارغريت وهي تلمس شعرها المتدلي على كتفها:

– أليس غريبًا كيف يغير كريم الأساس لون البشرة تحت ضوء السفينة؟ أشعر أنني أبدو مختلفة تمامًا عن اليوم.

ابتسمت إليس وهي تحرك عينيها بين كتبها الصغيرة:

– نعم، ولكن على الأقل يمكننا تجربة ألوان أحمر الشفاه الجديدة... لقد رأيت إعلانًا عنها في مجلة باريسية اليوم، تقول إن اللون الجديد يجعل الوجه يبدو أصغر سنًا.

ضحكت أنيت بخفة، تضغط على وسادتها الصغيرة:

– أصغر سنًا؟ أشعر أنني سأصبح طفلة ثانية لو جربته الآن!

تبادلن الضحكات، حتى أن الصوت خَفَتَ، وامتلأ بالتسلية والمرح. ثم أمالت مارغريت رأسها قليلاً وسألت بفضول:

– بالمناسبة... أين ذهبت تلك الفتاة كيت؟ لم تدخل المقصورة حتى الآن.

ردّت أنيت وهي تغمز بعينها:

– تبدو أنها بقيت بالخارج، ربما تتجول على السطح أو تشاهد النجوم.

ابتسمت إليس وقالت:

– على أي حال لا بأس... أحيانًا أنا أيضًا أحتاج إلى الهواء النقي بعد يوم طويل من السفر.

ضحكت مارغريت مجددًا ثم رفعت صوتها قليلاً بطريقة مرحة:

– هل تعتقدن أنها تتجسس علينا أم أنها تحب فقط الاكتشاف؟

أجابتها أنيت وهي تضع وسادتها جانبًا:

– أعتقد أنها مزيج من الاثنين... لكنها ذكية بما يكفي لتلاحظ كل شيء حولها.

ضحكت الفتيات معًا، ثم توقفت إليس قليلاً، نظرت حولها بفضول:

– حسنًا لكن صدقًا... أشعر بالفضول لمعرفتها أكثر.

ردّت أنيت وهي تبتسم مازحة:

– لا تقلقي... صداقتها مؤمّنة.

وعلى سطح السفينة

السطح كان يلمع بضوء القمر، والنجوم تتلألأ فوق البحر الهادئ. الأمواج تصطدم بجانب السفينة بصوت خافت متتابع، والرياح الباردة تعانق الجميع. النسيم حمل رائحة البحر مع نفحات خفيفة من الخشب والحديد، وأصبح الجو هادئًا نسبيًا بعد ضجيج النهار لكنه ما زال نابضًا بالحياة.

كيت تمشي بخفة على طول السطح، إلى جانبها صوفيا، وإلى الجانبين فتيات أخريات من الدرجة الثالثة، ومعهن إليزابيث التي بدت مستمتعة بالهواء البارد وتضحك أحيانًا على حركات صديقاتها.

صوفيا رفعت رأسها نحو السماء وقالت بفضول:

– انظري إلى تلك النجوم! تبدو قريبة جدًا هذه الليلة.

ليزا، إحدى الفتيات الأخريات، ردت وهي تبتسم:

– كل ليلة آتي هنا وأتمنى لو أستطيع لمسها... أحيانًا أحس أن البحر نفسه يساعدنا على الاقتراب.

إليزابيث ضحكت وقالت وهي تميل بجسدها قليلًا نحو المجموعة:

– إذًا البحر والنجوم والهواء البارد كلهم يراقبوننا الليلة... لكن أعتقد أنهم لا يستطيعون منافستنا في المرح.

كيت ابتسمت وقالت بخفة:

– أحيانًا أحب فقط المشي، الاستماع إلى الأمواج، ومشاهدة النجوم... هذا الشعور يجعل كل شيء آخر بعيدًا جدًا.

صوفيا مدت يدها نحو انعكاسات القمر على الماء:

– أحيانًا أشعر أن الأمواج تحاول اللعب معنا... تنقلب وتبتسم وكأنها تعرفنا.

ليزا أمالت رأسها وقالت وهي تضحك:

– ألا تخافين من أن تنقلب علينا فجأة؟

كيت هزّت رأسها بخفة:

– قليلًا... لكن الخوف جزء من المتعة، أليس كذلك؟

إليزابيث اقتربت قليلاً وقالت مازحة:

– كيت، أعتقد أن هذه الليلة ستبقى في ذاكرتك... كل شيء يبدو أكثر حيوية هنا مقارنة بالمقصورة الدافئة.

ضحكت الفتيات جميعًا، ثم بدأن تبادلن الحكايات الصغيرة: عن رحلات سابقة، عن المدن التي زُرنها، عن أطعمة غريبة تذوَّقنها، وعن طقوسهن البسيطة على متن السفن. كل واحدة تتحدث، والضحكات تتناثر بينهن. أصواتهن تمتزج مع هدير الأمواج والرياح الباردة، وكأن السطح أصبح مسرحًا صغيرًا لهن وحدهن.ليزا قالت فجأة:

– تعلمين، أحيانًا أحلم بأن أكون كابتنًا... أتحكم في السفينة وأقودها تحت النجوم.

صوفيا ضحكت وقالت:

– إذا حدث ذلك، عليك أن تدعيني أكون أول من يركب على السطح لمشاهدة البحر!

كيت انحنت قليلًا لتعدل ربطة حذائها وقالت بخفة:

– وأنا سأقف بجانبك وأرى كل شيء... وحتى الأمواج لن تستطيع مفاجأتنا.

إليزابيث رفعت ذراعها وكأنها تريد الإمساك بالنسيم وقالت بمرح:

– أتعلمون؟ هذه الليلة أفضل بكثير من أي ليلة في المقصورة... الهواء البارد، الضحك، النجوم، كل شيء يبدو مختلفًا.

مادلين، السيدة الأكبر سنًا، ابتسمت وقالت وهي تميل على الدرابزين:

– أوافق... أحيانًا أحتاج فقط إلى التواجد هنا لأشعر بالحياة... وليس كل شيء تحت سقف مغطى.

ضحكت كيت والفتيات ثم صمتن للحظة ينظرن إلى النجوم. كل واحدة منهن أغمضت عينها قليلاً وكأنها تحاول حفظ انعكاس القمر على الأمواج، والهواء يضرب وجوههن برفق.

إليزابيث التفتت نحو كيت وقالت بدهشة وحنين:

– عندما كنت صغيرة، أنا وأخي ماركو كنا ندفن الألعاب التي لم تعجبنا بالتراب ثم ننتظرها لتنفجر.

كيت نظرت بدهشة وابتسمت بخفة:

– تنفجر؟ هل تعني... كأنها قطعة صغيرة تتحطم عند الضغط؟

إليزابيث هزّت رأسها ضاحكة:

– نعم، نفجرها بخفة، نضحك حتى لا يرانا أحد... كانت أشياء بسيطة لكنها ممتعة للغاية.

صوفيا وليزا ضحكن معًا وهنّ يحاولن تخيل المشهد: الأطفال الصغار يدفنون ألعابهم تحت التراب ثم تنفجر. ضحكاتهن تتناثر على طول السطح مع صوت الأمواج.

ثم فجأة التفتت كيت نحو حافة السطح، لفت انتباهها شيء يتحرك عند مؤخرة السفينة في أسفل الدرابزين. هناك كانت واقفة كيت ويندلر، كانت ممثلة مشهورة في وقتها، مرتدية معطفًا داكنًا، تنظر إلى الأمواج بصمت. ابتسمت كيت داخل نفسها وقالت:

– لم أتوقع أن أراها هنا...

إليزابيث لاحظت أيضًا وقالت بدهشة:

– هذا مذهل... ممثلة حقيقية، وحتى الآن تتصرف كأنها جزء من البحر نفسه!

في تلك اللحظة، شخص يقف بجانبها عند الدرابزين، رجل من الطبقة الثانية أو الثالثة بدا معجباً جدًا، حاول التحدث بالألمانية:

– Du bist... sehr... schön...

تلعثم الرجل، صوت كلماته غير متماسك، وكان واضحًا أنه يحاول التعبير عن إعجابه لكنه لا يجيد اللغة. كيت ويندلر ابتسمت بطريقة لطيفة محاولة تصحيح له بعض الكلمات:

– Nein, nein... es ist „schön“.. قليلاً هكذا.

الفتيات على السطح لم يستطعن التحكم في أنفسهن، انفجرن ضحكًا متتاليًا. أصواتهن كانت تتردد على طول السطح، تمتزج مع هدير الأمواج، والنجوم تلمع وكأنها تشاركهن المرح. صوفيا أمسكت بيد كيت وقالت مازحة:

– أيتها الغريبة... لم تتوقعي أن تري الدرس الألماني الحي هذه الليلة!

ليزا ضحكت وقالت:

– نعم، والآن نعرف لماذا أنتِ دائمًا مرحة... يمكننا ممارسة كل شيء تحت النجوم!

إليزابيث أمالت جسدها قليلًا إلى الأمام وقالت بخفة:

– صدقيني، إذا كنتِ هنا كل ليلة، فسوف نتعلم اللغة ونضحك أكثر مما نتخيل.

كيت ابتسمت بخجل وهي تراقب الممثلة، تحاول التفاعل مع الرجل:

– أعتقد أنها صبورة حتى وهي تحاول مساعدته.

الضحكات استمرت، مع مزاح الفتيات حول كيفية تصرف الرجل، وكيف كان تلعثمه مضحكًا جدًا، وكيف أن الممثلة حاولت مساعدته بصبر.

لم يكن يعلم أحد هذه الممثلة الصاعدة كيت ويندلر أن مستقبلها سيحمل لها واحدًا من أشهر الأدوار في العالم: تجسيد شخصية روز العجوز في فيلم تايتنك، ولدت في 1895 وبدأت مسيرتها في المسرح والسينما الأوروبية قبل أن تكتسب شهرتها الكبيرة لاحقًا.

وعلى السطح الأعلى عند جسر القيادة

وقف فالتر فون هانسن بجانب القبطان إدوارد جون سميث، يراقبان المشهد أسفل، حيث الركاب يستمتعون بالنجوم والضحك على سطح السفينة. فالتر بابتسامة باردة وحادة قال:

– الجميع يبدو سعيدًا... أريد أن أعرف ما هي السرعة القصوى للسفينة؟ وكيف يتحكم المحرك البخاري الثلاثي تحت ظروف البحر القاسية؟

القبطان، محاولًا المحافظة على هدوئه الرسمي، أجاب بصوت معتدل:

– السفينة مصممة لتصل إلى سرعة تصل إلى 23 عقدة. المحركات الثلاثية تعمل بانسجام كامل. كل غرفة محكومة بنظام ضغط البخار الدقيق، وقد أضفنا مخارج طارئة للقوارب والمواد الاحتياطية لكل طاقم.فالتر ابتسم ابتسامة قصيرة وقلَّب عينيه نحو السفينة:

– وماذا عن الهيكل؟ هل خضع لاختبارات مقاومة الأمواج والعواصف؟

– نعم سيدي، الهيكل مصنوع من فولاذ عالي الجودة، مُقَسَّم إلى مقصورات مائية تمنع الغرق السريع، وكل جزء منه مُخْتَبَر لضمان أقصى درجات الأمان.

فالتر يرمق القبطان بعينين حادتين:

– جيد... لكن السفينة ليست مجرد معدات، القيادة تعتمد على الرجال هنا، على قراراتكم، على قدرة الطاقم على التعامل مع الطوارئ.

القبطان يحني رأسه قليلاً، صوته منخفض:

– أعلم ذلك سيدي. كل تدريب الطاقم مستمر، كل منا يعرف دوره بدقة، ولا شيء يُترك للصدفة.

فالتر يرفع حاجبه، ينظر بعينين تلمعان:

– وماذا عن الغرف؟ هل جميع الدرجات مجهزة بشكل كامل، من الدرجة الأولى حتى الثالثة؟

– نعم سيدي... الدرجة الأولى مزودة بأثاث فاخر، طاولات مطرزة ومقاعد جلدية، إضاءة كهربائية وتدفئة مستقلة. الدرجة الثانية بمستوى

مرتفع من الراحة، بينما الدرجة الثالثة بسيطة لكنها عملية، مع نظام تدفئة مركزي وإضاءة كافية.

فالتر ينظر نحو الأفق:

– ممتاز... وهل أعددتم خطط الإخلاء والطوارئ لكل طابق؟

– بالطبع سيدي، الطاقم مدرّب، القوارب موزعة على طول السفينة، وتدريبات السلامة مستمرة يومياً.

فالتر وهو يلمس ذقنه:

– رائع... لكن أريد أن أرى شخصياً مدى التزام الطاقم، وأريد أن أعرف أن الجميع يفهم دوره عند حدوث أي أزمة. كل تفصيل صغير له تأثير كبير، صحيح؟

القبطان بابتسامة متوترة يجيب:

– بالتأكيد سيدي...

فالتر يبتسم ابتسامة قصيرة، بنبرة حادة:

– ممتاز... أعجبتني دقة التفاصيل. أريد أن أراك دائمًا يقظًا، كل حركة وكل تصرف محسوب، لا مكان للتردد هنا.

ثم رمق فالتر القبطان بعيون حادة، ابتسامة باردة على شفتيه، أخرج سيجارة من علبة معدنية صغيرة دار بها بين أصابعه للحظة قبل أن يشعلها، وملأت رائحة التبغ الحادة الهواء البارد فوق سطح السفينة. الدخان التف حوله وكأنه يضيف بُعدًا من التهديد الصامت، بينما الأمواج تلمع تحت ضوء القمر الباهت. فالتر أخذ نفسًا طويلًا، سحب الدخان ببطء ثم زفره ببرود، وترك النظرات تتجول على كل زاوية من السطح.بعد لحظة، اقترب خطوة نحو القبطان وهمس بنبرة تهديد خافتة لكنها واضحة:

– أخبرني أيها القبطان... هل استطاع أحد حتى الآن أن يصل إلى الطابق السفلي؟

القبطان ابتلع ريقه، شعر بالضغط يزداد على قلبه. أصابعه تشابكت خلف ظهره، وحاول أن يحافظ على رباطة جأشه، لكنه كان يعرف أن أي تلعثم قد يكشف ضعفه:

– لا تقلق سيدي، لا أحد يصل إلى هناك... لا أحد يعلم.

ابتسم فالتر ابتسامة قصيرة باردة حادة وكأنها سكين يقطع الهواء:

– جيد... لا أريد أن يعلم أحد شيئًا عن هؤلاء.

أضاف بصوت منخفض يملؤه البرود والتحكم:

– 7000 روح محشورة أسفل السفينة... كل نَفَس هناك تحت مراقبتي، وكل حركة محسوبة. أي تسريب أعرف على الفور من هو المسؤول.

القبطان شعر بالقشعريرة تسري في عموده الفقري، أصغى إلى صوته الداخلي، إلى نبض قلبه المتسارع، لكنه لم يجرؤ على الرد بأكثر من هدوء مصطنع:

– كل شيء تحت سيطرتك، سيدي... لن يعلم أحد.

فالتر أدار ظهره ببطء نحو البحر، الدخان يلتف حول رأسه كستار، رفع عينيه إلى النجوم. لحظة صمت طويلة سادت السطح، حتى غادر متجهًا إلى مقصورته.

لم يكن أحد يعلم في ذلك الوقت أن فالتر فون هانسن سيصبح شخصية محورية مظلمة في التاريخ البحري، لاحقًا انكشفت أفعاله الشريرة حين تسبب في كارثة غير مسبوقة بسجن أكثر من 7,000 شخص في الجزء السفلي من السفينة مخفيين تمامًا عن الركاب العاديين، مما جعله رمزًا للهيمنة والقسوة على متن السفن الفاخرة.

الفصل الرابع

رقصة الأشباح على صفيح ساخن

عنابر السفينة السفلى

رائحة خانقة تتصاعد من الطابق السفلي، مزيج من العرق والدم والفضلات يلتصق بالهواء كأنها غيمة مسمومة. أي إنسان يقترب من الممر المؤدي إلى العنابر يشعر وكأنه يختنق قبل أن يخطو خطوة واحدة هناك، في الأعماق حيث لا يصل ضوء ولا هواء، يُكدَّس آلاف البشر كالبضائع المنسيّة...

الأرضية رطبة ممتلئة ببقع سوداء من البول والدم، والجدران المعدنية تعكس أصوات أنين متواصل. المكان ضيق لدرجة أن الرجال يجلسون كتفًا بكتف وأحيانًا فوق بعضهم. أجساد هزيلة، وجوه غائرة، عيون تلمع بالهذيان. بعضهم فقد عقله تمامًا، يضحك بصوت مخيف ثم يسقط صامتًا، وآخر يردد أسماءً غريبة بلا توقف كأنه عالق بين الحياة والموت.في زاوية مظلمة، رجل نحيل يصرخ فجأة:

– عطش... ماء... أرجوكم... فقط قطرة...

لكن صرخته تضيع وسط الضوضاء. شاب بجانبه بالكاد قادر على الكلام، يهمس له بمرارة:

– اصمت... إنهم لن يعطونا شيئًا. لا تصرخ... ستأتي الطلقات.

وفعلًا، فوقهم خطوات ثقيلة للحراس النازيين تدوس الممرات. أي صرخة عالية أو محاولة للاقتراب من باب معدني تُقَابَلُ برشقة رصاص، فتتحول العنابر للحظة إلى صمت مرعب قبل أن يعود الأنين من جديد.

سجين آخر، وجهه مغطى بالعرق، يحاول أن يقسّم قطعة خبز صغيرة كأنها كنز:

– نصفها لك... فقط تذكرني إذا مت.

يتسلمها رفيقه بعينين دامعتين، يرفعها بفم مرتجف ويأكل ببطء كأنه يحاول أن يمد لحظة الحياة قدر المستطاع. الظلام دامس، لا شيء يُرى بوضوح سوى ظلال تتحرك مثل أطياف. البعض يتكئ على الجدار، ينهار فجأة بلا حراك، ولا أحد يملك القوة لجره أو دفنه. الأجساد الميتة تبقى هناك ملتصقة بالأحياء لتزيد من اختناق المكان.

صوت آخر يعلو من طرف العنبر، رجل بولندي يُحَدِّثُ من حوله، صوته واهن لكن فيه شجن:

- تذكروا... عندما كنت صغيرًا كنت ألعب تحت أشجار التفاح... أعدكم إذا نجونا... سأزرع شجرة جديدة لكل واحد منكم...

يضحك بجانبه رجل فرنسي نصف مجنون:

- أشجار؟ نحن مدفونون تحت الحديد يا صديقي... الأشجار لا تنمو في قبور السفن.

ضحكة مجنونة تتردد، لكن سرعان ما تتحول لسعال حاد، دم يتناثر من فمه. لا أحد يتحرك، فالكل يعرف أن الموت صار رفيقًا دائمًا في هذه الأعماق. رجل آخر، ملامحه مشوهة من المرض، يرفع رأسه بصعوبة ويهمس لمن بجانبه:

- إذا كان الله يسمع... فلماذا تركنا هنا؟

فيرد عجوز متهالك بجانبه بصوت أشبه بالأنين:

- ربما هو لا يسمع... أو ربما نحن آخر من يستحق السماع.

الهواء يزداد ثقلاً، الرطوبة تلتصق بالصدور، والبرد يلسع العظام. الأطفال الذين سيقوا مع عائلاتهم يئنون بصوت خافت، نساء يربطن أطفالهن بصدورهن الجائعة وكأن الحنان وحده قد يكفي... لكن الحنان أيضًا يذوب في هذا الجحيم المعدني.

كل دقيقة تمر داخل العنابر تبدو وكأنها ساعة طويلة. الأصوات كلها تتداخل: أنين، صرخات، سعال، خطوات الحراس فوقهم، وصرير البحر الذي لا يرحم. الحياة لم تعد سوى صراع بائس بين أنفاس متقطعة وأمل يتسرب كالماء بين الأصابع.

في زاوية مظلمة، امرأة مسنّة ساقها مبتورة منذ "مسيرات الموت". الدم على فخذها جفّ لكنه ترك أثرًا أسود قاتمًا. بجانبها زوجها ممدد بلا حركة، عيناه مفتوحتان على آخرهما، بؤبؤاه جامدان وكأنه تجمّد على صدمة اللحظة الأخيرة. الدود بدأ يتسلل إلى فمه وجسده من حرارة ورطوبة المكان.

المرأة لا تملك صوتًا حتى للبكاء، فقط تهز رأسها يمينًا ويسارًا ببطء وهمساتها تتلاشى:

– لا تتركني... لا تتركني...

بجانبها أم شابة تضغط رضيعًا ضعيفًا على صدرها، نصف رأس الطفل مهشّم منذ معسكر الاعتقال. جرح قديم لم يلتئم، يبكي بأنين متقطع كأنه خيط حياة رفيع. الأم ترتجف، جسدها هزيل من الجوع والعطش. الجميع يعرف القصة: الجنود اغتصبوها في المخيم، وهذا الرضيع لم يأتِ من حب بل من وحشية... ومع ذلك تحتضنه كما لو كان آخر ما يمنحها سببًا للبقاء.

صوت خشن يرتفع فجأة من وسط العنبر، رجل ألماني نحيل فقد عقله منذ أيام، يقف بعيون زائغة ويصرخ:

– اتركوني أمرّ! أنا لست سجينًا... أنا حارس! سأقتلكم جميعًا... سأقتلكم!

يمسك بقطعة خشب مكسورة كأنها سلاح يلوّح بها عشوائيًا. السجناء من حوله يبتعدون، بعضهم يضحك بمرارة، وآخرون يصرخون ليصمت.

فجأة، يُفتح الباب المعدني بقوة، يدخل حارسان من قوات الـSS، أحدهما يضحك ببرود:

– لدينا مجنون آخر...

ثم ينهال عليه بعقب البندقية على وجهه. صوت العظم وهو يتكسر يملأ العنبر. الرجل ينهار على الأرض يتلوى، الدم يتدفق من فمه، بينما الحارس الآخر يركله حتى يفقد وعيه. الجميع يلتزم الصمت، حتى الأطفال توقفوا عن البكاء للحظة. رائحة الحديد والدم تمتزج مع العرق والفضلات لتخلق جحيمًا لا يوصف.طفل آخر، لا يتجاوز العاشرة، يحاول أن يمد يده إلى والدته التي لم تعد تستجيب. يحرك وجهها بيديه المرتعشتين ويهمس لها:

– أمي استيقظي... أرجوكِ استيقظي...

لكن عينيها نصف مغمضتين، فمها مفتوح، وجسدها مائل إلى الأمام بلا حياة. الطفل يصرخ أخيرًا صرخة حادة تخرق الضجيج، تجعل الآخرين يطأطئون رؤوسهم لأن لا أحد قادر على مساعدته.

رجل عجوز في الطرف الآخر من العنبر يتحدث بصوت مبحوح كأنه واعظ يائس:

– نحن لسنا أحياء بعد الآن... نحن أرواح محبوسة في بطن الوحش... هذه ليست سفينة، هذه مقبرة تطفو على البحر.

صوت ضحكة هستيرية يرد عليه من الخلف:

– نعم مقبرة... ونحن الديدان التي تنتظر أن تُرْمَى في البحر!

الحراس يسمعون الضجيج من الخارج، أحدهم يفتح فتحة صغيرة في الباب الحديدي ويصرخ بالألمانية:

– اصمتوا أيها القذارة! من يتكلم يُقتل!

ثم يُطلق رصاصة عشوائية عبر الفتحة تصيب شابًا في كتفه. الصراخ يتصاعد من جديد. السجناء يحاولون إيقاف نزيفه بقطعة قماش متسخة. الدم يغمر الأرضية، يختلط مع البول والماء الراكد. الهواء صار أثقل، الرطوبة تلتصق بالصدور، كل نَفَس يبدو وكأنه آخر نَفَس.

امرأة تهمس للتي بجانبها، عيناها دامعتان:

– هل تعتقدين أنهم سيتركوننا نعيش؟

ترد الأخرى بصوت مكسور:

– لا... الموت سيكون أسرع من هذا العذاب.

العنابر لم تعد مكانًا للبشر، بل إنها قبو للمعاناة. كل جدار يشهد على صرخة، كل قطرة عرق أو دم تحكي قصة، والبحر بالخارج يتماوج بهدوء وكأنه يتواطأ على إخفاء ما يجري في أحشاء السفينة.

صوت المفاتيح المعدنية يدوّي في الممر... لحظة صمت مرعبة تسود بين السجناء كأن الهواء توقف. الباب الحديدي يُفتح فجأة بصرير حاد، يدخل أربعة حراس من قوات الـSS، وجوههم باردة، عيونهم قاسية وكأنهم دخلوا حظيرة حيوانات. أحدهم يصرخ بالألمانية:

– هُنا رائحة موت... هُنا قذارة!

ثم يضحك بخبث، يرفع بندقيته ويطلق رصاصة عشوائية في السقف.

الصوت يرتد في المكان المغلق كالصاعقة. الأطفال يصرخون، النساء

يتشبث ببعض، بعض الرجال يغلقون أعينهم وهم يتوقعون أن تكون الرصاصة القادمة في صدورهم. الحراس يبدأون ينهالون بالضرب. عقب البندقية يتهشم على رأس رجل نحيل. الدم يتفجّر ويسيل على الأرض، مختلطًا مع البرك النتنة من البول والعرق. طفلة صغيرة تحاول أن تختبئ تحت ذراع أمها، لكن حارسًا يسحبها من شعرها، يضحك وهو يرميها على الأرض كدمية. صراخها يملأ العنبر بينما أمها تزحف برجليها المرتعشتين نحوهما تصرخ:

– أرجوك لا... إنها مجرد طفلة!

لكن الحارس يركل الأم بقدمه الثقيلة في صدرها حتى تتقيأ دمًا. رائحة الحديد الساخن من البارود ممزوجة برائحة العفن والعرق والدم صارت تخنق الأنوف. كل نَفَس كأنه يدخل الرئة مع كل من القذارة. بعض السجناء يحاولون تغطية وجوههم بملابسهم الممزقة، لكن الرائحة أقوى كأنها تنبعث من كل جدار، من كل جسد يحتضر.

طفل آخر، لا يتجاوز العاشرة، يحاول أن يمد يده إلى والدته التي لم تعد تستجيب. يحرك وجهها بيديه المرتعشتين ويهمس لها:

– بابا... بابا... انهض... انهض!

لكن الأب غارق في دمائه بلا حراك. الطفل ينهار باكيًا، يضرب الأرض بيديه الصغيرتين كأنه يحاول إيقاظ العالم كله. الحراس يتلذذون بالمشهد ويضحكون. واحد منهم يفتح فمه ويستنشق بقوة، يقول ببرود:

– أشم رائحة خوفهم... كالحيوانات قبل الذبح.

الجملة تقع كخنجر على قلوب السجناء. امرأة مسنّة تسقط على ركبتيها، يداها ترتجفان وتهمس:

– حتى الرب لن يسمعنا هنا... حتى الرب لن يسمعنا...

الدم بدأ يكوّن مسارات صغيرة بين الأقدام يمتزج مع الروائح الخانقة. بعض السجناء يضعون أيديهم على آذانهم حتى لا يسمعوا، وآخرون يغمضون أعينهم بشدة، لكن لا مفر... الصراخ، رائحة الدم، وطعم الرعب في الحلق لا يمكن الهروب منها. طفلة في زاوية مظلمة تبكي بلا

صوت، فقط عيناها الواسعتان تلمعان في الظلام، تنظر للجميع وكأنها ولدت في الجحيم ولم تعرف غيره.

الباب الحديدي الثقيل يُفتح مرة أخرى بصرير طويل... رائحة خانقة تتفجر مباشرة كأن جدارًا من العفن والدم والبول والعرق انكسر فجأة. القبطان يتوقف عند العتبة، وجهه شاحب وعرقه يتصبب، خطواته ثقيلة كأنه يمشي إلى قبره. يبتلع ريقه بصعوبة، عيناه تزوغان من مشهد الظلام الذي يبتلع كل شيء أمامه. خلفه، يدخل فالتر فون هانسن بخطوات واثقة كأنه سيد المكان. معطفه الأسود الطويل يلمع بخفة تحت الضوء الخافت، سيجارته المشتعلة تضيء وجهه المتجهم. يضع يديه خلف ظهره ويتقدم ببطء غير مبالٍ بالرائحة أو الصرخات المكتومة.

العنبر يبدو كصندوق جثث حي، أجساد متلاصقة فوق بعضها، البعض جالس، البعض ساقط على جانبه، البعض يترنح من شدة الضعف.

العيون الغائرة تتعلق بالضوء القادم من الباب كأنه آخر خيط من

السماء. الأرضية لزجة من الدم والفضلات، الجدران تقطر رطوبة كريهة. صرخات أنين متقطعة، سعال حاد من زاوية مظلمة، وطفل يبكي بصوت مبحوح كأنه فقد القدرة على البكاء.

فالتر يقف في منتصف الممر ينفث دخان سيجارته ببطء، ابتسامة باردة ترتسم على وجهه. عيناه تتفحصان المشهد كأنه يعاين بضاعة، ثم يقول بصوت منخفض لكنه مسموع للجميع:

– جيد... جيد جدًا... هذا ما كنت أريد أن أراه.

يتقدم خطوة أخرى، يمد يده ليلمس رأس رجل عجوز شاحب الجسد، ثم يسحب يده ببرود وكأنه لمس قذارة. يضحك ضحكة قصيرة ساخرة ويقول:

– أنتم لا تستحقون الهواء الذي يملأ رئاتكم... مجرد فضلات بشرية.

القبطان يقف خلفه يحاول تجنب النظر للسجناء، لكنه يرتجف أكثر مع كل كلمة ينطقها فالتر. فالتر يرفع صوته قليلًا:

– أنتم هنا لأن العالم لم يعد بحاجة إليكم. هتلر فهم هذا وأنا أفهمه مثله... أنتم مجرد لحم، لحم يمكن أن يُستغل. ربما نبيع بعضكم كأيدٍ عاملة... أو نبيع أعضاءكم... القلب، الكبد، الكلى... كلها أثمن من حياتكم.

الضحكات القاسية تنفجر من فمه كأنها سكين تمزق صمت العنبر. بعض السجناء يطأطئون رؤوسهم خجلاً وخوفًا، وآخرون يحدقون فيه بعيون مليئة بالكراهية والدموع. الطفلة الصغيرة ترفع وجهها النحيل وتنظر إليه ببراءة ممزقة. فالتر يتوقف لحظة يقترب منها، ينحني قليلًا ينفث دخان السيجارة بوجهها مباشرة ثم يقول ببرود:

– حتى أنتِ... لا فرق، طفلة أو عجوز... كلها أجساد ستتعفن بنفس الرائحة.

الأم تحاول أن تغطي ابنتها بذراعيها، تبكي بصوت مرتجف. فالتر يبتسم ويلتفت للقبطان:

– انظر إليهم... كيف تعتقد أن بإمكان هؤلاء النجاة؟

القبطان يبتلع ريقه، صوته بالكاد يخرج:

– سيدي... إنهم بالكاد... بالكاد أحياء.

فالتر يقاطعه بصرامة:

– لا أريدهم أحياء... أريدهم خائفين. الخوف يجعلهم يطيعون... حتى آخر نَفَس.

يسحق سيجارته تحت حذائه ثم يبتسم ابتسامة باردة، يلتفت إلى السجناء المحشورين فوق بعضهم:

– لنلعب لعبة صغيرة.

يقول بصوت هادئ لكنه يزلزل كل شيء حوله:

– قرعة... وسنرى من سيكون الضحية الأولى.

أحد الشباب المراهقين يرتجف، يرفع رأسه قليلًا وعيناه تكاد تذوبان من الخوف. الأب العجوز بجانبه يصرخ بصوت متهالك:

– اترك ابني! خذني أنا!

فالتر ينظر إليه بثبات، يلتقط الأب من أذنه ويقوده إلى الأمام بينما الحشد كله يحدق. أصوات التنفس تتوقف، وصرخات مكتومة تزداد وضوحًا. الرجل العجوز يقف أمام الجميع، وجهه مُحْمَرّ، العرق يسيل على جبينه، رائحته امتزجت مع الروائح الكريهة في العنبر.

فالتر يرفع المقص ويشرح بصوت بارد:

– هذا سيعلم الجميع من يتجرأ على الاستهزاء بالقوة...

يتجمع السجناء حول المشهد، بعضهم يدفن وجوهه في أذرع الآخرين، بعضهم يبكي بصوت مكتوم، والبعض الآخر يحاول الصمود، يهمس لنفسه كلمات يعتقد أنها ستمنحه القوة. الأصوات تتداخل مع صرير الأبواب وخشخشة الأقدام على الأرضية اللزجة.

في زاوية أخرى، امرأة مسنة تتلوى من الألم، جسدها منهك، تسعل وتحاول تثبيت نفسها على الحائط. الحراس يقتربون منها يصرخون بأوامر صامتة، يلوحون بالعصي، فتسقط على الأرض تتلوى أكثر من الألم

والرعب. الأطفال بجانبها يبكون، يختنقون من الرائحة ومن الرعب الذي يتسرب إليهم عبر صوت الأم وصرخاتها.

فالتر يبتسم بينما يراقب المشهد بأعين ثابتة. الدم يمتزج بالطين والعرق، والأرضية تصبح كبحيرة سوداء من اليأس. صوت الحراس وهو يضرب بجذوعهم الخشبية على أجساد السجناء، يخلق تناغمًا مرعبًا مع صرخات الألم المكتومة.

أحد الرجال نصف المجنون يصرخ بعصبية:

– توقفوا! أرجوكم! لن أتحمل أكثر!

فالتر يضحك ضحكة قصيرة ثم يشير بإصبعه نحو الرجل:

– جيد، أنت التالي... لتتعلم ماذا يعني أن تكون بلا سلطة.

السجناء الآخرون يحدقون، يشعرون بالذعر يتسرب إلى كل عروقهم. الرطوبة الباردة تلسع أجسادهم، والهواء يثقل على رئتهم المرهقة. بعضهم يحاول أن يمسح الدم عن نفسه لكن كل شيء لزج وموحش وكأن

الجدران تمتص كل صرخة وكل دمعة. ثم يرفع فالتر يديه للأعلى، سيجارته مضاءة، وينظر حوله بعينين لا تعرفان الرحمة:

– انظروا إلى كل نَفَس تأخذونه... خائفون، مرعوبون... هذا ما يجعلني سعيدًا.

القبطان يقف إلى جانبه بالكاد يتحرك، رجلاه ترتجفان، وجهه شاحب، يحاول تجنب النظر إلى أي سجين، لكن عينيه تلتقط كل تفصيلة: الجوع، المرض، التعب، الخوف، اليأس... شعور كأنه يرى ألف جثة حية في مكان واحد.

وفي زاوية مظلمة خلف كومة من الأجساد المتراكمة فوق بعضها، يجلس رجل في أواخر الأربعينيات، جسده منهك، عيناه مغمضة جزئيًا وحركته تكاد تكون شبه معدومة. بجانبه جثة طائر صغير متحلل، ربما بطة أو عصفور. يحدق فيه الرجل لحظة بلحظة. يلمع الدم والوحل حوله، والشفاه ترتجف، لكن لا صوت يخرج، فقط دموع تتدحرج ببطء متجمدة على وجهه كما لو أن الزمن توقف. المشهد من حوله مليء

بالصراخ، الصرخات المكتومة، أنين المرضى، وخشخشة الأقدام على الأرضية اللزجة، لكنه لم يسمع أي شيء. عزل نفسه عن الأصوات، تاركًا قلبه يغرق في ألم لا يوصف. كل حركة في العنبر حوله كانت كأنها تبعده عن أي أمل، وكل نَفَس يأخذه يذكّره بالفقدان، بالدماء التي لم تتوقف، والرائحة التي تسللت إلى كل شعرة في جسده.

عيناه، رغم التعب والحزن والجوع، تحملان شعورًا مألوفًا، مزيج من الدهشة والاعتراف والفقدان. هذا الرجل، هذا الأب الذي يبكي بصمت هو أب كيت المفقود.

كل لحظة من الانتظار، كل دمعة متجمدة، كل نظرة حزينة، تعكس سنوات من الغياب والفرقة، سنوات من البحث بلا جدوى. الرجل يحدق في المشهد حوله، يرى المراهقين المرتجفين، النساء المنهارات، الأطفال المقهورين، لكنه لا يستطيع أن يتحرك، جسده منهك، ذهنه غارق في فقدان ابنته. ودموعه تتساقط بلا صوت، لكنها ثقيلة، ثقيلة

كأنها تغرق قلبه. كل نَفَس يلتقطه يملؤه الرائحة، الرطوبة، الحزن، والخوف.

في اللحظة نفسها، فالتريقف في الممر، يراقب الأجساد، يبتسم ابتسامة باردة، ويشير بإصبعه إلى الأجساد القريبة، غير مدرك أن الرجل في الزاوية لم يتأثر بالتهديد أو الخوف، بل فقط بالغضب الكامن والحزن الذي يثقل قلبه. دموعه، صمته، وثباته رغم الرعب، يخلقان لحظة مؤثرة من الألم البشري المكبوت.

الجو من حوله يزداد ثقلًا، الهواء يثقل على الرئتين، كل رائحة من العفن والدم والعرق والبول تتخلل الأجساد المتراكمة، ويبدو أن الزمن توقف للحظة، حيث كل شيء من حوله يتباطأ، كل الحركة تتلاشى، تاركًا الرجل هو ودموعه المتجمدة وبؤسه العظيم...

سطح السفينة، الدرجة الثانية، العاشرة والنصف صباحًا

كيت، إليزابيث، وصديقتاهما تايا وماريان يمشين بخطوات خفيفة على الأرضية الخشبية المصقولة للصالونات الفخمة. النوافذ الكبيرة تسمح

بدخول ضوء الشمس الذهبي الذي ينعكس على الأسطح المزخرفة بالفضة والزجاج ويزيد لمعان الأثاث المخملي. الهواء يحمل عبق القهوة الطازجة ونسيم البحر الخفيف، مزيج يشعرن معه بالراحة والفضول في آن واحد.

تايا لم تستطع كبح حماسها وهي تشير إلى الأرائك المخملية:

– انظروا! حتى الأرائك هنا مصممة لتشعرك وكأنك في قصر صغير.

ماريان ضحكت وهي تلمس إحدى الطاولات الصغيرة المزخرفة بزجاج وفضة:

– وهذه الطاولات... تري كم العناية في التفاصيل؟ كل شيء مرتب وكأنه لوحة فنية.

إليزابيث ابتسمت، عينها تتفحص الزخارف والنوافذ:

– نعم... كل شيء يبدو وكأنه حلم، أو على الأقل لحظة قصيرة بعيدًا عن ضوضاء البحر.

ضحكت تايا وهي تشير إلى إحدى اللوحات على الحائط:

– انظري هنا! لوحة لسفينة أخرى... يبدو أن كل طابق هنا مليء بالقصص. يمكننا الجلوس ساعات لنستمع فقط لكل التفاصيل.

ماريان جلست على إحدى الأرائك ورفعت قدمها بحذر لتلاحظ نعومة القماش المخملي:

– أعتقد أن هذه الأرائك مصممة لتجعلك تنسى العالم الخارجي... وربما حتى تتحدثي ببطء وتضحكي أكثر. كيت جلست بجانبها، مستمتعة بالإحساس وقالت بابتسامة:

– بالفعل... أشعر وكأننا دخلنا عالمًا خاصًا بنا، مليء بالضوء والدفء والضحك.

تايا لم تصمد أمام فضولها، فتقدمت نحو نافذة كبيرة تطل على البحر:

– انظرن إلى الخارج! البحر يلمع تحت الشمس... والموج يرقص وكأنه يحكي لنا قصة خاصة.

ضحكت كيت وأخذت تنظر إلى الزجاج العاكس فوق الطاولات:

– وأنا أعتقد أن هذه الصالونات تعلمنا الصبر... كيف نقدّر الأشياء الصغيرة: الضوء، الصوت، وحتى ضحكاتنا هنا.

ماريان لم تستطع التوقف عن الضحك وهي تشير إلى انعكاس صديقتها على الزجاج:

– انظري! حتى انعكاسنا يبدو وكأنه يشاركنا المرح.

تايا ابتسمت وأمسكت بذراع كيت:

– تعالوا، هناك زاوية أخرى فيها كتب قديمة ونماذج صغيرة لسفن، يمكننا أن نستكشفها ونرى كل شيء!

الجميع تقدمن بحماس وهن يتبادلن الحديث عن كل تفصيلة. ضحكاتهن تتناثر في المكان كأنها موسيقى بحرية خفيفة. تحدثن عن الملابس، والألوان، ورائحة الخشب الجديد، وموسيقى البحر البعيدة التي تصل إلى الصالونات المفتوحة.إليزابيث لاحظت لوحة صغيرة عليها نموذج للسفينة وأشارت إليها:

– انظرن! كل تفاصيل السفينة مصغرة هنا... من مداخن السفينة إلى السلالم الصغيرة. أعتقد أن من صمموا هذا الطابق أرادوا أن يتركوا لنا مجالًا لنرى كل شيء بعين مفتوحة.

كيت جلست على الأريكة وهي تنظر إلى الضوء الذي يدخل من النوافذ ثم قالت بابتسامة:

– أعتقد أن هذه اللحظات ستكون جزءًا من ذكرياتي على السفينة... كل ضحكة، كل خطوة، كل رائحة من البحر والقهوة، كل تفاصيل هذا المكان... ستبقى محفورة في ذهني.

ضحكن جميعًا مجددًا وهن يتبادلن النظر إلى كل زاوية، كل نافذة، كل قطعة أثاث. الأصوات: صدى ضحكاتهن مع حركة الأمواج، خرير قهوة من صالون قريب، ونسمات البحر عبر النوافذ، كل ذلك خلق شعورًا بالسكينة والاكتشاف.

تايا أخذت تفتح بابًا صغيرًا يؤدي إلى صالون آخر. ضحكات الفتيات تتعالى مع كل خطوة، وكل واحدة منهن تضيف تعليقًا، مزحة، أو

سؤالًا حول قطعة أثاث أو نافذة أو كتاب. تايا كانت تراقب الغرفة وتضحك مع إليزابيث وماريان، تتحدث عن الإكسسوارات القديمة والكتب التي رأينها في البارحة.

فجأة، قالت كيت بخفة، وهي تلمع عينيها بابتسامة:

– تعرفن... لدي نسخة مشابهة تمامًا لهذا، نسخة طبق الأصل، طراز أصلي من القرن الماضي.

ماريان رفعت حاجبها بدهشة، وتردد صوتها بالفضول:

– حقًا؟ طراز أصلي؟ هل تعنين أن لديك شيئًا مثل هذا هنا على السفينة؟

كيت أمسكت يدها وكأنها تخفي سرًا صغيرًا:

– نعم، وأريد أن أريكن إياه... لحظة واحدة فقط سأذهب لجلبه من مقصورتي وأعود حالًا.

إليزابيث نظرت بدهشة وخفة، ثم ابتسمت قائلة:

– دائمًا ما تفاجئنا... لا يمكن التنبؤ بما ستفعله بعد.

تايا ضحكت وهي تتكلم مع ماريان:

– أعتقد أن هذا هو سحر كيت... حتى مجرد كلامها يجعلنا متحمسات.

على سطح السفينة

ماركو يمشي بخطوات سريعة على سطح السفينة، عيناه تراقبان الأفق، وأصوات الأمواج تتردد في الخلفية. قال لنفسه بحدة وهو يضغط على قبضتيه:

– تلك الفتاة... أين سحبتها الآن؟

كان يعرف أن إليزابيث كانت مع كيت وصديقاتها وربما تأخرن قليلاً، لكنه لم يخف فضوله وقلقه. تراجع قليلاً إلى الدرج المؤدي إلى الدرجة الثانية وبدأ بالصعود. خطواته سريعة، قلبه ينبض بقلق وفضول في آن واحد. بينما وصل إلى منتصف الدرج توقف فجأة. ظهر حارس من الدرجة الثانية أمامه، ضخم الجسد، يرتدي زي السفينة الرسمي، وعيناه تطلقان النظرات الصارمة.

– توقف! أنت من الدرجة الثالثة! غير مسموح لك بالتواجد هنا.

ماركو رفع حاجبه قليلاً، صوته هادئ لكنه ثابت:

– دعني أمر... أنا أبحث عن أختي، هذا كل ما في الأمر.

الحارس تراجع خطوة إلى الوراء، عبوسه يتضح على وجهه:

– لا يهم سببك... القواعد واضحة، لا يُسمح لأي شخص من الدرجة الثالثة بالتجول هنا.

ماركو تشبث بالدرج قليلاً، حاول ألا يغضب لكنه شعر بالاحتقان:

– أختي في مكان ما هنا وأنا لن أتركها وحدها... فقط اسمح لي بالمرور.

الحارس صرخ بغضب، مشددًا على صوته:

– هذا لا يخصك! ابتعد فورًا وإلا سأضطر لإجبارك!

ماركو ابتسم بخفة لكنه كان في موقفه، صوته صار أكثر حزمًا:

– حاول أن تمنعني... لكن لا تتوقع أن أكون مجرد تابع للقواعد الغبية.

الحارس تقدم خطوة، ماركو لم يتراجع. نظرات الركاب بدأت تتجمع، بعضهم توقف في الممر، وآخرون أخرجوا رؤوسهم من داخل القاعة ليروا

ما يحدث. همسات متناثرة هنا وهناك وكأنهم أمام مشهد مسرحي قصير على ظهر السفينة.

ماركو يقف مشدود الجسد، ملامحه متوترة، وصوته محبوس في صدره.

الحارس أصرّ أن يغلق الممر بجسده، لا يسمح له بخطوة واحدة للأمام.

في تلك اللحظة، مرّت كيت بخطوات واثقة، عيناها الحادتان مسحتا المكان بسرعة ثم توقفتا على ماركو. تقدمت خطوة إلى الأمام، وصوتُها قاطعٌ للصمت، فيه جفافٌ وحسم:

— ما الذي يحدث هنا؟

الموظف التفت إليها وبصوت رسمي قال:

— آنسة... هذا الرجل يحاول خرق القوانين، يريد العبور من الدرجة الثالثة إلى هنا وهذا غير مسموح.

كيت حولت نظرها لماركو، بعينيها لم يكن لوم بل صرامة متفحصة.

تنفس ماركو بدأ يهدأ تدريجيًا حين التقت نظراتهما كأن شيئًا داخليًا طمأنه للحظة، لم يقل شيئًا فقط وقف ثابتًا ينظر إليها.

كيت فهمت بهدوء، وبنبرة جافة لكنها محسوبة، ارتفعت قليلاً ثم انخفضت:

– دعه يمر.

الموظف تردد، أومأ برأسه بالرفض لكنه لم ينطق بكلمة. هذا الصمت أثار غضب كيت، رفعت حاجبيها ونظرت له بعصبية واضحة ثم أدارت ظهرها وغادرت القاعة بخطوات سريعة متجهة نحو السطح. ماركو تبعها بصمت. الهواء العليل ضرب وجهيهما حين خرجا معًا.

هناك بعيدًا عن الأعين، وقف ماركو أولًا، وخرج صوتُه متقطعًا من شدة التوتر:

– كنت أبحث عن أختي، ذلك الحقير لم يسمح لي بالعبور.

كيت توقفت للحظة ثم التفتت نحوه، عيناها بقيتا صارمتين لكن على شفتيها ارتسمت ابتسامة خفيفة ساخرة:

– أختك؟ ألهذا كل هذه الضجة؟... إنها بخير كانت قبل قليل مع صديقاتنا الأخريات.

ماركو شد قبضته على الدرابزين ثم أطلق زفيرًا ثقيلاً، صوته منخفض لكنه مشحون:

– لم أستطع أن أرتاح... الفكرة وحدها أن تُترك بين غرباء أقلقتني.

كيت رفعت ذقنها قليلاً وكأنها تفحص شخصيته أكثر من كلماته:

– غريب... تبدو هادئًا لكنك عنيد. هذه المرة فقط تفهّمت لكنك تعلم جيدًا أن الدرجة الثانية ليست مكانًا يسمح لك بالتجول فيه متى شئت.

ماركو أدار وجهه نحو البحر، الأمواج تتلألأ تحت الشمس وصوته أصبح أكثر تماسكًا:

– أعرف... لكن أحيانًا لا يمكن للقوانين أن تكون أهم من العائلة.

صمتت كيت للحظة تحدق في الأفق كأنها تختبر صدقه، ثم قالت بصوت أقل حدّة لكنه ما زال جادًا:

– يبدو أنك محق، لكن لا تكرر هذا، لا أريد أن أضطر للتدخل كل مرة.

التفت نحوها، عيناه مليئتان بالامتنان لكنه أبقاه مكبوتًا خلف وقاره، وقال بهدوء:

– لم أطلب مساعدتكِ.

ضحكت كيت ضحكة قصيرة وسريعة الزوال، أزاحت خصلة شعر عن وجهها بخفة ثم التفتت لتهمّ بالرحيل لكن ماركو تكلم بسرعة وكأنه خشي أن تنتهي اللحظة قبل أن يبدأها:

– اسمي ماركو.

توقفت بخطوة ثابتة ثم التفتت نحوه ببطء، نظرتها كانت مباشرة فيها حدة مألوفة لكنها هذه المرة امتزجت بشيء من الدهشة الخفيفة أو ربما السخرية، وأجابت بصوت رزين:

– أنا أعلم، لقد تعرفنا بالفعل... البارحة.

هز رأسه بخفة كأنه يبرر نفسه:

– صحيح... لكن لم أقلها بشكل مباشر.

نظرت له للحظة، ثم قالت ببرود واضح:

– الآن قلتها.

ابتسم ابتسامة صغيرة كأنه اكتفى بردها:

– إذن أنتِ كيت، أليس كذلك؟

قالت بهدوء، نبرتها رسمية، تؤكد المعلومة فحسب:

– نعم، كيت.

سادت لحظة صمت، لم ينظر أحدهما مباشرة للآخر. ماركو عدّل سترته بخفة وقال كأنه يبحث عن أي جملة ليكسر الجمود:

– لم أقصد أن أسبب ضجة عند المدخل.

رفعت كتفيها قليلًا، ثم قالت بنبرة واقعية خالية من أي انفعال:

– لا عليك... بعض الركاب هنا عنصريون بشأن الدرجات الأخرى.

أومأ بابتسامة باهتة ظهرت على وجهه:

– نعم... لاحظت ذلك.

حاول ماركو مرة أخرى كسر الصمت، وسأل بتردد خفيف:

– هل تحبين الأفلام؟

أجابت بابتسامة صغيرة، تؤكد إجابتها:

– بالطبع... من لا يحبها؟

أومأ برأسه وقال:

– سمعت أنهم عرضوا مؤخرًا فيلم "الكونت دي مونت كريستو"... هل شاهدته؟

ابتسمت بحماس واضح، وارتفعت نبرتها قليلاً:

– نعم كان رائعًا، أحببته كثيرًا.

ابتسم بخفة:

– أما أنا، فمع احترامي للفيلم... أظن أن الرواية أفضل بكثير.

رفعت حاجبيها بدهشة، تعبّر عن عدم اقتناعها:

– حقًا؟! بالعكس، الفيلم جعل القصة أكثر إثارة... خصوصًا مشاهد السجن والهروب.

لوّح بيده قليلًا وهو يشرح:

– لكن في الرواية تفهمين دوافع البطل أكثر، تشعرين بالظلم والانتقام لحظة بلحظة. الفيلم برأيي اختصر أشياء كثيرة.

هزّت رأسها مبتسمة متحدّية، وتابعت شرح وجهة نظرها:

– لا أتفق معك... أحيانًا يكفي أن ترى المشهد أمامك بدل أن تقرأ عشر صفحات تصفه.

ضحك ضحكة قصيرة:

– إذًا نحن مختلفان حتى في طريقة الاستمتاع بالقصة.

أجابت بخفة، نبرتها مرحة ومتقبلة:

– ولِمَ لا؟ ليس بالضرورة أن نتفق في كل شيء.

ساد بينهما صمت قصير لا يقطعه سوى صوت البحر والركاب الذين يمرون. ثم أضاف بابتسامة جانبية:

– مع ذلك... من الجيد أن أجد من يشارك اهتمامه بهذا الفيلم.

ابتسمت كيت، واكتفت بالصمت دون إضافة أي كلمة، ثم فجأة رفعت يدها بخفة كأنها تذكرت شيئًا:

– أوه نسيت... يجب أن أعود الآن إلى صديقاتي.

أومأ بتفهم، ملامحه هادئة هذه المرة:

– بالطبع... لا أريد أن أؤخركِ.

استدارت بخطوات ثابتة، تمسك بطرف معطفها كي لا يتطاير مع الريح.

ابتعدت بضع خطوات والبحر يلمع خلفها كخلفية باردة صامتة.

وفجأة سمعت صوته يناديها من الخلف بنبرة منخفضة لكنها واضحة:

– لا تنسي أن تقولي لإليزابيث إن أخاها وأمها ينتظرانها.

توقفت لحظة، التفتت نصف التفاتة نحوه، عيناها تلمعان تحت ضوء الشمس. أومأت برأسها بخفة، تأكيدًا للرسالة فحسب:

– مفهوم.

ابتسم بخفة كأنه أفرغ حملاً عن صدره، ثم أدارت ظهرها ومضت في طريقها. بقي واقفًا للحظة يتابعها حتى اختفت بين الممرات، ثم بقي يحدّق في الفراغ للحظة. البحر أمامه هادئ كأنه لا يحمل سرًّا، لكنه في مكانٍ آخر في عمق السفينة كانت العيون تبكي بصمت، والظلام يبتلع أنفاس المساجين...

الكونت دي مونت كريستو فيلم سينمائي مقتبس عن رواية ألكسندر دوما الأب الشهيرة التي تحمل الاسم نفسه، تدور أحداث الفيلم حول إدوموند دانتيس، الشاب الذي يُسجن ظلمًا ويكتشف كنزًا مخفيًا، فيعود باسم "الكونت دي مونت كريستو" للانتقام من الذين خانوه، يُعد الفيلم أحد الأعمال المبكرة التي اقتبست الرواية، مجسّدًا أحداثها الأساسية في إطار سينمائي صامت، محافظًا على روح المغامرة والانتقام التي اشتهرت بها القصة الأصلية.

التاسعة مساءً

الليلة كانت ثقيلة على السفينة. الممرات شبه فارغة، أصوات المحركات تحت الأقدام تهدر بهدوء يشبه زئير وحش نائم. في الطابق العلوي داخل غرفة ضيقة تملؤها رائحة الورق العتيق والدخان، جلس القبطان أمام طاولة مغطاة بالخرائط، يراجع بخطوط مرتعشة مسار الرحلة.

الباب يُفتح ببطء، يدخل فالتر فون هانسن بخطوات ثابتة. معطفه الأسود الطويل يترك أثرًا من رائحة التبغ البارد خلفه. لم يطلب الإذن ولم يحيِّ أحدًا، فقط جلس قبالة القبطان كأنه

صاحب السفينة لا ضيف عليها.القبطان رفع رأسه متوترًا، يده تعلّقت بالقلم لثوانٍ قبل أن يضعه جانبًا، وقال بصوت خافت يعكس قلقه:

— سيدي... لم أتوقعك في هذه الساعة.

فالتر أشعل سيجارته، أخذ نفسًا عميقًا ثم أطلق الدخان ببطء نحو السقف. نظر إلى الخرائط الممدودة أمامه وقال بسخرية هادئة:

– خطوط ومسارات، بحر وجزر... كل هذا لا يعنيني. ما يعنيني هو ما نخفيه في أسفل السفينة.

تجمد القبطان، أصابعه بدأت تنقر على الخشب دون وعي، وحاول أن يحافظ على صوته متماسكًا قدر المستطاع:

– تقصد... الشحنة؟

ابتسامة باردة ارتسمت على وجه فالتر، اقترب قليلاً، صوته أصبح أشبه بالهمس لكنه مليء بحدة لا تخطئها الأذن:

– شحنة؟ لا تُسمهم هكذا، إنهم فرص، موارد... لكن ليست للعيش، بل للاستغلال.

القبطان ابتلع ريقه، حدّق في الخرائط كأنه يبحث فيها عن مهرب، وتعلثم صوته بوضوح:

– سيدي، هم بالك... بالكاد أحياء، إذا استمر الوضع في الأسفل...

قطع فالتر كلامه برفعة يده:

– هذا بالضبط ما أريده، أن يبقوا بين الموت والحياة. أحياء بما يكفي ليستفيد منهم من يعرف قيمتهم، ومرضى بما يكفي ليظلوا صامتين بلا مقاومة.

اقترب أكثر، صوته صار أوضح كأنه يضع خطة جهنمية على الطاولة:

– القلوب... الكلى... حتى الجلد والعظام، كل شيء له مشترٍ في السوق. ثم هناك العمالة، أذرع وأقدام تُستنزف حتى الرمق الأخير. أتعلم كم يمكن أن نجني من كل واحد منهم؟ أضعاف ما تجنيه السفينة من كل تذكرة فاخرة.

القبطان ارتجف، يده مسحت قطرات العرق عن جبينه، وقال بصوت مرتعش يكاد لا يُسمع:

– لكن الركاب لو عرفوا... ستكون فضيحة.

قهقه فالتر ضحكة قصيرة باردة:

– الركاب؟ هؤلاء يعيشون في أوهام الرقص والولائم. لن يسمعوا صرخة واحدة من الأسفل، لن يشموا إلا عطورهم. نحن ندفن الحقيقة في بطن السفينة بينما هم يرفعون كؤوسهم في الأعلى. ثم مال للأمام، عيناه تلمعان ببرود معدني:

– وأنت يا قبطان، إما أن تجر بسفينتك كما أريد، أو ستغرق معها. الخيار بيدك.

سقط الصمت الثقيل بينهما. عقارب الساعة على الجدار تتابع حركتها ببطء قاتل، والقبطان شعر أن الغرفة أضيق من قبر.

فالتر نهض بهدوء، نفض رماد سيجارته على طرف الخريطة دون مبالاة وقال:

– فكر جيداً... كل موجة في هذا البحر، كل ميل نبتعد فيه عن اليابسة يجعل الأسرى في الأسفل أقرب لي... وأبعد عن أي رحمة. ثم استدار وغادر بخطوات ثابتة نحو سطح السفينة الأعلى، تاركًا القبطان خلفه جالسًا كظل مكسور يحدق في الخرائط كأنه لا يعرف إلى أين تقوده.

الدرجة الثالثة، الصالة العامة

المصابيح المعلقة تتأرجح قليلاً مع اهتزاز السفينة. ضوءها الأصفر الخافت ينسكب على وجوه ركاب الدرجة الثالثة المجتمعين في الصالة. الجو مختلطًا بين ضجيج خفيف وضحكات شبابية. ماركو جلس على مقعد خشبي طويل حوله ثلاثة من رفاقه يتبادلون أطراف الحديث بعد يوم متعب.

قال أحدهم وهو يلوّح بكأس ماء فارغ:

– أتدري يا ماركو؟ في قريتنا، مجرد أن تركب قاربًا صغيرًا يقال إنك بحّار... أما نحن الآن وسط بحر لا نهاية له... سفينة عظيمة كأننا في حلم.

ضحك الآخر وأضاف:

– أحلام؟! نحن محشورون في هذه الدرجة كأننا بطون في سوق السمك! ليتنا وُلدنا في الطبقة العليا لكنّا الآن نرقص تحت الأضواء مع الموسيقى.

ماركو ابتسم نصف ابتسامة لكنه بقي صامتًا. عيناه كانتا منشغلتين كأنه يسمع ما لا يسمعه غيره. مدّ يده ليمسح على الطاولة الخشبية أمامه ثم همس:

– لحظة... اسمعوا.

سكت الجميع فجأة. في البداية لم يكن سوى همهمة المحركات وضجيج السفينة، لكن بعد ثوانٍ... دقّة مكتومة ارتجت من تحت الأرضية كأن شيئًا ما ضرب الحديد من العمق.

أحد الشباب رفع حاجبه بدهشة:

– هل سمعت هذا؟ هل هو المحركات؟

ماركو لم يرد، مال بجسده للأمام حتى كاد يلتصق بالأرض. جثا على ركبتيه وألصق أذنه بخشب الأرضية، شدّ أنفاسه بتركيز شديد، عروقه في رقبته بارزة. الرفاق تبادلوا نظرات قلقة، اقترب اثنان منهم بصمت، واحد وضع يده على كتف ماركو كأنه يواسيه :

– لا تسمع إلا أوهامك...

لكن فجأة... طرقة قوية أخرى كأن المطرقة اصطدمت بحديد سميك، ارتجّت الأرضية تحته بقوة جعلته ينتفض فجأة للخلف، رفع رأسه بسرعة، وصوتُه فيه يقينٌ قاطع:

– هذا ليس وهمًا...

تجمّد الجو، الشباب الأربعة تبادلوا نظرات صامتة، وجوههم شاحبة، الضحكات اختفت. ماركو نهض بسرعة، مسح يديه على بنطاله وقال بنبرة حادة:

– شيء مريب يحدث هنا...

العنابر السفلية

الهواء هنا خانق، الظلام مكدّس كالدخان، والحرارة ترتفع مع كل جسد محتشد. في إحدى الزوايا، مجموعة من السجناء كانت قد نفد صبرها. أجسادهم النحيلة مشدودة، عيونهم تلمع بالجنون واليأس. فجأة، انهار أحد الحراس بعدما انقض عليه رجلان بكل قوتهما، كتموا صرخته

وسحبوا عصاه الحديدية. الدم تناثر على الأرضية الرطبة، والآخرون حوله بدأوا يهمهمون بوحشية.

أحد السجناء، ضخم الجسد رغم ضعفه، رفع قطعة خشب كانت جزءًا من أثاث مكسور وبدأ يضرب بها السقف المعدني بأقصى ما يملك من قوة. كل ضربة كانت تُحدث صدى مكتومًا كالرعد، تدق الحديد وتُرسل الارتجاج إلى الطابق الأعلى. أصوات السجناء تعالت، خليط بين أنين وغضب:

– اضرب! اضرب أقوى!

دماء الحارس المسجّى على الأرضية سالت بين أقدامهم، رائحته اختلطت برائحة البول والعفن والعرق حتى صار الجو خانقًا لا يُطاق. بعضهم صرخ بجنون، آخرون بكوا، وآخرون انقضوا على السقف يضربون بأيديهم العارية حتى سالت الدماء من أصابعهم.

وفي زاوية قريبة من الباب، امرأة في الثلاثين وجهها نحيل لكن عينيها تتقدان بيأس الأم. رأت الحارس الآخر منشغلًا بمحاولة تهدئة الفوضى،

لم تفكر، انطلقت بجسدها النحيل مثل سهم. اندفعت إلى الفتحة الضيقة بجانب الباب حيث كان الحديد شبه مفكوك. دفعت جسدها بكل قوة، كتفاها احتكاكا بالحديد البارد حتى مزقا جلدها. أحد أصابع يدها انحشر بين الحافة المعدنية والباب، صرخة حادة خرجت منها لكنها خنقتها بين أسنانها حتى لا يسمعها الحراس. وفي الخارج، الدم سال بغزارة من يدها، إصبعها كان مهددًا بالانفصال، لكنها واصلت دفع جسدها الهزيل كأنها تولد من جديد.

عيناها دمعتا من الألم، أسنانها تصطك، وداخل العنبر الصرخات والفوضى تتصاعد.

خلفها أحد السجناء صرخ:

– ادفعي! ادفعي أقوى!

وفجأة انزلق نصف جسدها إلى الخارج، رأسها وكتفها خرجا والدم يغطي وجهها. شهقت شهقة طويلة، الهواء النقي من الممر الخارجي ضرب رئتيها لأول مرة منذ أيام، لكنها لم تجرؤ على الصراخ... فقط دموعها انهمرت

وهي تحشر باقي جسدها بكل ما بقي لها من قوة. وفي الأسفل استمرت الضربات العنيفة على السقف كأن الجحيم يطرق أبواب السفينة من الداخل.

وعندما وصلت إلى الممرات السفلية قرب غرفة المحركات، دفعت جسدها أخيرًا من الفتحة الحديدية الضيقة ووقعت على ركبتيها في الممر الخارجي. جسدها ارتطم بالأرض المعدنية بقوة حتى شعرت أن عظامها ستتكسر. زفرت بصوت مرتجف، فمها مفتوح كأنها تغرق وتخرج من تحت الماء لأول مرة.

رفعت رأسها ببطء، عيناها تلمعان تحت ضوء خافت يتسرب من مصباح معلق في السقف. الدم يسيل من يدها اليسرى، إصبعها عالق متهتك يكاد ينفصل، لكنها لم تملك وقتًا للتأمل. أنفاسها قصيرة، صدرها يصعد ويهبط بعنف كأن الهواء نفسه أثقل من قدرتها على احتماله.

وضعت يدها الأخرى على الجدار لتستند، قدماها ترتجفان تحتها. منذ أيام وهي محبوسة، ساقاها نسيَتا كيف تحملان جسدها. خطت خطوة أولى

مترددة كادت تسقط، لكن قبضتها تشبثت بالحديد الصدئ على الجدار. صوت هدير المحركات يهدر خلفها مثل وحش نائم، والهواء المحمّل بالزيت والدخان يخنقها. التفتت برعب سريع يمينًا ويسارًا، لا حارس في الأفق. قلبها يدق في صدرها بسرعة جنونية، كل دقّة كأنها طبلة حرب تكشف وجودها.

خطت خطوة ثانية... ثم ثالثة... ساقاها تتمايلان يمينًا ويسارًا، جسدها يتأرجح كأنها طفلة تتعلم المشي من جديد. الأرض تهتز تحتها بذبذبات المحرك، والجدران المعدنية تعكس كل صوت يصدر منها حتى تنفسها كانت تسمعه مضاعفًا، يجلجل في الممر كصرخة مكتومة.

اقتربت من زاوية ضيقة تؤدي إلى سلم حديدي يعلو نحو الطابق الأعلى، توقفت. يدها المصابة ترتجف، الدم يسيل منها ويترك قطرات داكنة على الأرض. حدّقت في الدرج كأنه جبل شاهق ثم أغمضت عينيها لحظة قصيرة، ضغطت شفتيها حتى اختلط طعم الدم بلسانها، ثم وضعت قدمها على الدرجة الأولى.

الحديد بارد وخشن تحت أصابع قدميها، ارتجف جسدها لكنها أجبرت نفسها على الصعود. خطوة بعد خطوة يديها تتشبثان بدرابزين صدئ، صوت مفاصلها يئن. وفي منتصف السلم سمعت صوتًا بعيدًا... خطوات حارس يقترب.

شهقت، قلبها انفجر رعبًا، ألصقت جسدها بالجدار، أغلقت عينيها وحبست أنفاسها. الخطوات مرّت ببطء، ظل الحارس انعكس على الجدار المقابل من ضوء المصباح. لحظة بدت كدهر.

حين ابتعد الصوت أخيرًا، انطلقت صاعدة بسرعة رغم الألم، كل خطوة كطعنة في ساقيها. وصلت إلى الأعلى، ركضت متمايلة في ممر ضيق آخر. رائحة الملح بدأت تملأ أنفها، هواء أبرد قليلاً يلفح وجهها، وكلما تقدمت كان الضوء يزداد. أصوات الركاب من بعيد تتسلل كأنها موسيقى خافتة من عالم آخر.

دفعت بابًا صغيرًا في آخر الممر بكل قوتها... الباب انفتح فجأة ليكشف عن الطابق العلوي. ضوء المصابيح ضربت عينيها بقسوة، رفعت يدها تغطي وجهها، دموعها انهمرت بلا وعي.

وفي سطح السفينة كانت إليزابيث تسير ببطء على سطح السفينة وحدها هذه المرة. الريح البحرية تداعب خصلات شعرها وهي تحدق في الأفق بعينين شاردتين. تمتمت لنفسها بلحن هادئ، أغنية صغيرة كانت تسمعها من والدتها وهي طفلة. صوتها كان بالكاد مسموعًا وسط ضجيج الأمواج، لكنها شعرت بالراحة في تلك العزلة.

خطواتها خفيفة كأنها تحاول الهروب من صخب الركاب الآخرين.

توقفت قرب سلم جانبي ضيق يؤدي إلى الممرات السفلية. مدّت يدها على الدرابزين الحديدي، أصابعها تلامس البرودة الخشنة وهمست لنفسها ببطء شديد:

– كم هو هادئ اليوم...

لكن هدوءها انكسر فجأة، صرير معدني حاد ارتفع من أسفل السلم، صوت لم تسمعه من قبل كأن شيئًا يُدفع بقوة أو يُجرّ عبر الدرج... جبهتها انعقدت في حيرة، مالت قليلًا لتلقي نظرة، وفي اللحظة التالية تجمّدت مكانها...

من فتحة السلم ظهرت امرأة، زحفت أولًا بيدين مرتجفتين ثم دفعت جسدها للخارج. إليزابيث شهقت بصوت مسموع، تراجعت خطوتين، يدها ارتفعت تلقائيًا لتغطي أنفها. الرائحة كانت لا تُطاق... مزيج من العفن والدم والعرق المحترق. المرأة بدت ككابوس حيّ. ملابسها ممزقة ملطخة ببقع سوداء، شعرها متساقط متكتل كأنه لم يُغسل منذ شهور، جلدها شاحب أقرب للرمادي ووجهها تكسوه خطوط الجوع واليأس. وقفت متمايلة، جسدها نحيل كغصن يابس وعيناها اتسعتا عندما رأت إليزابيث... دموع سالت فجأة على وجنتيها كأنها أمام شيء غير مألوف: بشر طبيعي، وجه نظيف، نسمة حرية. خطت نحوها ببطء وشفتيها ترتعشان، وهمست بصوت مبحوح بالكاد يُفهم:

- سا... ساعديني...

إليزابيث تجمّدت مكانها، عيناها تهتزان، عقلها يصرخ: ما بها؟ ما هذا المنظر؟ قلبها يدق بعنف حتى كاد يخرج من صدرها. يدها لا تزال تضغط على أنفها لتصد الرائحة الخانقة، لكن قدميها تراجعتا للخلف بلا وعي.

المرأة اقتربت أكثر، دموعها تزداد، حركتها بطيئة كأنها تمشي في حلم، تمد يديها المرتعشتين تجاه إليزابيث وكأنها تستنجد من أعماق جحيم. في تلك اللحظة ظهر فالتر عند زاوية السطح.

كان يتابع المشهد من بعيد، عيناه المتوحشتان انعقدتا بصدمة وغضب حين لمح المرأة وقد خرجت. همس لنفسه بغلّ بالغ:

- تباً...

أخرج مسدسه بخفة من معطفه، رفعه بثبات وعيناه تضيقان على رأس المرأة. لم ينتبه لإليزابيث فقد كانت خلف عمود معدني، نصف جسدها مخفيّ عن نظره.

المرأة لم تدرك ما ينتظرها، استمرت تتقدم بخطوات مرتجفة، تمد يدها كمن يلمس الأمل لأول مرة. صوتها ارتفع هذه المرة بنبرة ألم خالص:

– أرجوكِ... أنقذيني...

طلقة نارية دوّت فجأة، اخترقت الهواء كالصاعقة... الرصاصة مزقت جمجمة المرأة في لحظة، رأسها انفتح بانفجار دموي مفاجئ، أشلاء من الدم والدماغ تطايرت في الهواء ورشت أرضية السطح. جسدها انهار على الأرض بعنف، ارتجف قليلًا ثم سكن بلا حراك.

إليزابيث شهقت شهقة حادة، تجمدت عيناها على المنظر، عقلها رفض أن يصدق ما رأت. كانت ساكنة تمامًا، جسدها مشلول لكنها أحست بالبرد يجتاحها من الداخل. ثم فجأة صرخت، صرخة عالية حادة كسرت صمت السطح، انطلقت من حنجرتها بكل الرعب المكبوت.

سقطت يدها من على أنفها، ارتجفت شفتاها وركضت نحو المرأة الهامدة كأنها تبحث عن تفسير أو معجزة.

الدم كان لا يزال دافئًا يتسرب على الأرض. عيناها اتسعتا وهي ترفع رأسها ببطء لترى فالتر واقفًا بثبات، المسدس لا يزال مرفوعًا، عينيه تحدقان في الجثة ببرود قاتل. ثم التفت قليلًا، نظرتُه وقعت على إليزابيث ووجهُه تصلب. لم يكن يتوقع وجود شاهد.

همس بشتيمة حادة، وضغط على أسنانه:

– اللعنة...

رفع المسدس من جديد وهو يتمتم:

– لن أدعكِ تهربين...

إليزابيث اتسعت عيناها أكثر، لم تفكر، لم تتردد، أدارت جسدها وركضت بكل ما تملك. صرخت مرة أخرى بصوت مبحوح يختلط بالخوف:

– النجدة!

أصوات خطواتها ارتطمت بالأرض المعدنية، شعرها يتطاير، قلبها يدوي في صدرها كطبل حرب. خلفها سمعت وقع أقدام ثقيلة وصوت تهيئة

السلاح مجددًا. كل شيء حولها صار ضبابيًا، كل ما يملأ عقلها صورة واحدة: رأس المرأة ينفجر أمامها. صرخت مجددًا وهي تجري بين الممرات، دموعها تسيل، عيناها مملوءتان بالذعر وصوت البحر اختلط مع صوت خطواتها اللاهثة.

وفالتر خلفها يزمجر بصوت خافت:

– لن أدعكِ تهربين...

الفصل الخامس

ليلة القيامة في مملكة نبتون

صباح 2 مايو 1945

قاعة طعام الدرجة الثانية

رائحة الخبز الطازج، البيض المقلي، وفنجان القهوة الذي يحمل بخاره الدافئ اختلطت مع صوت الملاعق على الأطباق المعدنية.

تجلس كيت على طاولة خشبية طويلة أمامها طبق من البيض المخفوق مع شرائح خبز محمص وزبدة وكوب قهوة داكنة تفوح منه رائحة قوية.

الفتيات الأخريات من مقصورتها يجلسن حول الطاولة، بعضهن ملتفات في حديث حيوي، ضحكاتهن تتردد بين الجدران، والبعض الآخر يأخذ من الطعام ببطء مستمتعات بالهدوء الصباحي. كيت كانت تراقب زوايا القاعة بعينين متيقظتين. مزاجها اليوم حاد قليلًا لكنه لم يمنعها من الاستمتاع باللحظة بابتسامة خفيفة على شفتيها.

– هل لاحظتن كيف يبدو البحر اليوم؟

قالت إحدى الفتيات وهي تضع شوكة على طبقها، عيناها تتلألأ.أجابت كيت بنبرة هادئة، تنظر إلى المحيط كما لو كانت تتوقع حدوث شيء غير متوقع:

– هادئ... لكن لا شيء يظل هادئًا طويلًا على هذه السفينة.

– أتعرفين؟

قالت فتاة أخرى وهي تضحك:

– أمس حلمت بأن السفينة توقفت فجأة، وكل الركاب تحولوا إلى تماثيل حجرية!

ضحكت كيت بخفة لكنها ابتعدت عن الدعابة، وتابعت بنبرة فيها تحفظ:

– كل شيء يبدو صعباً أكثر مما هو عليه... أحيانًا أعتقد أن مجرد المشي على هذا السطح أشبه بالرقص على حافة خيط رفيع.

صمتت الفتيات قليلاً ثم جلست واحدة منهن وأخذت تشرح خطة للعبادة الصباحية على السطح. بينما كيت ترفع فنجان القهوة ببطء تستنشق رائحته وترسم ابتسامة خفيفة على وجهها. كانت تراقب كل

شيء لكن بطريقة هادئة. مزاجها الحاد يجعلها منتبهة لأي حركة أو ضحكة غير معتادة، وابتسامتها لم تفارق وجهها رغم شعورها الداخلي باليقظة والتحفظ على نفسها.

قاعة طعام الدرجة الثالثة

الجو في قاعة الطعام كان مختلفًا تمامًا عن الدرجة الثانية، أكثر صخبًا، أكثر فوضوية، وأكثر حرارة خانقة. الروائح الثقيلة للمأكولات البسيطة: الخبز الرطب، الحساء القليل المذاق، والبطاطس المهروسة، امتزجت مع عرق الركاب الذين يقفون بطوابير طويلة للحصول على حصصهم. أصوات الملاعق على الصحون المعدنية، والحديث المتقطع، وبكاء رضيع مكتوم في زاوية من القاعة، كلها جعلت المكان مزدحمًا ومتوترًا.

مارغريت تجلس على الطاولة، يدها ترتجف قليلاً وهي تنظر إلى الطعام أمامها دون أن تلمسه. عيناها تحملان القلق، وفمها مشدود وكأن فكرة تناول الطعام مستحيلة. إلى جانبها وقف ماركو يحاول السيطرة على توتره، مزيج من الغضب والقلق يختلط في عينيه.

– أمّي...

قال بصوت منخفض لكنه حازم وهو يمسك بيدها برفق:

– لماذا لا تأكلين؟ عليكِ أن تأكلي... لن يساعدكِ القلق قط.

مارغريت رفعت عينيها نحوه لكن لم تقل شيئًا كأن الأفكار حول إليزابيث تشل حركتها، تمنعها من الكلام، تمنعها من الالتفات إلى الطعام.

– ماركو أنا...

بدأت، لكن صوتها انسحب في الهواء قبل أن تُكمل.

– إليزابيث بخير.

قال بسرعة، محاولًا تهدئة الأم:

– كما هي دائمًا... مع صديقاتها في المقصورات الأخرى. أنا سأذهب لأجلبها، لكن الآن عليكِ أن تأكلي قليلاً، على الأقل لتتمكني من الوقوف بجانبنا.

أغمضت عينيها لثوانٍ كأنها تحاول جمع شتات نفسها، ثم رفعت ملعقتها بتردد لكنها لم تأخذ أي طعام.

ماركو تنفس ببطء وحاول أن يبقي صوته هادئًا:

– أعدكِ سأذهب وأحضرها لكِ، لكنها بخير... فقط كُلي شيئًا، لنأخذ قوتنا.

إحدى السيدات بجانبهم رأتها تتنهد وقالت بابتسامة هادئة ورقيقة:

– آه، شابات هذه الأيام دائمًا يبحثن عن المغامرة. أنتِ تفهمين ما أعنيه، أليس كذلك؟

مارغريت رمشت بسرعة ثم نظرت إلى السيدة كأنها ترى الحقيقة في كلماتها، لكنها لم تبتسم، بقيت جادة ومتوتّرة.

– نعم... ربما.

قالت أخيرًا، محاولةً أن تبدو مطمئنة، لكنها لم تتمكن من أخذ أي طعام بعد.

الهواء داخل القاعة كان خانقًا، الروائح الثقيلة، الحرارة المتزايدة، وصوت الأمواج الذي يتسلل من النوافذ الصغيرة، كل هذا جعل القاعة مكانًا مزدحمًا، لكنها كانت لحظة مهمة لمراقبة كل شيء، ومحاولة التحرك بين الركاب دون لفت الانتباه مع استمرار القلق على أخته.

الطابق السفلي، عنابر السفينة

إليزابيث تجلس في زاوية ضيقة من العنبر، ظهرها متكئ على جدار معدني بارد. الهواء خانق، ورائحة العرق والدم والبول والفضلات تتغلغل في أنفها كخنقة لا تُحتمل. كل نَفَس كانت تأخذه كان ثقيلًا كأنها تستنشق الموت نفسه.

حولها الجثث المتراكمة للركاب المصابين والمرضى، بعضهم يئن بصوت منخفض، والبعض الآخر ساكن تمامًا كأنهم توقفوا عن الحياة منذ وقت طويل.

امرأة عجوز كانت جالسة إلى جانبها، ساقها ممدودة بشكل غريب، الدم يجف حولها وعيناها فارغتان كأن الروح غادرت جسدها. بينما زوجها

كان ملقى بجانبها، الديدان تتحرك بين أصابعه. إليزابيث شعرت برعشة تسري في جسدها، حاولت تغطية أنفها بيدها لكنها لم تتمكن من إخفاء دموعها.

صمتها مليئًا بالارتعاش، بصرخات صغيرة محبوسة في صدرها، تنهيدة واحدة كبيرة تهتز من خلالها كل خلية في جسدها. بجوارها سجين آخر نصفه مصاب، نحيل للغاية، شعره متسخ، جسده مغطى بالجراثيم والعرق، يحاول شرب قطرات قليلة من الماء من قارورة معدنية مشروخة. صوته منخفض بالكاد يُسمع، بينما إليزابيث كانت تراقبه بعينين مليئتين بالخوف والشفقة، تشعر بعجزها التام عن مساعدته.

أصوات الحراس النازيين تصدح أحيانًا من فوق العنبر، خطواتهم الثقيلة على الأرض المعدنية، صرخاتهم وضربهم بالعصي، كل ذلك يجعل قلبها ينبض بشكل أسرع. الأصوات البعيدة للرصاص وصوت الأجساد المتراكمة المتحركة تحت الضغط، كلها كانت تزيد من شعورها بالرعب.

حاولت أن تتنفس بهدوء لكنها لم تستطع. كل نَفَس كان يذكرها بالمكان، بالظلام، بالرطوبة، بالبرد الذي يملأ العارضات الحديدية. رائحة الدم، العرق، والمرض كانت تلتصق بها حتى شعرت أن جلدها يلتصق بالمعدن تحتها، وكل خطوة، كل حركة، كل صوت صغير يثير رعبها. جلست على الأرض، عيناها تبحثان عن أي حركة، لكنها لم ترَ سوى وجوه شاحبة، أقدام متشابكة، وأيدٍ متشابكة بين الركاب الآخرين. كل من حولها كان يئن، يبكي، يصرخ في صمت، أو يحاول الاستمرار على قيد الحياة بالحد الأدنى من الحركة.

باب العنبر الحديدي الثقيل يفتح بصرير مفاجئ، وكل الأصوات المكتومة تتوقف لحظة. فالتر يدخل بخطوات واثقة، معطفه الأسود الطويل يتماوج خلفه، سيجارته المشتعلة تدل على ثقته المروعة، وكل من في العنبر يتجمد مكانه من الخوف.

أعين السجناء تتجه نحوه، بعضهم يحدق بذهول، بعضهم يرفع رأسه بتردد.

أما إليزابيث فشعرت بقشعريرة تسري في جسدها، نبض قلبها يزداد، ودماؤها تتجمد من هول المشهد.

يتقدم ببطء ينظر حوله بعينين صارمتين ثم يسأل بصوت بارد ومهيب:

- أين الفتاة الجديدة؟

الحراس الذين يقفون بجانبه أشاروا بإصبعهم نحو زاوية العنبر، حيث ارتعشت إليزابيث وكأنها تحاول أن تصبح جزءًا من الجدار، تتظاهر بعدم اهتمام لكنها كانت ترتجف بشدة.

يبتسم فالتر ابتسامة قصيرة ثم بدأ يقترب بهدوء من مكانها، كل خطوة منه تصنع صدى في العنبر. يقترب حتى وصل إلى جانبها وأعينها التقت بعينيه للحظة، شعرت بالارتعاب الكامل.

ببطء جثا أمامها ثم أمسكها من شعرها بسحب قوي، صرخت بصوت مكتوم، جسدها ارتجف بالكامل، شعرت بأنها على وشك الانهيار.

- عاهرة جبانة...

قالها ببرود وبصوت ساخر، ضحكته القصيرة مزقت الصمت ثم تركها فجأة وألقى بها على الحائط الحديدي. شعرت كتفها وكأنه انخلع، كل شيء حولها أصبح أكثر رعبًا.

بدأ يتحدث مجددًا، صوته يملأ العنبر:

– ستدفعين ثمن فضولكِ... لقد رأيتِ ما حدث البارحة، صحيح؟ شاهدتِ ما فعلت بتلك المرأة...

أشار إلى الحراس فأسرعوا إلى زاوية العنبر وخرجوا بالجثة من الكيس الأسود. صرخ بعض السجناء من هول المنظر وعيونهم مليئة بالرعب، لكنهم لم يفهموا تمامًا ما يحدث.

فالتر اقترب من إليزابيث، ألقى الجثة أمامها، صرخت بأعلى صوتها، حاولت الابتعاد لكنها شعرت بالذعر الكامل. كل شيء حولها أصبح مرعبًا، أصوات الحراس، صرخات السجناء، والضحك البارد لفالتر يملأ المكان بينما هو وقف هناك، ضحكته القاسية تتردد في العنبر. بينما إليزابيث أغمضت عينيها، قلبها ينبض بسرعة، جسدها يرتجف، وكانت

تعرف أن كل خطوة، كل حركة، وكل نَفَس الآن أصبح مأساويًا، وأن ما يحدث سيبقى محفورًا في ذاكرتها بلا نهاية قريبة.

رفع صوته من جديد، مخاطبًا الجميع:

– لا أحد يتحرك... كل شيء تحت سيطرتي... ولا أحد سينجو من فضوله أو جُبنه.

ظل العنبر صامتًا بعد ذلك، إلا من أنين السجناء المكتوم، والضحكة الباردة التي لا تنقطع من فالتر. بينما إليزابيث كانت تحاول أن تتنفس بصعوبة، عيناها مغمضتان، يداها تضغط على صدرها تحاول تهدئة نفسها وسط كل هذا الرعب والاضطراب النفسي لكنها مرعوبة جدًا. غطّت وجهها بكفيها المرتجفين وهمست في أعماقها بلهفة الأم ونداءها:

– أين أنت يا ماركو... أمي...

سطح السفينة

ماركو يمشي بخطوات حذرة على سطح الدرجة الثالثة، عيناه تتحركان يمينًا ويسارًا تفحصان كل ركن وكل مقصورة. الهواء عليل لكنه لا يخفف

من التوتر الذي يضغط على صدره. عندما وصل إلى منتصف الطابق لمح تايا وصديقاتها الأخريات جالسات معًا. اقترب منهن وهو يحاول أن يكون هادئًا رغم القلق الذي يعتصر قلبه، وقال بصوت منخفض لكنه ثابت:

– هل رأيتن إليزابيث؟

رفعن نظرهن بدهشة ثم هزّت إحداهن رأسها ببطء، وأجابت بنبرة متفاجئة:

– لا، لم نرها منذ البارحة.

أضافت أخرى بقلق واضح:

– هل كل شيء بخير...؟

تنفس ببطء محاولًا تهدئة نفسه، لكنه شعر بالضغط يتضاعف وعيناه تبحثان عن أي أثر صغير:

– نعم... كل شيء بخير.

أخذ نفسًا عميقًا ثم واصل السير نحو مؤخرة السفينة، كل خطوة تزيد من توتره. الأرضية كانت صلبة تحت قدميه لكنه يشعر بالقلق يزداد مع كل ثانية، وكل ظلمة تحت أي مقصورة تبدو له تهديدًا محتملًا.

بعد لحظات يذهب إلى غرفة القيادة، حيث يقف القبطان مستنشقًا الهواء ببطء، يحاول أن يبدو هادئًا رغم توتره الداخلي.

ماركو يدخل بخطوات ثابتة، صوته مشحون:

– سيدي القبطان... أختي إليزابيث هاريسون لم أرها منذ البارحة... لقد اختفت.

القبطان يرفع حاجبيه ويحاول إخفاء قلقه، ويجيب بصوت هادئ يحاول أن يبث الطمأنينة:

– ربما تتجول مع صديقاتها، لا داعي للقلق.

ماركو يضغط على يديه، صوته يرتفع قليلًا لكنه لا يزال محترفًا:

– لا... لقد بحثت في كل مكان... لم أرها مع أحد.

القبطان يحاول التملص، يرفع يديه بشكل شبه متردد، ثم يضيف محاولاً تبرير الأمر:

– من المؤكد أنها بخير... السفينة كبيرة وربما اختارت الاستراحة.

ماركو يتقدم خطوة، عيناه تحدقان في عيني القبطان مباشرة:

– ليست مجرد رحلة استراحة... هذا مكان واسع بالنسبة لها ولا يمكنني الانتظار.

القبطان يبتلع ريقه، يحاول السيطرة على أعصابه ثم يقول بصوت منخفض:

– سأبحث عنها مع الطاقم... لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام.

يجيبه ماركو بعصبية واضحة ونبرة تحدٍ:

– لا، هذا غير منطقي لبرود قبطان سفينة سياحية. على الأقل ماذا عن الدم الذي رأيته أنا هناك؟!

القبطان يحاول إظهار الاستغراب:

– أي دم؟

يسأل، يشير نحو الطاقم بجانبه، بعضهم ينظرون بتردد.

ماركو يصرخ قليلًا:

– هناك، في مؤخرة السفينة! أتعجز عن رؤيته؟

القبطان يتقدم ببطء ليفحص بنفسه، عيناه تتسعان فجأة ويدرك فورًا ما حدث، داخل قلبه صراخ داخلي: فالتر... لماذا يستمر بهذه الأفعال؟

لكنه لا يجرؤ على قولها بصوت عالٍ، يحاول أن يسيطر على نفسه.

الطاقم يبدأ بالتحرك بسرعة، بعضهم ينظرون بقلق إلى المؤخرة، يتبادلون الهمسات. بينما ماركو يراقبهم بعينين متوترة، يحاول تمالك أعصابه لكن قلبه لا يزال يدق بسرعة، وكل خطوة يخطوها الطاقم تزيد من شعوره بالتوتر والخوف.

القبطان يتنفس بعمق مرة أخرى، يحاول أن يظهر كأنه تحت السيطرة، لكنه يعلم داخله أن الأمور خارج نطاق تحكمه الآن وكل شيء قد ينهار في أي لحظة إذا استمر فالتر في أفعاله.

لم تمضِ سوى دقائق قليلة حتى بدأ بعض الركاب الذين يتمشّون على سطح السفينة يلتفتون ناحية مؤخرة السفينة. الحركة غير المعتادة للطاقم، نظراتهم المرتبكة، والهمسات التي تبادلها البحارة وهم يخنون على الأرض، كل ذلك أثار فضول العابرين.

سيدة مسنّة توقفت، وضعت يدها على ذراع زوجها وقالت بقلق:

– انظر هناك... ماذا يفعلون؟

اقترب رجل في منتصف العمر، حاجباه معقودان وهو يحدّق:

– أترى... كأنها آثار دم؟

الطاقم كانوا متصلّبين، وجوههم شاحبة رغم محاولاتهم للتظاهر بالهدوء. أحد البحّارة كان يمسح الأرضية بعصبية، يده ترتجف وهو يغمر المكان بالماء والصابون أكثر من اللازم حتى بدت الأرض لامعة على نحو مبالغ فيه. آخر وقف بجانبه، يلتفت يمين ويسار وهو يتمتم بعجلة وغضب:

– بسرعة... لا تدعهم يقتربون.

القبطان واقف خلفهم، كتفاه مشدودتان ووجهه متجهّم. رفع صوته فجأة محاولًا أن يقطع موجة الهمس التي بدأت تنتشر بين الركاب:

– لا شيء يدعو للقلق! مجرد حادث بسيط... عودوا إلى نزهتكم.

لكن نبرة صوته الثقيلة والآمرة لم تُخْفِ التوتر في عينيه. بعض الركاب تبادلوا النظرات، تردّدوا للحظة ثم ابتعد بعضهم بخطوات بطيئة، بينما بقي آخرون متسمّرين في أماكنهم، يتابعون ما يجري وكأنهم لا يصدقون.

القبطان التفت نحو أحد الضباط بجانبه، صوته منخفض لكنه حاد:

– أنهوا هذا فورًا... لا أريد أن يبقى أثر واحد.

أومأ الضابط برأسه وأشار للبحارة بمواصلة المسح بقوة. أصوات الفُرَش وهي تحتك بخشب السفينة كانت عالية بشكل غريب كأنها تحاول أن تطغى على الأسئلة التي بدأ بعض الركاب يلقونها بصوت مسموع:

– ما الذي حصل هنا؟

– هل أصيب أحد؟

القبطان لم يرد، اكتفى بنظرة قاسية ثم رفع صوته مرة أخرى فجأة بنبرة آمرة:

– أسرعوا بأيديكم! لا أريد أن يبقى شيء هنا.

تحرك البحارة بسرعة، انحنوا على الأرضية وأخذوا يمسحونها بالماء والصابون بعصبية واضحة كأنهم يريدون محو أثر الذنب قبل أن يراه مزيد من العيون. جعلت البحارة يضاعفون سرعتهم ثم بخطوات ثقيلة استدار وغادر عائدًا نحو غرفة القيادة، فيما بقي الطاقم يحاولون محو كل أثر، والركاب ينظرون من بعيد بوجوه ممتلئة ريبة وفضول.

كان ماركو يراقب المشهد بانتباه، صدره يعلو ويهبط بسرعة. وفي تلك اللحظة لمح كيت وهي تتقدم بخطوات فضولية، وجهها متجهم قليلًا لكنها لم تُخْفِ رغبتها في معرفة ما يحدث. اقترب منها بسرعة:

– كيت!

استدارت إليه بدهشة، وسألته مستوضحة عما يجري:

– ماركو؟ ما الذي يجري؟ لماذا يتجمع الناس هناك؟

تردد للحظة ثم قال بصوت مخنوق بالقلق:

– ليس مهمًا الآن... هل رأيتِ إليزابيث؟

عيناها اتسعتا، واستفسرت بلهفة:

– إليزابيث؟ لا لم أرها منذ البارحة... هل هي بخير؟

أشاح بوجهه إلى الأرض، تنفس بعمق ثم قال:

– لا أحد يعلم... لم نرها من ليلة أمس وأمي يكاد القلق يفتك بها. أنا لم أعد أحتمل الانتظار أكثر.

قالت بلطف، نبرة صوتها أكثر جدية هذه المرة، وعرضت المساعدة فورًا:

– سأساعدك على البحث عنها، أعرف بعض الأماكن التي قد تذهب إليها... ربما أرادت أن تختلي بنفسها.

نظر إليها ماركو ممتنًا لكن عينيه ظلتا متوترتين:

– أتمنى ذلك... صدقيني أي فكرة عن مكانها ستكون أهم من كل هذا الذي يحدث هنا.

هزّت رأسها موافقة بينما الضجيج خلفهما يزداد. بعض الركاب بدأ يرفع صوته محتجًا، والطاقم يكررون العبارات نفسها: "حادث صغير... لا تقلقوا"، لكن لم يكن هناك شيء طبيعي في وجوههم المتشنجة.القبطان في غرفة القيادة أغلق الباب خلفه وأسند ظهره إليه وعيناه تحدقان في الفراغ. يداه ارتجفتا للحظة وهو يضغط على مقبض الباب. صوت داخلي خافت أخذ يصرخ في عقله:

— إلى متى سأظل أصمت؟ سبعة آلاف إنسان في العنبر السفلي يتعذبون... كل يوم يموت بعضهم. والركاب هنا لا يعلمون شيئًا، كيف أتحمل ذلك؟

اقترب من النافذة، نظر إلى البحر الممتد بلا نهاية وتابع صراعه الصامت:

— أنا القبطان... من المفترض أن أضمن سلامة الجميع على هذه السفينة لكني عاجز. فالتر يزداد جرأة، يقتل أمامي، يترك الدم ينزف على ألواح السفينة، وأنا أصمت... أيّة لعنة هذه؟

رفع يده ليمسح عرقه البارد، أغمض عينيه. كلما حاول أن يبرر لنفسه بالصمت، يسمع صرخات السجناء تتردد في أعماق ذهنه، الروائح التي يعرف أنها تصعد من الأسفل... أصوات الحديد عندما يطرقونه بأجسادهم... كلها تثقل قلبه والذكريات تضغط على رأسه مثل مطرقة.

عاد يهمس لنفسه:

– يكفي... يكفي...

ثم فجأة يضرب رأسه بالجدار بقوة، مرة، مرتين، حتى يترك أثرًا أحمر على جبينه. صرخاته تمزّق الصمت:

– كفى!! لم أعد أحتمل...

يتنفس بعنف، يترنح قليلًا، يضع يديه على ركبتيه كأنه سينهار ثم ينهض بخطوات مترددة نحو الطاولة. يسحب زجاجة ماء ويرتشف جرعة كبيرة، يحاول أن يستعيد هدوءه. عيناه دامعتان لكن ملامحه متحجرة، يعرف أنه لا يملك رفاهية الانكسار... ليس الآن.

وعلى سطح السفينة حيث ما يزال الركاب في حالة ارتباك بعد تنظيف الدم، ماركو واقف عند الدرابزين، كيت تقف بجانبه تحاول أن تبقي ملامحها ثابتة لكنها قلقة. فجأة يظهر القبطان ينزل من الأعلى، خطواته مثقلة لكن عينيه تنظران مباشرة نحوهما. ماركو يتقدم بخطوة، صوته متوتر:

– سيدي هل وجدتم شيئًا عن أختي إليزابيث هاريسون؟

القبطان يرفع يده ببطء وكأنه يطلب الصمت، ينظر حوله ليتأكد من أن لا أحد يسمع. ثم يقول بصوت منخفض لكنه حاد:

– تعالوا... ليس هنا.

يقودهم نحو ركن جانبي بعيد عن الركاب، حيث الظلال تغطي الممر، يتوقف يتنفس بعمق، يمرر يده على جبينه المبتل بالعرق والدم القليل من أثر الضربة. ماركو يلاحظ ذلك لكن القبطان لا يترك له فرصة للسؤال. القبطان بصوت مكسور، فيه اعتراف مضمر:

– هناك شيء لن تفهموه بسهولة... شيء لم يكن يفترض أن تعرفوه.

كيت ترفع حاجبها، وتصرخ داخلياً بلهجة لا تخلو من التهديد:

– ماذا تعني؟

القبطان يغمض عينيه للحظة كأنه يستجمع شجاعته، ثم ينطق:

– سيد هاريسون... أختك ليست تائهة... إنها محتجزة.

ماركو يتراجع خطوة، صوته مرتعش لكن غاضب:

– محتجزة؟ من الذي يجرؤ على هذا؟!

ينظر للأسفل، صوته خافت لكنه مليء بالمرارة:

– السفينة تحمل أكثر من مجرد ركاب... في الطابق السفلي... في العنابر المظلمة... سبعة آلاف سجين.

تسقط الكلمة مثل صاعقة، ماركو يفتح فمه بدهشة عاجزًا عن الكلام.

كيت تضع يدها على فمها مذهولة، تتنفس ببطء كأن الهواء يثقل صدرها. الصمت يسيطر للحظة. القبطان يرفع رأسه فجأة، عيناه تلمعان بالذنب:

– لا تقولوا لأحد... إن علم الركاب ستعم الفوضى.

ماركو يتقدم خطوة، صوته ينفجر غضباً وهو يطالب بحقيقة أخيه:

– شقيقتي هناك بين هؤلاء؟!

القبطان يهز رأسه بتثاقل وكأنه يعترف بجريمة لا يريد أن يعترف بها:

– نعم... على الأغلب.

كيت بصوت جاد، رغم ارتباكها، تستنكر الأمر بحدة:

– هذا جنون... سبعة آلاف؟! كيف... كيف يمكن أن يكون هذا حقيقيًا ولم يعرف أحد؟

القبطان يضغط على صدغيه بيديه، صوته يخرج كأنما من أعماق نفسه:

– لأنني صمتُّ، لأنني سمحت لهم، ولأن فالتر... لا يعرف الرحمة.

ثم يقترب منهما فجأة، يمسك ذراع ماركو بقوة وكأنه ينقل له السر الأخير:

– اسمع... إذا أردت أن تصل إليها... عليك النزول عبر ممر الصيانة، خلف غرفة المحركات. هناك درج ضيق يؤدي إلى الأبواب الحديدية... إلى الجحيم.

ماركو يبتلع ريقه، عيناه مشتعلة بالخوف والغضب. كيت تنظر بينهما في صدمة لا تستطيع استيعابها.

القبطان يبتعد ببطء، صوته يرتجف كأنه يحكم على نفسه بالإعدام:

– لكن تذكروا... إن كشفتم هذا السر أو حاولتم فضحه... لن ينجو أحد منكم.

ماركو خرج من عند القبطان وهو يغلي من الداخل، كل عرق في جسده يصرخ غضباً وعيناه تقدحان شرراً. خطواته تضرب أرضية الممر كأنها طلقات مدفع وصدى كلمته الأخيرة ما زال يرنّ:

– سأجعل من المسؤول عن هذا يدفع الثمن...

الهواء في الممرات ضاق عليه لكنه لم يتوقف، اندفع للأمام بلا تفكير، كل ما يشغله أن يجد إليزابيث. فجأة سمع وقع خطوات خفيفة تلحقه من الخلف، استدار بسرعة وهو مستعد ليرد بعصبية لكن وجه كيت ظهر

أمامه، صارم وجاد، لم يكن فيه أثر لتردد. فتح فمه ليعترض لكنها قاطعته بلهجة حاسمة وهي ترفع ذقنها:

– أنا أيضًا... أريد أن أرى بنفسي.

تجمد لحظة ينظر إليها، بين الغضب والدهشة، لكنه لم يجد في عينيها سوى إصرار يعكس إصراره نفسه. لم يقل شيئًا فقد أدار وجهه وأكمل السير وصوت خطواتها يتبعه عن قرب كأنها تعلن أن هذه اللحظة ليست تخصه وحده.

الممرات كانت تضيق كلما تقدما، الأنابيب المعدنية تلتصق بالجدران ورائحة الزيت والحديد الصدئ تكاد تخنق أنفاسهما. الجو رطب خانق، والضوء الخافت يتساقط من مصابيح مغطاة بالأتربة. أخيرًا وصلا إلى ذلك الباب الحديدي العريض، أسود قاتم يحمل طبقات من الصدأ وكأنه لم يُفتح منذ سنوات. وقف ماركو أمامه، مد يده على المقبض الضخم وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يدفع بكل قوته، لكن الباب لم يتحرك إلا قليلاً

ثم ارتد مغلقًا بقوة. زمجر غاضبًا وكرر المحاولة بجسده كله لكنه اصطدم بمقاومة أقسى. كيت وضعت يدها على الباب بجانبه، تنظر إليه بحدة:

– لنحاول فتحه معًا.

التقت عيناها بعينيه لحظة قصيرة ثم شدّا قبضتيهما ودفعا في الوقت نفسه. الحديد صرّ بصوت طويل يشبه أنينًا يخرج من جوف الميت وارتجفت المفصلات القديمة لكن الباب ظل صامدًا. زفر ماركو بشدة، مسح العرق عن جبينه ورفع كتفه ليضرب به الباب مرة أخرى. مع الضربة الثالثة ومع قوة جسديهما معًا، انفتح الباب فجأة بصوت مزعج كأنه يصرخ غضبًا من انتهاك سره.

لكن ما إن انفتح حتى انفجرت في وجهيهما موجة من الروائح العفنة، رائحة الدم المختلط بالعفن والعرق والبول كأن كل قذارة العالم تجمعت هنا. تراجعت كيت بخطوة سريعة ويدها ارتفعت لا إراديًا لتغطي فمها، عيناها اتسعتا لدرجة كأنهما ستسقطان من مكانهما وبؤبؤها تمدد حتى صار سوادًا يبتلع البياض. أما ماركو فتجمد في مكانه، صدره يعلو

ويهبط كأنه يقاوم غرقًا في بحر أسود وعيناه تدوران في المكان في صدمة.

داخل العنبر، آلاف الأجساد محشورة، أجساد نحيلة شاحبة مكدّسة فوق بعضها كأطياف هاربة من الجحيم، عيون غائرة تلمع في الظلمة وتتشبث بالباب الذي انفتح كأنه نافذة معجزة. أصوات أنين متقطع خرجت من الحناجر الضعيفة، وبعض السجناء رفعوا رؤوسهم بصعوبة كأنهم لا يصدقون أن الضوء الخارجي اخترق عالمهم.

في الطرف الآخر، استدار فالتر ببطء، لم يكن يتوقع هذا الاقتحام. ملامحه انعقدت بانزعاج بارد، نظرة ضيقة حادة أشبه بعيون أفعى اكتشفت دخيلًا في وكرها. حوله وقف الجنود وفور أن لمحوا ماركو وكيت عند الباب، ارتفعت أصوات الأسلحة تُسحب ووجّهوا البنادق مباشرة إلى صدر ماركو. اللحظة كانت خاطفة وكيت ارتمت سريعًا خلف ظهره، تمسك بذراعه بيد مرتجفة تختبئ كما لو أن جسده هو الجدار الأخير أمام الموت.

فالتر لم يتفوه بكلمة، عيناه فقط ترمقان المشهد. حرك إصبعه حركة صغيرة بالكاد تُرى لكنها كافية. الجنود خفضوا أسلحتهم فورًا، الطاعة العمياء جعلت الصمت يعود.

ماركو ظل واقفًا شامخًا، عيناه مشدودتان نحو فالتر، يعرف من هو، يعرف أن هذا الرجل هو قلب كل شر في هذه السفينة. الغضب في داخله تحوّل إلى بركان ينتظر لحظة الانفجار.

لكن في الزاوية المظلمة بين الأجساد المرهقة والوجوه الباهتة، فتحت عينان واسعتان: إليزابيث. قلبها قفز من مكانه، شهقت شهقة عالية، الصوت خرج متحشرجًا لكنه اخترق كل جدار في العنبر.

وجهها شاحب، دموعها متيبسة على خديها. يداها المرتجفتان حاولتا التمسك بالأرض لتنهض، بالكاد تحمل نفسها، لكن الأمل جرّها جَرّاً. ارتفعت على ركبتيها ثم صرخت بصوت متقطع من حنجرة متكسرة مليئة بالروح:

— أخي...!

الصرخة دوّت وسط صمت الموتى، ارتدت من جدران العنبر الثقيلة حتى صارت كأنها ملء المكان. ماركو تجمد، كل شيء حوله تلاشى، لم ير الجنود، لم يسمع أنين السجناء، لم يشعر بكيت التي تمسكه من الخلف. عيناه فقط عانقتا عينيها. دمعة ثقيلة تجمعت في عينيه لكنه لم يسمح لها أن تسقط. لحظة واحدة شعر فيها أن صدره انفكّ من قيود ثقيلة، أن قلبه عاد لينبض بالحياة.

إليزابيث مدت يديها المرتعشتين نحوه، عيناها تتوسلان، دموعها تنهمر فجأة بعدما كانت متيبسة:

— ماركو... ساعدني...

تقدم خطوة واحدة إلى الداخل، صوته خرج مبحوحًا لكنه قوي كقسم مقدس:

— أنا هنا... لن أدعهم يأخذونكِ بعد الآن.

لم يتوقف عن المرور إليها، مرّ بجانب فالتر، نظر له للحظة واحدة فقط وكأنها مواجهة صامتة بين عقلين متناقضين. عيناه وقعتا على تلك

النظرات الباردة الغريبة، مزيج من السايكوباتية والازدراء واللذة السوداء. شيء في قلب ماركو غلى أكثر، لم يحتمل أن يمر دون رد، فجأة استدار بقبضته المشتعلة وضرب فالتر بقوة هزّت وجهه وأرجعته للخلف نصف خطوة. صوت الضربة تردد في العنبر كالرعد والجنود ارتجفوا لحظة بين المفاجأة والغضب.

كيت خلفه شهقت ووضعت يدها على صدرها. الخوف يسيطر عليها لكن قدميها تابعتاه تلقائيًا تمسك بجانبه كأنها تستمد منه الشجاعة. ماركو لم ينظر خلفه، لم يلتفت حتى للجنود الذين أحاطوا بهم، كل تركيزه على تلك الزاوية المظلمة حيث جلست إليزابيث.

فالتر مسح الدم من فمه بأطراف أصابعه، عيناه تلمعان ببريق خطير. رفع يده ببطء، الجنود استعدوا للضغط على الزناد لكن إشارة صغيرة من أصابعه جعلتهم يتوقفون. ابتسامة مشوهة ارتسمت على وجهه وفي داخله صرخ صوت مظلم:

– ليس بعد... سأجعل القادم جحيمًا لهم.

نظراته وحدها كانت تحمل وعيدًا كأنها تقول إن الضربة لم تكن سوى بداية لعبة أكثر قسوة. في الخلف، السجناء رفعوا رؤوسهم بصعوبة، أعينهم الواسعة الغائرة تركزت على ماركو وكيت. بعضهم بدأ يصرخ صرخات متقطعة خرجت من حناجر مبحوحة كأنهم رأوا شعاع أمل لم يصدقوا وجوده. الأيدي الهزيلة ارتفعت نحو الباب، أصواتهم متداخلة بين الرجاء واليأس:

– أنقذونا...!

– لا تتركونا هنا...!

لكن ماركو لم يستطع الرد، قلبه ممزق بينهم وبين شقيقته، والوقت ينزلق من يديه. خطا بخطوات سريعة نحو إليزابيث، ركض رغم ثقل الهواء والأنظار المسلطة عليه. ركع بجانبها وعيناه امتلأتا بالدموع دون أن يتكلم. الدموع انحدرت بصمت على خده وهو يمد ذراعيه. إليزابيث مدت يديها المرتعشتين نحوه، جسدها انهار عليه، سقطت بين ذراعيه كأنها أخيرًا وجدت ملجأً بعد عاصفة طويلة.

– كنت... خائفة...

صوتها متقطع، ضعيف لكنه يذبح القلب.

شدها إلى صدره بقوة، ذراعه تحيط بها كمن يحمي أغلى ما يملك، دموعه تساقطت على شعرها المبعثر. لم يحاول مسحها، تركها تنزل بحرية كأنها تغسل روحه. كل لحظة بعيدة عنها تحولت إلى وجع يخرج في شكل دموع. كيت تقف بجانبه، أنفها مغطى براحتها الأخرى. الرائحة الكريهة التي ملأت المكان كادت تهزمها. عيناها ارتجفتا وهي ترى السجناء من حولها، الوجوه التي تحمل كل ألوان العذاب. لم تستطع أن تتكلم، فقط دموعها بدأت تتجمع من شدة الصدمة.

ماركو رفع إليزابيث بسرعة بين ذراعيه، وقف وهو يضغطها إلى صدره وكأنه يخشى أن تختفي مرة أخرى إن تركها لحظة واحدة...

خطواته كانت متوترة ثقيلة لكنه لا يتوقف. وفي الزاوية، التقط فالتر بصره فأسًا صغيرًا مرميًا بجانب صناديق صدئة، ربما كان أداة قديمة تُركت للنسيان. نظر إليه لحظة ثم التقطه بسرعة، قبضته مشدودة ورفع

رأسه بنظرة شيطانية، عيناه تلمعان بالمتعة المريضة وكأنه يستمتع برعبهم. ابتسم لهم ببطء، ضحكته المشوهة تملأ المكان صمتًا ثقيلًا ثم استدار وخرج من العنبر صاعدًا نحو الجزء العلوي من السفينة، تاركًا وراءه شعورًا بالخوف والرهبة يلتصق بكل من بقي هناك. ماركو كان لا يزال محتضنًا إليزابيث بين ذراعيه يمسح على شعرها المبعثر وهو يهمس بكلمات لا يسمعها أحد، وكيت واقفة بجانبه تضع يدها على فمها تحاول أن تتمالك نفسها من الرائحة والمشهد.

لكن من بعيد... في زاوية شبه مظلمة كان رجل ما قد بدأ يتحرك ببطء شديد وكأنه خرج لتوه من سُبات طويل. عيناه الغائرتان ارتجفتا لحظة ثم ثبتتا على شيء لم يتوقع أن يراه أبدًا. جسده النحيل المهترئ بدأ ينتفض، قلبه ضرب بقوة كادت تمزقه من الداخل، لم يكن يصدق:

— هل هذه...؟ لا، لا يمكن... لكنها هناك... إنها هي... كيت.

الزمن توقف عنده، كل الأصوات تلاشت حتى أنين السجناء من حوله صار بعيدًا جدًا، لم يبق سوى صورة واحدة أمام عينيه: فتاة تشبه تمامًا ابنته التي لم يرها منذ أربع سنوات.

حنجرته الجافة بالكاد سمحت له بالتنفس، لكن مع كل ما تبقى من قوته رفع ذراعه المرتعشة إلى الأعلى، إصبعه الهزيل يكاد لا يثبت في الهواء.

حاول أن يصرخ لكن صوته خرج مبحوحًا مشققًا من العطش والألم:

– كيــت...!

كانت صرخة بالكاد تصل لكنها اخترقت الضوضاء. كيت توقفت فجأة، التفتت ببطء. عيناها ارتجفتا لم تفهم للوهلة الأولى، رأت رجلاً شاحبًا ملطخًا بالدماء والأوساخ بالكاد واقفًا على قدميه، لم تستوعب... قلبها دق بعنف، عقلها يرفض أن يصدق، لكن شيئًا في أعماقها همس لها.

اقترب الرجل خطوة، ساقه اليسرى تكاد تُجَرُّ خلفه، الألم ظاهر في كل حركة لكنه لم يتوقف. صوته المتقطع خرج مرة أخرى:

– ابنتي...

كيت شعرت بزلزال داخلها، بؤبؤا عينيها اتسعا حتى بدت مذهولة، فمها انفتح قليلًا كأن الكلمات رفضت أن تخرج، دموعها بدأت تتجمع بلا إذن، تهتز شفتاها ثم همست بصوت مبحوح بالكاد تسمعه:

– أ... أبي...؟ لا... لا يعقل.

ركضت خطوتين للأمام ثم توقفت وكأنها خائفة من أن يكون وهمًا أو كابوسًا جديدًا، لكن نظرته لم تخطئه، نظرة لا يمكن لأي ابنة أن تخطئها. دموعها انفجرت سالت بغزارة على وجنتيها وهي تغطي فمها بيدها، ارتجف جسدها كله وكأنها عادت طفلة صغيرة.

هو أيضًا دموعه لم تتوقف رغم أن جسده الجاف كان يصرخ عطشًا إلا أن دموعه سالت بحرارة. كل دمعة تحمل أربع سنوات من الغياب واليأس، خطواته متعثرة لكنه تابع وكل خطوة تشبه المعجزة.

هي لم تعد تتحمل، تركت كل شيء خلفها، تجاهلت الرائحة النتنة، تجاهلت الخوف، واندفعت نحوه بكل قوتها، ألقت بنفسها في حضنه

الواهن، ضغطته على صدرها كأنها تريد أن تذوب داخله. انفجرت بالبكاء، صوتها ارتفع حادًا متقطعًا:

– أبي... هل هذا حقيقي؟

ذراعاه الهزيلتان أحاطتا بها ببطء لكن بقوة الروح لا الجسد، ضمها كما لو كان يمسك بالحياة ذاتها. صوته المرتعش خرج وهو يدفن وجهه في شعرها:

– ابنتي العزيزة... كنت أعرف... كنت أعرف أنني سأراكِ يومًا.

انفجرت بالبكاء أكثر، دموعها تساقطت على صدره القذر لكنها لم تهتم، صرخت بصوت متقطع

بين شهقاتها:

– هذا لا يمكن أن يكون حقيقيًا... لا، هذا حلم! أبي، أنت حي... أنت حقًا أمامي...!

ضغطها بقوة أكبر رغم ضعفه وقال بصوت متقطع لكنه مليء بالحنان والوجع:

– لا، لستِ في حلم... أنا هنا... أنا معكِ.

ماركو وقف مذهولًا، عيناه ممتلئتان بالدموع دون وعي، ينظر إلى المشهد وكأن قلبه لا يحتمل ثقل اللحظة. إليزابيث في حضن ماركو توقفت عن البكاء قليلاً وهي تحدق بعينيها الواسعتين في اللقاء الذي لم تتخيله قط، حتى السجناء من حولهم صمتوا، كلهم يراقبون بذهول وخوف وشيء يشبه الحسد.

رفعت كيت رأسها لتراه جيدًا، وجهه مليء بالكدمات والجروح، شاحب كأنه عاد من الموت، جسده يرتجف. شهقت وهي تضع يديها على وجهه:

– لماذا... لماذا أنت على هذه الحال...؟

دموعها اختلطت بدموعه وعيناه امتلأتا بالحب الممزوج بالألم، وقال بصوت مرتجف يكشف عن إحساس عميق بالرضا رغم المأساة:

– لا يهمني حالي... المهم أنكِ بخير... أنتِ أمامي الآن... هذا يكفيني...

لكنها هزت رأسها بعنف كأنها ترفض:

– لا... هذا لا يكفي... لقد فقدناك...! أربع سنوات يا أبي...! أمي ماتت حزنًا عليك...!

جملتها الأخيرة ضربته كالسهم، جسده اهتز، عيناه امتلأتا بمزيد من الدموع، صمت لثوانٍ ثم رفع يده المرتجفة ولمس خدها بحنان أبوي:

– أمكِ ماري ماتت...؟

أومأت وهي تبكي بحرقة:

– نعم... ماتت بعد عام من اختفائك... لم تحتمل... تفككت عائلتنا... كنتَ كل شيء لنا.

عينيه أغمضتا للحظة، دمعة ساخنة انحدرت على وجنته المرهقة، شفتاه ارتجفتا وهو يهمس بصوت خفيض وكأن قلبه يُسحق:

– سامحيني يا ابنتي... سامحيني... لقد ضيعتكم جميعًا...

صرخت وهي تحضنه من جديد، صوتها محمّل بكل الألم المكبوت:

– لا تقل ذلك... المهم أنك هنا الآن... لا تتركني ثانية... أرجوك...!

ضمها بقوة رغم ضعفه وكأن الحياة كلها عادت إلى عروقه فقط بوجودها في حضنه. بداخله شعر بشيء يشبه الرجل العطشان في صحراء الذي كاد أن يموت عطشًا وفجأة عثر على ماء بارد صافٍ بين يديه... هذا اللقاء بالنسبة له لم يكن مجرد لقاء، كان نجاة، كان عودة الروح بعد موت طويل.

جوناثان لورنس

جوناثان لورنس والد كيت، كان من بين المدنيين الذين اعتقلهم النظام النازي ونقلوا بين السفن والأماكن المختلفة حيث تعرضوا للتعذيب، ظل حيًا رغم سنوات الغياب لتكتشفه ابنته فجأة بعد أن ظنت أنه فقد أو مات خلال مأساة السفينة.

الجزء العلوي من السفينة

غرفة القيادة كانت مظلمة نسبيًا، أنوار خافتة تصدح بين لوحات التحكم، والقبطان واقف عند حافة القوس يحدق بالبحر أمامه بعينين شاحبتين. يده ترتجف قليلاً وهو يشعر بثقل كل ما حدث، كل الدماء، كل الأسرار التي اكتشفها، وكل ما فعله فالتر تحت سيطرته. قلبه ينبض بعنف، يختنق بالندم، كل نَفَس يأخذه كأنه يضغط على صدره.

ابتلعت الموجة التالية من الذنب روحه. خطا خطوة إلى الأمام، يهم برمي نفسه في البحر، يتمنى أن يغسل كل شيء، يترك كل الرعب والموت خلفه. لكن لم يكن يعلم أن خطوة واحدة ستغير كل شيء في لحظة. من جهة الظل ظهرت حركة سريعة، فالتر يتحرك بخفة لا يصدقها العقل، يحيط بالقبطان كطائر جارح، سرعته جنونية حتى أن الظل كان يسبق جسده، الجنود خلفه يراقبونه مستعدون لأي أمر. فالتر رفع يده بسرعة البرق وكأن لا أحد يستطيع اللحاق به.

على السطح، بعض الركاب نظروا بدهشة، أصواتهم محبوسة بين الصمت والخوف، لم يفهموا ما يحدث إلا أنهم شعروا بأن شيئًا رهيبًا على وشك الحدوث.

في لحظة خاطفة، اقترب فالتر من القبطان، الفأس في يده يلمع تحت ضوء الشفق الصناعي. القبطان لم يملك فرصة للتصرف، قلبه يكاد ينفجر من الذعر، عيناه تتسعان، يده ترتجف والفأس على بعد سنتيمترات منه. ثم كأنما يقظة غريزية انتشلت القبطان من الموت، انزاح فجأة إلى الجانب. جسده انحنى بسرعة مذهلة، الفأس تصطدم بالخشب بجانبه صوتًا مدويًا. جميع الركاب على السطح صرخوا، الذعر عم المكان. فالتر لم يتوقف، نهض بسرعة هجم عليه بلكمات عنيفة، ضربات متتابعة كأنها لا تعرف توقفًا.الفأس سقط في البحر مع صوت تقزز. فالتر أصبح في حالة جنون كامل، عيونُه تتوهج، كل شيء حوله لا يهمه إلا الانتقام والتحطيم، يهاجم القبطان بلا رحمة، والقبطان يتراجع ويمسك نفسه يرتجف، دمه يختلط بالعرق. جسده يرتعش من الخوف الشديد، لكن في

داخله شيء يقول له: "لا تستسلم، قاوم، على الأقل لأجل من على السفينة".

الركاب أصبحوا في حالة صدمة مطلقة، بعضهم ركض إلى الحواجز، أصواتهم تتقاطع بين الصراخ والارتجاف، آخرون حاولوا التسلل بعيدًا عن هذا الجنون المباشر، كل شيء أصبح حالة من الفوضى المطلقة على السطح.

وفي قاعة الدرجة الأولى

بعض الأثرياء يجلسون حول طاولة، يلهون بلعبة الورق بصوت منخفض، القاعة مليئة بالهدوء النسبي. أصوات أوراق اللعب تتردد برفق بين أضواء الغرفة. فجأة الباب يُفتح بعنف، امرأة تصرخ. عيون الجميع تتسع من الخوف، الدم يتجمد في عروقهم. الارتباك سيطر على الطاولة، الأوراق تتناثر، بعض الرجال يقفون مشدوهين، نساء يصرخن حتى الهواء بدا ثقيلًا ومشبعًا بالرعب. فجأة منظر القبطان يظهر: وجهه مليء بالدماء، عيناه شاحبتان، تنفسه متقطع، ملابسه ممزقة جزئيًا.

الأثرياء ركضوا باتجاه نوافذ الطابق العلوي، نظروا إلى خارج السفينة، أصوات الصراخ من السطح تصم الآذان، كل شيء حولهم تحول إلى فوضى مطلقة. الركاب والطاقم وكل من في المكان كانوا مذهولين، لم يستوعب أحد مدى الرعب الذي وقع أمام أعينهم، كانت لحظة صادمة مرعبة تترك أثرًا عميقًا في كل من شهدها.

فالتر في هدوء بعد الجنون يبتعد عن القبطان، ينظر حوله، نظراته سايكوباتية عابرة وكأن العالم كله مجرد لعبته، والقبطان ينظر إليه بدهشة وخوف، جسده منهك، روحه تتألم من الصدمة، وكل من في السفينة أصبح جزءًا من مشهد لا يُنسى، حيث الرعب والجنون يختلطان ويصبح كل شيء متوترًا حتى آخر نَفَس.

وسط الفوضى التي اجتاحت السطح، حيث صرخات الركاب، ظهرت حركة من الأسفل. السلم المؤدي إلى الطابق السفلي بدأ يتحرك بحذر، وكل خطوة كانت تصدر صريرًا منخفضًا يختلط بصوت الصراخ فوقهم.

ماركو ظهر أولًا، يتحرك بثبات رغم الإرهاق والدموع التي تلمع في عينيه، يحتضن إليزابيث التي كانت ما زالت ترتجف، جسدها ضعيف وممتلئ بالخوف لكنه يمسك بها كما لو كانت أغلى ما يملك في الحياة. كل خطوة يخطيها كانت مرهقة، الأرضية تهتز قليلاً تحت أقدامه لكنه لم يتوقف.

خلفه صعدت كيت، وجهها مشدود، عيناها تلمعان بحزم، تحاول الإمساك بوالدها الذي بدا مثقلاً بالدماء والكسور، جسده الهزيل يتكئ عليها لكنها تدعمه بقوة يدها، تثق بقدرتها على الوقوف في هذا الموقف المريع. معهم بدأ بعض المساجين يخرجون من الطابق السفلي، وجوههم شاحبة، أصواتهم مكتومة، عيونهم واسعة من الرعب والصدمة، كل واحد منهم كان يحمل على كتفه جزءًا من الرعب الذي كان يعيشه في العنابر، لكنهم كانوا يتحركون مع تدفق الخلاص، يتبعون من خرج أولًا وكأنهم يحملون شعلة الأمل الأخيرة بينهم.

الركاب من حولهم تجمدوا في أماكنهم، أصواتهم محبوسة في الصدور، لم يستطع أحد أن يتحرك. البعض بدأ يهمس في صمت:

– ماذا يحدث؟

– ما الذي يجري هنا؟

الهواء مشبع بالخوف والرعب، الروائح والدماء والعرق تختلط في مكان واحد، كل شيء يبدو ثقيلًا والفضول يختلط بالرعب في أعين الحاضرين. ماركو واصل تقدمه، إليزابيث ما زالت في حضنه، دموعها تتساقط على كتفه لكنها لم تستطع الكلام، مجرد أصوات اختناق بين الصمت. كيت بجانبه تمسك بوالدها وتحاول توجيهه بحذر، كل حركة محسوبة وكل نظرة تراقب الوضع بعناية.

السطح والدرجات العليا كانت مغطاة بصمت ثقيل إلا من صرخات الركاب الممتزجة بالذهول والرعب. وعندما بدأ ماركو يتقدم نحو قاعة الدرجة الثالثة حاملاً إليزابيث بين ذراعيه كانت عيناه لا تترك أي تهديد دون مراقبة، كل خطوة محسوبة، كل تنفس يعبّر عن القلق الذي

يضغط على صدره. خلفه كانت كيت تسند والدها الهزيل، تحاول بحذر أن ترفع من ثقله على قدميه المرتجفتين بينما الهواء مشبع بالروائح الكريهة للدماء والعرق، والسطح يئن تحت وزن الجميع، كل حركة كانت كأنها تحدي للقدر وكل شخص يراقب ما يحدث بحذر وخوف.

الأثرياء من الدرجات العليا حتى الثالثة كانوا يحدقون بدهشة، بعضهم مرفوع الكؤوس في يدهم والآخرون صامتون. بعضهم تراجعوا بخوف بينما آخرون يتساءلون بفضول مغرق بالرعب:

– ما الذي يحدث؟ لماذا هذا الدم؟

– هل هؤلاء مجرد مساجين؟ أين كانوا؟

أصواتهم تتداخل مع صرخات الآخرين والفضول امتزج بالرهبة، لكن لا أحد يجرؤ على الاقتراب.

حين دخل ماركو القاعة، كانت والدته جالسة، عيناها تلمعان بالقلق والخوف، قلبها يكاد يخرج من صدرها. وعندما رأت ابنتها في حضنه، جسمها ارتجف، ركضت نحوه وصرخت:

– إليزابيث! هل أنتِ بخير؟

دموعها انسكبت على وجنتيها وصوتها متقطع من شدة الخوف، لكن ماركو رفع يده مطمئنًا، صوته ثابت رغم التوتر:

– نعم كل شيء على ما يرام... لا تقلقي فقط تنفسي.

إليزابيث التي بالكاد كانت تملك القوة لتبتسم، رفعت عيناها نحو والدتها لمحاولة الطمأنة، ابتسامة خافتة ولكنها صادقة. كانت هذه اللحظة تكفي لجعل والدتها تهدأ قليلاً، لكن عيون كل من في القاعة اتسعت بدهشة، يتابعون المشهد بحذر، لم يصدق أحد ما يراه.

ماركو وضع إليزابيث على السرير برفق في مقصورتهم، تحسس جسدها الهزيل وتأكد من أنها مستلقية بأمان ثم نظر إلى والدته وقال:

– انتبهي واهتمي بها، سأذهب لن أطيل.

قبل أن يتحرك، حاولت والدته الكلام لكنه وضع يده على كتفها، نظر إليها بعينين صادقتين وقال بصوت هادئ:

– لن يحدث شيء، لا تقلقي.

وفي السطح حيث كيت تمسك بوالدها المريض، تحاول إدخاله بحذر، لكن الأثرياء وبعض ركاب الدرجة الأولى ينظرون من الأعلى بدهشة وغطرسة. واحد منهم ممسك بكأس من الخمر، ارتشف منه ببطء وقال ساخرًا بملامح تنضح بالتكبر:

– هل تريدين أن تجلبي هذه الرائحة والقذارة إلينا؟

صرخت كيت بغضب عنيف، صوتها يتردد كأمر لا يقبل الجدل:

– افسحوا لي المجال! هؤلاء بشر مثلنا!

صوتها يخترق الهرج والمرج، كان صادحًا قويًا يملأ المكان بالعزم والرفض. بعضهم تراجعوا، آخرون تجمدوا في أماكنهم. ماركو الذي وصل إلى السطح رأى وقاحة البعض، صرخ بعصبية:

– ألم تروا الضحايا؟ هم أيضًا بشر مثلنا!

لكن الركاب الأعلى لم يحرّكهم شيء، الصمت الطويل والاندهاش يملأ وجوههم. ومع ذلك انتبهت كيت لصوفيا التي كانت من الأعلى تراقبهم مع الآخرين، صرخت لها:

– ساعديني!

دون تردد اقتربت ودافعت عن المسار، بعزمها وسرعتها ساعدت في دفع بعض الركاب جانبًا. تسللت معهم لتدعم والدها وبعض الضحايا من المساجين الذين خرجوا. معًا صعدوا الدرجات بحذر شديد، كل حركة محسوبة، كل خطوة مليئة بالتوتر والرهبة، كل شخص يحمل أثقاله النفسية والجسدية.

في المقابل القبطان على الأرض، وجهه مليء بالدماء، فاقدًا للوعي، جسده منهك، يتنفس بصعوبة، بينما فالتر وقف في منتصف السطح، عيناه توهجت بجنون، صوته مبحوح لكنه صارخ ومكتوم في نفس الوقت:

– أنتم من الآن... رهائن عندي!

الكلمات لم تنته، فجأة ظهر ماركو متقدّمًا بثبات، حوله بعض الشباب من الدرجة الثالثة، كل واحد منهم عيونه مشتعلة بالعزم والجرأة،

الارتجاف في صدورهم تحوّل إلى قوة مهيبة، يعرفون أن هذه اللحظة حاسمة، كل ثانية قد تغيّر مجرى كل شيء.

ماركو أشار لهم بسرعة وصرح بصوت منخفض لكنه قاطع:

— الآن! ادفعوه إلى الداخل!

بحركة واحدة، اندفعوا جميعًا نحو فالتر، دفعوه بقوة غير متوقعة، جسمه الثقيل يصرخ بالمقاومة لكن قوة الشباب كانت أكبر وبدأ يسقط إلى داخل العنبر المظلم. الباب الكبير أمامهم، الحديد الخشن يلمع تحت ضوء المصابيح الخافت ويد فالتر تصطدم بالخشونة فجأة بينما يحاول التمسك، صرخاته تتصاعد. يده تكاد تنقطع في محاولة اليأس للقبض على الحافة لكن ماركو وبعض الشباب بقوة لا تُتصوَّر أغلِقوا الباب بعنف، صدى الصرخة يملأ المكان، ويد فالتر تعلقت لوهلة ثم انقطعت بسبب حافة الباب الخشنة والمسامير البارزة. صوت تمزيق الجلد والعظام كان صادمًا ومروعًا.

الذعر انتشر بسرعة كالنار في الهشيم، بعض الشباب الآخرون بدأوا بالهجوم على الجنود، ضربات متبادلة، ركلات، صرخات، البنادق تُرفع بسرعة ويُصوَّب أحد الجنود على آخر دون سابق إنذار. صوت الرصاص يتردد بين الحوائط المعدنية، الأرضية تهتز تحت أقدام المشتبكين، كل شخص يحاول حماية نفسه، الأدرينالين يتدفق في العروق، الهواء مشحون برائحة الدم والعرق والغبار، الصراخ يتشابك مع الصرير المعدني للأبواب، كل شيء أصبح فوضى مطلقة.

أحد الجنود مسلح ببندقية، أطلق رصاصة في الهواء لتنبيه زملائه، لكنها انزلقت من يده، أحد الشباب استغل الفرصة واندفع نحوه، لكمة قوية أصابته في وجهه، سقط الجندي على الأرض متأوهًا بينما آخر حاول السيطرة على البنادق، لكنها انزلقت من يده أيضًا وصرخات الركاب الممتزجة بالرعب ازدادت. أحد الركاب من الدرجة العليا، يقف على السطح، حاول التراجع بعيدًا عن المشهد لكنه انزلقت قدماه على

الأرض الرطبة، وقع على ظهره، صرخاته اختلطت بالصرخات الأخرى، كل شيء أصبح عشوائيًا لا أحد يعرف من سيبقى واقفًا ومن سيقع.

ماركو ظل في المقدمة، يضغط على الباب بكل قوته، يتأكد أن فالتر محبوس تمامًا، نظر حوله بسرعة أصدر أوامر قصيرة وواضحة للشباب:

— احموا أنفسكم! لا تتركوا أحدًا يمر!

صرخاتهم المتتالية تملأ المكان بالقوة والعزم بينما الجنود المذعورون حاولوا إعادة تنظيم صفوفهم لكن القوة والسيطرة أصبحت في أيدي الشباب، كل حركة محسوبة، كل ضربة لها أثر، كل لحظة مليئة بالخطر والمفاجآت.

فالتر داخل العنبر يصرخ بعصبية، صوته مكتوم بسبب الباب الثقيل:

— لا أحد ينجو... لا أحد!

أصواته اختلطت بالركض والضرب والصراخ المحيط وهو يدرك أنه محاصر، قلبه ينبض بسرعة، عيناه تبحثان عن أي فرصة للخروج لكن كل

شيء أصبح صعباً، الباب الحديدي يحجب كل طريق. في تلك اللحظات صرخ أحد الجنود:

– أوقفوه!

لكنه كان بالفعل هدفًا لشاب آخر، لكمة قوية أصابته في صدره، طار على الأرض، دماؤه تتناثر على السطح، الشاب الآخر نهض سريعًا، قبض على بندقيته ووجّهها نحو من يقترب لكن الصراعات مستمرة، الركض، الصرخات، محاولات السيطرة على البنادق، كل شيء يزداد جنونًا مع كل ثانية. الهواء مشحون بالخوف والذعر، الأرضية تهتز تحت أقدام الجميع، وصرخات الركاب الممتزجة بالصدمة تزداد:

– ماذا يحدث؟ ما هذا الجنون؟!

قاعة الدرجة الأولى

القاعة كانت ممتلئة بالهدوء النسبي، الهواء ثقيل قليلاً من حرارة المصابيح وأصوات الخطوات الخافتة للخادمات، اللوحات الفنية على الجدران تلقي بظلالها على الأرضية المصقولة. الطاولات مرتبة بعناية، والأثرياء يجلسون

في مواقعهم المعتادة، بعضهم يمسك أكواب الشاي أو الكوكتيلات ينظرون أحيانًا إلى الأسفل حيث وصلت أصوات الركاب في الطوابق السفلى، لكنهم حافظوا على هدوئهم. مجرد فضول خافت يختلط بالكبرياء.

في الزوايا، الخادمات اللواتي كنّ يتابعن من بعيد بدأن بالتحرك نحو أولئك الذين تم إنقاذهم من الطوابق السفلى. السجناء الستة كانوا بالكاد يستطيعون التنفس، وجوههم شاحبة، أجسادهم مهزوزة من الخوف والصدمة، عرقهم يختلط بالغبار والدم. الخادمات بعناية وحذر جلبن لهم الماء وأغطية خفيفة، يسندونهم برفق على الكراسي أو الأرائك القريبة. واحدة منهن وهي أكبر سناً وأكثر خبرة أعطت رجلاً مسناً كوب ماء وهدأته:

– خذ نَفَسًا عميقًا... لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام الآن.

الرجل رمقها بعينين ممتلئتين بالارتباك لكنه قبل الماء ببطء، شعر بأن يده ترتجف بشدة.

خلفهم الأثرياء وقفوا، بعضهم يراقبون بفضول واضح، البعض الآخر يتنهد بغضب مكتوم كأنهم يتذمرون من منظر الفوضى الإنسانية أمامهم. أحد الرجال همس للموظف الذي يقف بجانبه:

– متى سيغادرون هؤلاء من درجتنا؟

الموظف اكتفى بالنظر إلى الأرض، لم يستطع أن يجيب كأنه يخشى أن أي كلمة قد تجعل الموقف أكثر إحراجًا له أمام الأثرياء.

خادمات أخريات كن يحاولن إطعام السجناء القابعين على الأرض بأطعمة خفيفة، بقايا خبز وبعض الفواكه التي تمكن من إنقاذها، كل حركة محسوبة بعناية لتجنب غضب الأثرياء. واحدة منهن أمسكت بفتاة شابة كانت بالكاد تستطيع الوقوف، جلست بجانبها على كرسي، وضعت يدها برفق على كتفها لتثبتها وقالت بصوت منخفض:

– خذي نَفَسًا، سأتأكد أنكِ آمنة الآن... فقط لا تحركي نفسكِ كثيرًا.

الفتاة رمقت الأثرياء من فوقهم بعيون واسعة لكنهم لم يبالوا، بعضهم مجرد ينظر بتكبر وكأن حياة هؤلاء الناس لا تهمهم إطلاقًا. من مكان

قريب، أحد الأثرياء أومأ برأسه نحو موظفة وقال بحدة ونبرة ازدراء لاذعة:

– تبًا، ألا يدركون أنهم ليسوا من نفس درجتنا؟

الموظفة لم ترد لكنها شعرت بالحرج بينما الخادمات أكملن تقديم الماء والطعام. بعضهن يهمسن بينهن عن عدم الإنسانية الموجودة في الموقف:

– إنهم لا يعرفون قيمة الحياة... كل ما يهمهم هو راحتهم.

في الزاوية الأخرى، رجل مسن بالكاد يرفع رأسه ليشرب ماءً. أحد الخادمات التفتت إليه بعينين مليئتين بالشفقة، قالت له:

– ستكون بخير، فقط اصمد.

قاعة الدرجة الثانية

القاعة في الدرجة الثانية كانت أقل ضوضاء من الطوابق الأخرى لكنها لم تكن أقل توترًا. الهواء محمَّل برائحة الدم والعرق والغبار لكنه أيضًا يحمل شعور النجاة البطيء. بعض السجناء الذين وصلوا بالكاد إلى هنا جلسوا

على الأرائك أو على الأرض، أجسادهم مرتعشة، أنفاسهم قصيرة، وعيونهم تبحث عن أي ملجأ أو أمان.

الخادمات تحركن بحذر بينهم، يحملن الماء والأغطية، يمددن الطعام بحذر.

إحدى الخادمات الأكبر سنًا أمسكت بيد رجل مسن، قالت له بصوت هادئ:

– تفضل... اشرب قليلاً، لن يحدث شيء... نحن هنا لمساعدتك.

الرجل رمقها بعينين دامعتين، ارتجاف جسده واضح لكنه أخذ الكوب ببطء.

كيت جلست بجانب والدها على أريكة، جسده الهزيل مستندًا عليها، عينيه مليئتان بالارتباك والخوف يلهث بصعوبة بعد كل نَفَس. قبضت على يده برفق وقالت بصوت مملوء بالحنان:

– أبي أنا هنا، كل شيء سيكون بخير الآن... سأعتني بك...

هو رفع رأسه بصعوبة، ينظر إليها بعينيه الشاحبتين، يحاول الكلام لكنه بالكاد ينجح. فابتسمت له كيت بعينين تلمعان محاولة طمأنته، كل كلمة تقولها تهدئه ولو قليلاً.

صوفيا كانت تتحرك بلا توقف، تجلب الماء والطعام، تضمد الجروح، تنظف الدم عن وجوه بعض السجناء، وتطمئنهم بصوت منخفض:

– خذ نَفَسًا عميقًا... لا تحاول الحركة كثيرًا.

فتاة صغيرة تجلس إلى جانبها، تتنفس ببطء بينما الخادمة الأخرى تمد لها قطعة خبز. كيت تراقب كل شيء بعينين مليئتين بالقلق لكنها تحاول أن تكون صلبة أمام والدها.

بجانبهم، بعض الرجال والسيدات من الركاب الذين لم يهربوا بدأوا يقتربون بحذر، يحملون الأغطية يقدمون الماء والطعام للسجناء. بعضهم يهمس للآخرين:

– لم نكن نعلم أن الوضع سيكون بهذا الرعب.

– إنهم بشر، علينا أن نساعدهم...

لكن البعض الآخر وقف مترددًا يكاد ينظر ببرود، لا يملك الشجاعة للتدخل فقط يراقب بعينين مليئتين بالفضول والصدمة.

صوفيا أخرجت ضمادة جديدة وساعدت كيت في تنظيف جرح أبيها العميق على ذراعه. الكل يتحرك بحذر، لا أحد يريد أن يثير فوضى، كل نظرة، كل حركة، كل نَفَس، كان مشحونًا بالتوتر والخوف لكن أيضًا بالأمل البطيء، بالأمان المؤقت، وبالتعاطف البشري.

كيت بجانب والدها تدعم جسده الهزيل، تقول له بصوت مرتجف أحيانًا ولكنه حنون:

– سأحميك، مهما كلف الأمر.

عيناه تدمعان، لكن هناك شعور بالراحة والأمان، شعور بأن شيئًا من الماضي المفقود عاد ليحيي قلبه.

صوفيا استمرت في التحرك بين السجناء، كل خطوة تضيف شعورًا بالطمأنينة، كل كلمة، كل حركة كانت وكأنها تقول للجميع: "نحن لا نزال هنا، لن نترك أحدًا خلفنا، لن نترك أحدًا يموت بلا مساعدة".

قاعة الدرجة الثالثة

الدرجة الثالثة كانت ممتلئة بالتوتر والرهبة. القاعة الكبيرة على الرغم من ضيقها النسبي امتلأت بأصوات السجناء الذين بالكاد يجرون أرجلهم على الأرض. بعضهم يجلس مستندًا إلى الجدران، عيونهم متسعة، أنفاسهم متقطعة، وجوههم شاحبة من الخوف. مجموعة من النساء يجلسن معًا على نفس الكراسي يتبادلن النظرات، همسهن متواصل:

– هل ستستمر السفينة في الإبحار بعد كل هذا؟

– يبدو كل شيء خارج السيطرة...

– لقد رأيت ما حدث... كيف يمكن لأي شخص أن يتحمل هذا؟

الخادمات تتنقل بين المساجين، تمد لهم الماء، تعطيهم الطعام البسيط الذي تمكن من حفظه، تمسح الدم عن وجوههم، تثبت الضمادات على جروحهم. كل حركة محسوبة بدقة، تحاول أن تمنحهم بعض الأمان وسط هذا الرعب الذي يخيم على المكان. بعض الناجين يحاولون الجلوس أو الوقوف، يحاولون إخفاء الخوف.

وبداخل المقصورة مارغريت تجلس على حافة السرير، تمسك بيديها إليزابيث، عينان مليئتان بالرعب ودموع تنحدر بلا توقف. صوت إليزابيث بالكاد يخرج من بين شفتيها:

– لقد احتجزوني... لقد قتلوا الكثير أمامي...

مارغريت تمسح دموعها، تضغط على يدي ابنتها بقوة، تحاول أن تمنحها الثقة:

– يا صغيرتي لا تقلقي، أنا هنا... لن أتركك.

إليزابيث ترفع رأسها ببطء، تحاول الابتسام رغم التعب، دموعها تنساب على كتف والدتها:

– أمي... كنت خائفة، لم أعرف ماذا سيحدث...

مارغريت تتقرب أكثر، تمسك وجه ابنتها بلطف، همسها حنون:

– أنتِ بخير الآن... نحن معًا... سنتجاوز هذا معًا.

ثم تنظر إليزابيث مرة أخرى إلى والدتها، دموعها تختلط بالصمت والارتجاف، تحاول أن تهمس:

– لكنهم كانوا عنيفين...

مارغريت تضغط على يدها وتقبّلها برفق على جبينها:

– أعرف... أعلم كل شيء... أنتِ نجوتِ، هذا أهم شيء الآن... سنعتني ببقية الناجين، سنتأكد أن الجميع بخير.

الساعة تمضي ببطء، كل دقيقة تمر تحمل صدى أنين السجناء، همس الخادمات، وحركة صغيرة من الناجين لتحريك أجسادهم المتعبة. حتى أولئك الذين بالكاد يستطيعون الكلام، يحاولون الابتسام، يحاولون رفع رؤوسهم من الأرض، كل حركة بسيطة تحمل الأمل.

في هذه اللحظة، القاعة كلها من أصغر طفل إلى أكبر بالغ تشعر بتلك الوحدة المؤلمة ولكنها أيضًا مليئة بالحرص على النجاة، على البقاء. كل دمعة، كل تنفس، كل حركة محسوبة، تضيف للرهبة والتوتر والعاطفة الإنسانية.

الفصل السادس

اللغز الذي انتحر في الظهيرة

"بعد أن تم إحكام القبض على فالتر وإغلاقه داخل العنبر الحديدي، بقي محبوسًا مع بعض المساجين الذين تم إنقاذهم من الطوابق السفلى. تعرّضت يده لإصابات بالغة أثناء مقاومته للباب، إذ انقطعت معظم أصابعه عند الحافة الخشنة للباب وأصبحت يده ملطخة بالدم. ظلّ فالتر غاضباً وغير قادر على الحركة بحرية رغم محاولات الجنود اليائسة لمساعدته.

فقد العديد من ركاب الدرجة الثالثة والآخرين حياتهم، إذ قضى الغالبية العظمى منهم على السطح خلال الأحداث العنيفة التي سبقت احتجاز فالتر. القبطان الذي فقد وعيه أثناء المواجهة، تم إسعافه لاحقًا ونقله إلى غرفة القيادة.

برغم استعادته للوعي، ظل منهكًا جسديًا ونفسياً من الصدمة، لكنه بقي قادرًا على متابعة العمليات الأساسية على السفينة.

بقيت كيت إلى جانب والدها، تقدم له الدعم والمساعدة حتى استعاد عافيته جزئيًا. كانا يمشيان ببطء على سطح السفينة لمتابعة الوضع ومراقبة سلامة الركاب. إليزابيث، بعد نقلها إلى مقصورتها، تلقت الرعاية من والدتها مارغريت وتمكنت من استعادة صحتها تدريجياً بمساعدة أخيها ماركو الذي ظل يحميها ويساندها.

المساجين الذين تم إنقاذهم من الطوابق السفلى نُقلوا جميعًا إلى قاعة الدرجة الثالثة، حيث استمر الغضب والاحتقار من قبل الأثرياء تجاههم. حاول هؤلاء الناجون التأقلم مع الوضع الجديد، بينما بدأ الطاقم والخادمات بتقديم الدعم اللازم لهم من الماء والطعام والعناية بالجروح، وسط أجواء متوترة ومشحونة بالخوف والرهبة."

3 مايو 1945- الساعة 1:00 ضهراً

كان الخليج لوبيك ساكنًا على غير عادته، أمواج البحر تتهادى ببطء وتصفع جسد كاب أركونا الضخم المتآكل. من بعيد ظهرت سواحل نويشتادت ببيوتها الصغيرة وأبراجها المتناثرة، واضحة كأنها في متناول اليد لكنها بعيدة بقدر ما هو الأمل بعيد عن آلاف الأرواح العالقة في ذلك القفص العائم.

كاب أركونا لم تعد سفينة فاخرة كما كانت في بدايتها، بل جسد حديدي منهك، تآكلت جدرانه واحترقت روحه. محركاتها البخارية التي طالما دفعتها عبر المحيطات، أصابها الإهمال والإنهاك حتى تلفت بالكامل منذ أواخر مارس 1945. لم تعد قادرة على الإبحار لمسافات طويلة، ومع نهايتها الأخيرة في نقل الجنود واللاجئين، كان قد صدر القرار بإنهاء خدمتها من القبطان بسبب ما فعله فالتر. لم يكن ثباتها وسط الخليج خيارًا بل مصيرًا مفروضًا عليها، كما لو أن الزمن نفسه حكم عليها بالانتظار.

إلى جانبها رست سفينتا ثيلبيك و دويتشلاند كأشباح معدنية تحاصرها في صمت ثقيل. المسافة بينهما قصيرة لكن الإحساس بالحصار هائل.

كل سفينة تحمل بداخلها قصصًا مشابهة: أناس محشورون في الحديد، يتطلعون لليابسة التي تلمع على خط الأفق دون أن يلمسوها.

على سطح القيادة يقف القبطان بثيابه الملطخة بالدماء والمشدودة بالضمادات، يواجه رجاله. صوته متعباً لكنه ثابت، والهواء المالح يصفع وجهه، قال وهو يحدق بالبحر الممتد أمامه:

– المحركات انتهت... لا يمكنها أن تحرك خطوة واحدة، لقد استهلكت حتى العظم.

اقترب أحد ضباطه بخطوات ثقيلة، التردد يملأ ملامحه:

– سيدي... إن بقينا هكذا، نحن عرضة لأي مصير... الطائرات، المدافع... البحر نفسه...

رفع القبطان عينيه نحوه، عينان يملؤهما اليأس والمرارة:

– هل تظنني لا أعلم؟ هذه النهاية ليست صدفة... فالتر دمّر كل شيء قبل أن نحبسه، لقد عبث بالمحركات عمدًا، الآن لا خلاص لنا إلا الانتظار، ولا أرض تنقذنا.

ساد الصمت، لا يُسمع سوى ارتطام الأمواج بجسد السفينة المرهق. على بعد أمتار قليلة من القيادة وقف بعض البحارة يتبادلون النظرات المرتبكة، أحدهم يهمس للآخر:

– كأننا جثث مؤجلة... اليابسة أمامنا، لكننا مكبّلون بالحديد الصدئ. وقد أصبحت نعشًا عائمًا ينتظر فقط لحظة سقوط الغطاء. من بعيد كانت تبدو السفينة كأنها ما زالت محافظة على شيء من هيبتها القديمة، هيكلها الأبيض الناصع يلمع تحت شمس الظهيرة، لكن تلك الصورة لم تكن سوى خدعة بصرية. تحت طبقات الطلاء الجديد كان الصدأ ينهش جسدها كمرض خفي يأكل الحديد قطعة قطعة.

كان جنود فالتر قبل أيام قد طَلَوا هيكل السفينة بطلاء سريع ورخيص، مجرد قناع مؤقت يُخفي التآكل العميق في صفائحها المعدنية، أرادوا أن

يوهموا الركاب بأن السفينة لا تزال صالحة، بأن البحر ما زال يهابها، لكن الحقيقة كانت عكس ذلك: كل زاوية، كل برغي، كل درابزين على السطح كان يحمل آثار الإهمال الطويل، حتى الألواح الخشبية التي يخطو عليها البحارة صارت تصدر صريرًا كئيبًا يوحي بالانكسار.

ومع كل موجة تضرب جسدها المرهق كان الصدأ يتناثر كغبار أحمر في الماء شاهدًا على أن هذه السفينة لم تعد قادرة على البقاء طويلًا.

ومع ذلك، من على السطح العلوي لم يكن الركاب يدركون شيئًا من هذا العطب الخفي، كانوا ينظرون إلى البحر الممتد بلا نهاية، إلى الأفق الممزوج بزرقة السماء ويظنون أن التوقف مجرد جزء من الرحلة. بعض النساء تجمّعن عند السور الحديدي يتبادلن أحاديث خافتة. إحداهن قالت بصوتٍ مرتجف:

— أترون؟ لا تتحرك السفينة منذ ساعات... هل هذا طبيعي؟

فأجابتها أخرى وهي تحاول إخفاء قلقها بابتسامة واهنة:

— ربما هذا من عادات الإبحار، أن يرسي القبطان قليلاً للاستراحة.

لكن همسات النساء لم تمر دون أن تصل إلى البحارة الذين كانوا واقفين بجوارهن، أحد البحارة شدّ قبعته إلى الأسفل وقال بصوتٍ حازم:

– لا تقلقن سيداتي، هذا أمر روتيني، القبطان فقط أراد أن يمنحكم فرصة لمشاهدة الساحل.

ثم ابتعد سريعًا، يخفي في عينيه شعورًا ثقيلاً لا يمكن أن يُقال.

وفي غرفة القيادة ظل القبطان يراقب من خلف زجاج النافذة، يراقب وجوه الركاب وهم يضحكون أو يتحدثون بطمأنينة مزيفة، رفع صوته مخاطبًا مساعده:

– لو علموا الحقيقة... أن هذه المحركات تحولت إلى خردة وأننا عالقون بلا أمل... لانفجر الرعب بينهم كالبارود.

أجابه المساعد وهو يضغط على دفتر صغير بيده:

– لكن إلى متى يمكننا إخفاء الأمر؟ إذا سألونا غدًا لماذا لم نتحرك، ماذا سنقول؟

أدار القبطان ظهره للحظة، نظر إلى البحر الممتد ثم قال ببطء:

– سنخترع الأعذار واحدًا تلو الآخر، إلى أن...

توقف صوته عند الحلق كأن الكلمات ثقيلة لا تُقال، ثم أكمل بصوت خافت:

– إلى أن يسبقنا القدر.

أعاد القبطان زفرته الثقيلة ثم استدار إلى أحد الضباط الواقفين قرب الباب، صوته متعبًا لكنه حازم:

– اذهب... أخبرهم أن يفتحوا مكبر الصوت، دَع الركاب يسمعون شيئًا يطمئنهم، قل لهم إن التوقف ليس سوى إجراء بحري روتيني... لا أكثر.

انحنى الضابط بإيماءة سريعة ثم اندفع خارج غرفة القيادة بخطوات متوترة. لحظات فقط وارتفع صوت الأجراس الداخلية في كل أرجاء السفينة، ثم جاء الصوت المعدني من المكبر، جافًّا لكنه مصاغ بعناية كأنه ستار واهٍ يخفي الحقيقة:

– أيها الركاب الكرام، نود أن نُعلمكم أن السفينة ستظل راسية لبضع ساعات لجزء من الإجراءات البحرية الروتينية، يمكنكم الاستمتاع بمنظر الخليج والاقتراب من السطح لمشاهدة الأجواء البحرية الفريدة وكذلك السفن القريبة التي ترافقنا في مسارنا.

انتشر الصدى في كل الطوابق، حتى أقصى الممرات المظلمة في الدرجة الثالثة، ارتفعت همسات الركاب هنا وهناك، البعض تبادل نظرات سريعة وآخرون ابتسموا وصدقوا الكذبة كما لو أنهم أرادوا أن يصدقوها بأي ثمن.

قاعة الدرجة الثالثة

تقدمت إليزابيث ببطء ممسكة بيد والدتها وباليد الأخرى ماركو، جسدها الهزيل يكاد لا يطيق الوقوف وحده لكنها شعرت بالأمان بين يدَي والدتها ويد أخيها. عند مدخل قاعة الدرجة الثالثة توقفت للحظة، نظرت حولها ورأت وجوه الناجين الذين بالكاد بدأوا يتعافون من صدمة الأمس. كانت القاعة مليئة بالرائحة الخفيفة للعرق والدم لكن الجو بدأ

يخف تدريجياً بفضل الترتيبات البسيطة التي قام بها الطاقم والخادمات.

ابتسمت امرأة مسنة عند الباب، رفعت يدها بلطف وسألت:

– هل تحسنتِ يا صغيرتي؟

ابتسمت إليزابيث بصعوبة، أومأت برأسها وارتجف صوتها قليلاً وهي ترد:

– نعم... أشعر بالقليل من الراحة.

اقترب رجل آخر، حاول تغيير الجو المحيط بها وقال بابتسامة مترددة:

– انظري حولكِ، الشمس اليوم مشرقة... أحيانًا الطبيعة وحدها كافية لتنسي الإنسان جزءًا من حزنه.

ابتسمت مارغريت وقالت لها بحنان:

– تعالي يا حبيبتي، اجلسي على هذا الكرسي استريحي قليلاً ولا تقلقي، كل شيء سيكون على ما يرام.

جلست إليزابيث على الكرسي، شعرت بثقل جسدها يخف قليلاً بينما أمسك بها أخوها من الجانب يدعمها بحذر. اقتربت إحدى الخادمات جلبت لها كوبًا من الماء ووضعته على الطاولة الصغيرة بجانبها وقالت:

– اشربي قليلاً... كل شيء سيكون أسهل مع قليل من الراحة.

ابتسمت إليزابيث بخجل وأخذت رشفة صغيرة، بينما شعرت بدفء الشمس يدخل من خلال نافذة القاعة الكبيرة التي فتحها أحد الشبان قبل قليل.

تسللت أشعة الشمس إلى القاعة، غمرت الأرضية المضاءة بلون ذهبي دافئ وسرعان ما لاحظ بعض الأطفال الموجودين في القاعة الضوء، هرعوا وهم يضحكون ويصرخون بفرح:

– انظروا! إن الشمس دافئة! لنلعب.

انطلقت أصوات الضحك في القاعة، امتزجت مع أصوات خطوات الركاب البطيئة والمترددة، ومع امتداد هذا الضوء بدأت القاعة تشع بالحياة من جديد رغم كل الألم الذي حل بها.

اقتربت سيدة شابة، جلست بجانب إليزابيث محاولة شد انتباهها:

– هل تحبين هذه الأشعة الذهبية؟ أيمكننا أن نحولها إلى لعب ممتع قليلاً؟

ابتسمت إليزابيث وقالت بخفة:

– نعم إنها جميلة... أشعر وكأن كل شيء سيكون بخير.

أما مارغريت فجلست بجانب ابنتها، أمسكت بيدها برفق وقالت:

– انظري حولكِ، الجميع هنا يحاول أن يكون سعيدًا حتى لو للحظة صغيرة... لا تدعي الحزن يسيطر عليكِ.

ردت إحدى النساء الأخريات وهي تمر بالقرب منهما بابتسامة:

– انظري حتى بعض الرجال هنا يحاولون أن يجعلونا نضحك قليلاً... ليس كل شيء سوداوي، أليس كذلك؟

ابتسم ماركو بجانب إليزابيث وقال لها:

– انظري إلى الأطفال يلعبون تحت ضوء الشمس... أليس رائعًا؟ حتى في أحلك الأوقات يمكن للفرح أن يجد طريقه.

بدأت القاعة تتحول تدريجيًا، الأصوات مختلطة بين الضحك، همسات الركاب الذين يتبادلون كلمات التشجيع وأصوات الأطفال الذين يركضون حول الطاولات. الشمس التي تسللت من النافذة جعلت الظلال ترقص على الجدران وأضافت شعورًا بالحياة على وجه كل شخص موجود، حتى الذين لم يستطيعوا الحركة بقوة بدت عليهم علامات الانتباه والارتياح.

وعندما بدأ وقت الغداء في القاعة، ارتفع صوت حركة خفيفة بين المقاعد والطاولات بينما بدأ بعض الركاب في الاصطفاف لتلقي وجباتهم. لم يكن هناك طابور رسمي بل تولّى الموظفون توزيع الطعام مباشرة على من لا يستطيع الحركة، حاملين صواني كبيرة ممتلئة بالشوربة الساخنة والخبز الطازج.

الرائحة الدافئة انتشرت في القاعة كأنها محاولة صغيرة لإدخال شعور بالراحة وسط الجو المرهق والمليء بالتوتر. تنهدت مارغريت للحظة ثم همست وهي تراقب حركة الطاقم:

– سأجلب حصصنا...

نظر إليها ماركو بابتسامة خافتة وقال:

– اجلسي هنا، أنا سأحضرها لكم.

ابتسمت بخفة وأومأت برأسها وبدأ ماركو يتحرك بين الركاب، يحمل الصواني بعناية، يحرص على ألا تنسكب الشوربة الساخنة ولا أن تلمس الأطباق أحدًا عن طريق الخطأ. عاد بعد لحظات وهو يحمل طبقًا صغيرًا إلى إليزابيث، جلس أمامها وسكب القليل من الشوربة في وعائها الصغير، يراقب كل حركة لها بعناية ثم أومأ برفق:

– تفضلي...

رفعت إليزابيث رأسها قليلاً ثم أمسكت بالملعقة وبدأت بتناول الطعام ببطء، بينما ماركو ظل يراقبها بعناية. ضحكت قليلاً وقالت بصوت خافت:

– أمي أنا بخير، لا تقلقي... كلي وركزي على وجبتك.

ابتسمت مارغريت وهي تنظر إلى ابنتها وأمسكت بلقمة صغيرة من الخبز من يديها وقالت:

– فقط هذه اللقمة... خذيها مني.

التقت عينا إليزابيث بعينا والدتها للحظة، شعرت بالدفء والطمأنينة ثم أخذت اللقمة بحذر وبدأت تأكلها ببطء، بينما حولهم بدأ الركاب الصغار يلعبون والضحكات الصغيرة تتخلل أجواء القاعة وكأن الشمس التي تسللت عبر النافذة تحمل وعدًا صغيرًا بأن الحياة مستمرة رغم كل ما حدث.

قاعة الدرجة الثانية

كان الركاب قد أخذوا أماكنهم على المائدة الفاخرة، حيث أضواء المصابيح الناعمة تتراقص على الأواني الفضية والطاولات المغطاة بمفارش بيضاء نظيفة. الهواء مشبع برائحة الطعام الدافئ والشوربة تغلي بخفة في أطباق الفخار فيما الخبز الطازج يملأ الأطباق. كل شيء مرتب بعناية وكأن القاعة تسعى لاستعادة شيء من هدوء الحياة الطبيعية بعد الرعب الذي عاشوه.

تجلس كيت بجانب والدها على المقعد الكبير، جسده الهزيل مستندًا عليها، عينيه متعبتان ولكنهما تحملان قدراً من الامتنان. أخذت الملعقة بيدها ووضعت الطعام في فمه برفق، كل حركة محسوبة بحنان، كل ابتسامة لها تحمل معنى الطمأنينة. نظر إليها والدها بابتسامة ضعيفة لكنها صادقة وقال بصوت متردد لكنه مليء بالحب:

– ركزي على نفسكِ وكلي، أنا أستطيع أن أتناول طعامي بمفردي لا بأس... كلي أنتِ.

ابتسمت بخفّة، عيناها تلمعان بدفء ثم ردّت بعفوية:

– اصمت، لقد التقينا بعد سنوات طويلة... دعني أشعر بلحظة أنني أعتني بك... شعور البنت البارة.

جلست صوفيا على مقربة منهم تقدم الأطباق للركاب الآخرين، عينها لا تفارق كيت ووالدها وابتسامة صغيرة ترتسم على وجهها بينما تتأثر بالمشهد. كانت تتذكر كيف كان الجميع حتى أهلها أحيانًا يبتعدون عنها ويهملوها، بينما هنا وفي هذه اللحظة ترى الحب والحنان صادقًا ومباشرًا، يفيض من قلب الفتاة إلى قلب الرجل الذي طالما كان مصدر الأمان في حياتها.

تتأملها وهي تحمل طبقًا آخر ثم تقول بصوت خافت لنفسها:

– يا لها من لحظة... النقاء في أبسط أشكاله.

في الوقت نفسه، كيت استمرت في إطعام والدها وكل ملعقة كانت تحمل معها شعورًا بالطمأنينة.

قال لها والدها بابتسامة متعبة:

– كل شيء على ما يرام لا تقلقي... أستطيع الآن أن أستمتع باللحظة.

ضحكت بخفة وقالت:

– حسنًا... لكنك يجب أن تأكل، كل لقمة منك مهمة.

رد عليها بعفوية وهو ينظر إلى عينيها:

– أعدكِ كل شيء سيكون على ما يرام.

وفي الأرجاء الركاب الآخرون يتناولون طعامهم، بعضهم يبتسم للآخرين، بينما صوفيا تراقب كل حركة تقدم الطعام بهدوء ولباقة، تحرص على أن يشعر الجميع بالراحة وبأن القاعة تعود تدريجيًا إلى جو طبيعي على الرغم من كل ما حل بهم.

اللحظات مليئة بالسكينة المؤقتة، الضحكات الخفيفة من بعض الأطفال تتخلل القاعة، حديث الركاب عن ذكريات بعيدة، أو استفسارات بسيطة حول اليوم القادم. كان كل شيء يشبه محاولة للعودة إلى الحياة الطبيعية، كل حركة صغيرة تحمل معنى البقاء، كل ابتسامة تعكس الأمل، وكل لقمة طعام تصبح رمزًا للحنان والاهتمام.

وبعد نصف ساعة

تجمّع الكثير من الركاب على جانبي السفينة، عيونهم شاخصة إلى الأفق البعيد حيث تمتد مياه خليج لوبيك الزرقاء بسحرٍ خافت تتلألأ على سطحها بعض الخفقات الصغيرة للموج. سواحل نويشتادت القريبة بدت لهم كلوحة فنية ببيوتها الصغيرة وشرفاتها المتناثرة وألوانها الباهتة التي تمازج مع ضوء الصباح وكأنها تنتمي إلى عالم مختلف، بعيد كل البعد عن صخب الحرب، ورائحة الدم، وفوضى التوتر التي خيمت على الأيام الماضية.

اقتربت أنظار الركاب نحو السفن الأخرى الراسية، ثيلبيك و دويتشلاند. وسرعان ما بدأ البعض منهم يلوّحون بيدهم للركاب على متنها ظانين أنهم يخلقون جوًا من الألفة والود كأنهم في رحلة عادية نُسيَ فيها العالم من حولهم. رد ركاب السفن الأخرى بالتلويح، ضحكات خافتة وايماءات كأنها تعبير عن الصحبة العابرة رغم أن القلب يدرك أن السلام هنا مجرد وهم.

اقتربت إحدى الراكبات بخطوات مترددة من ضابط واقف على السطح، ابتسامة مرسومة على وجهها لكنها لا تخفي بعض القلق:

– المنظر رائع حقًا! لكن لماذا توقفت السفينة؟ هل نحن قريبون من محطة الوصول؟

تظاهر أحد موظفي الطاقم بالهدوء بينما كان قلبه ينبض بعنف، كل خفقة تشبه صدى تنبيه داخلي. الوقفة ليست عادية، والحقيقة أعمق من أن تُقال. أجاب بصوت واثق لكنه محسوب:

– لا تقلقي سيدتي... هذه وقفة قصيرة وروتينية، محركات السفينة بحاجة لبعض الراحة، وهذا التوقف ضروري للحفاظ على كفاءتها، إنه أمر طبيعي في هذا النوع من الرحلات.

أومأت الراكبة برضا وعادت إلى تصوير المنظر ببطء، تحاول حفظه على الكاميرا وكأنها تريد أن تخبئه في ذاكرة لا يمكن أن تمحوها الأيام. أما الضابط فقد ظل واقفًا، عينيه تتبادل النظرات مع البحارة الآخرين

وكلهم يعلمون أن هذا الهدوء مجرد قناع، أن السفينة، كما يقول أحدهم بصوت خافت:

– جثة مؤجلة.

وأن القبطان والطاقم يغطون على هشاشة محركاتها وتآكلها بـ "الطلاء الأكاذيب"، حتى لا يرى الركاب الرعب الحقيقي الذي يترصدهم بصمت.

واصل الركاب التنزه على السطح، بعضهم يتحدثون عن جمال الأفق، عن اللون الفيروزي للماء، عن انعكاس الشمس على المباني البعيدة. بعض الأطفال ركضوا على السطح، أصوات ضحكاتهم تلتقي بصوت الموج وكانوا يلوحون بيدهم للسفن القريبة كما لو أن العالم ما زال مكانًا بريئًا. وفي زاوية أخرى تمسكت كيت بيد والدها، تدعمه بعناية مع كل خطوة وكأنه لم يتحرك هكذا منذ سنوات طويلة، منذ أيام السجن المظلمة التي عاشها. كل حركة كانت محسوبة، كل خطوة على سطح السفينة كانت مليئة بالحنان وكأنها تقول له: "لا تقلق، أنا هنا."

قال الأب، صوته حاد قليلاً لكنه متأثر بالمشهد:

– انظري كيت، انظري إلى السفن القريبة والسواحل التي تبدو قريبة... هل ترين كم أن المنظر رائع؟

شهقت كيت بعفوية، ابتسامة ترتسم على وجهها:

– أوه، لم أرَ شيئًا كهذا منذ سنوات...

نظرت كيت إلى السفن القريبة ولاحظت بعض الأطفال هناك يلوحون بفرح، فتبادلت معهم الابتسامات الصغيرة، شعرت وكأنهم جميعًا ولو للحظات يشاركونها شعور الأمل.

حين وصلوا إلى حافة السطح، اتسعت عينا والدها ليلتقط ضوء الشمس على وجهه لأول مرة منذ زمن طويل. بالكاد استطاع فتح عينيه، فطوال السنوات الماضية كان محتجزاً في الظلام بعيدًا عن أي شعاع نور طبيعي، وكل شعاع اليوم كان جديدًا، يختلط بمزيج من الذهول والدهشة.

الشمس على وجهه كانت دافئة حادة بعض الشيء لكنها حاملة

للطمأنينة، ومع كل نسمة هواء شعر أنه يعيش لحظة حياة جديدة بعد كل المعاناة.

ومن بعيد كانت إليزابيث تمشي ببطء ممسكة بيد والدتها مارغريت بينما يمسك ماركو يدها الأخرى بحذر يحرص على ألا تتعثر. خطواتها لا تزال مترددة بعد كل ما مرت به من صدمة، لكن النسيم العليل على السطح أعطاها شعورًا غريبًا بالأمان. عيناها تلتقطان كل شيء من حولها: الأمواج تتلألأ تحت الشمس، السفن القريبة راسية كجواهر في خليج لوبيك، والسواحل البعيدة تبدو واضحة مبانيها الصغيرة كلوحات فنية تتأرجح بين الضوء والظل.

قالت مارغريت وهي تبتسم لإليزابيث:

– انظري يا صغيرتي كم أن البحر هادئ، والسفن القريبة تبدو وكأنها ترافقنا في رحلتنا.

ابتسمت إليزابيث قليلاً، صوتها لا يزال هادئًا لكنها شعرت بالدفء يغمر قلبها:

– نعم أمي... لم أرَ شيئًا جميلاً كهذا منذ زمن.

ماركو تابع الحديث بنبرة دافئة وهو ينظر حوله:

– أتعلمين يا إليزابيث، رغم كل ما حدث، ما زال هناك شيء جميل... شيء يجعلنا نواصل المشي، نستمتع باللحظة.

مرّوا بالقرب من مجموعة ركاب من الدرجة الثالثة، بعضهم يلوح بيديه للآخرين على السفينة، وبدأت بعض الأصوات تتبادل التحايا والضحكات الخافتة:

– ما أجمل المنظر اليوم!

– أرى الأطفال يمرحون على السطح، كم أن هذا اليوم هادئ نسبيًا.

بينما كانوا يقتربون من حافة السطح، لمحوا كيت مع والدها على بعد أمتار قليلة. ابتسمت كيت رفعت يدها وصرخت بعفوية:

– مرحبًا!

اقتربت هي ووالدها منهم، وكان الأب بالكاد يثبت نفسه على قدميه بعد كل ما مر به من تعب وسنين مظلمة، لكن عيناه امتلأت بالدهشة حين رأى إليزابيث لأول مرة.

توقفت كيت قليلاً وقالت بحماس:

– أبي... هذه صديقتي إليزابيث، وهذا ماركو، وهذه السيدة والدتهم.

ابتسم الأب بصعوبة لكنه أومأ برأسه ببطء:

– مرحبًا... سعدت بلقائكم.

ماركو مال قليلاً إلى الأمام مصافحًا الأب:

– سررت بلقائك سيدي...

ثم التفت إلى مارغريت وقال:

– وأنا أيضًا سررت بالتعرف على والدتك...

ابتسمت مارغريت بلطف، تشعر بامتنان غريب لهذا التفاعل وسط كل الرهبة والخوف:

– سعيدون بلقائكم أيضًا... يبدو أن الشمس اليوم تجلب لنا بعض اللحظات الطيبة.

اقتربت إليزابيث قليلاً من كيت وابتسمت بخجل:

– سررت بلقائك... لم أكن أعرف أحدًا هنا غير كيت، أصبحت كيت صديقتي المفضلة.

ردت كيت بحيوية:

– وأنتِ أيضًا صديقتي المفضلة... دعينا نستمتع بهذه اللحظة... ننسى قليلاً كل ما حدث.

وفي الخلفية بدأ بعض الركاب من الدرجات المختلفة يتبادلون النظرات، يتحدثون عن جمال الأفق وعن دفء الشمس على وجوههم، أحد الركاب من الدرجة الثانية قال لصاحبه:

– أيمكنك أن تتخيل أن هذا الجمال موجود وسط كل هذه الفوضى؟

ضحك الآخر بخفوت:

– أحيانًا البحر يجعلنا ننسى الألم ولو للحظة واحدة.

ابتسمت مارغريت وهي تلتفت إلى ماركو وإليزابيث:

– انظروا... الأطفال يمرحون على السطح، كم أن المنظر هادئ، كأن كل شيء سيصبح على ما يرام.

تمشوا جميعًا معًا يدًا بيد، يتبادلون النظرات والكلمات والضحكات الخافتة والأمل الصامت، بينما الشمس تعكس ضوءها على الأمواج والسفن الأخرى وتلامس وجوه الركاب، فتشعرهم بأن هناك حياة بعد كل الرهبة وأن لحظة الطمأنينة هذه رغم بساطتها تحمل قوة لمحو الخوف ولو للحظات قصيرة وسط قلب البحر الواسع.

وبعد ساعة ونصف

بقيَ الركاب على السطح، بعضهم جالس على المقاعد الخشبية الطويلة يستند إلى الدرابزين، عيونهم تتأمل الشمس الذهبية التي تتسلل فوق الأمواج، تلامس الأفق حيث تتضح الحدود الدقيقة للجزر الصغيرة

القريبة. الهواء العليل يحمل رائحة البحر الممزوجة بالملوحة، ومع كل نسمة كان السكون يملأ المكان وكأن الزمن توقف مؤقتًا بين الأمواج.

في مؤخرة السفينة يجلس بعض الركاب متراخين، أقدامهم تتدلى فوق حافة السفينة وأيديهم تتشابك فوق الركبة، يتبادلون كلمات هادئة عن جمال البحر وعن مشاهد الغروب المبكر على الساحل البعيد. بعضهم أدار رأسه ليرى السفن الأخرى: ثيبلبيك و دويتشلاند.

حيث لاحظ ركاب تلك السفن حركة الركاب هنا وبدأت أصوات تداخل خافت، بعضهم يلوّح ويضحك بينما امرأة من سفينة ثيبلبيك رفعت صوتها قليلاً لتتحدث إلى رفيقتها على كاب أركونا:

— يا سيدتي... يبدو أن اليوم جميل للغاية، أليس كذلك؟

— نعم، رائع... الهواء منعش والأفق يبدو وكأنه لوحة رسمتها الطبيعة بنفسها.

كانتا تتبادلان النظرات والابتسامات بينما الحاجة لرفع الصوت لمحو بُعد المسافة أعطاها وقعًا غريبًا على المكان أشبه بصدى لحياة عابرة على البحر.

على السطح تجلس كيت في حضن أبيها، جسده الهزيل يتحرك ببطء لكن قلبه كان نابضًا بالحنين والدفء. نظرت إلى الطيور التي تحلق فوق البحر، تلتقط الريح بأجنحتها، تشق السماء بطمأنينة وعيناها تتلألأ بالفضول والهدوء بعد ساعات من الرهبة. قال الأب بحنان، صوته منخفض لكنه مليء بالذكريات:

– هل ترين يا كيت؟ الطيور دائمًا تعود إلى أعشاشها بعد رحلات طويلة مثلنا... علينا أن نجد الطريق للسلام رغم كل شيء.

أمسكت يديها الصغيرة بيديه واستمرت في النظر نحو الأفق بينما هو يكمل قصّ تجاربه القديمة:

– عندما علمت أن والدتكِ ماري حامل بكِ، شعرت بخوف كبير... لم أكن أعلم كيف سأكون أبًا صالحًا... لكنها كانت دائمًا هناك بجانبي، تشجعني، تمنحني الأمل... وكل يوم كنت أعد نفسي لأكون أفضل لأحميكِ مهما حدث.

ابتسمت كيت بخفوت، عيناها تتأملان بحرًا هادئًا لكنها شعرت بالدفء في قلبها لأول مرة منذ فترة طويلة. على الجانب الآخر من السفينة تجلس إليزابيث مع والدتها مارغريت ممسكتين بأيدي بعضهما بينما ماركو يقف بجانبهم. تتخلل أصوات الأمواج هدوء المحادثة، بدأوا يتذكرون حياتهم الماضية، أيام السعادة البسيطة، ضحكات لم تُنسى، لحظات من الأمان الذي فقدوه. قالت إليزابيث وهي تبتسم بخفوت:

– أتذكرين يا أمي كيف كنا نذهب إلى البحيرة كل صيف؟

– نعم يا صغيرتي... كانت أيامًا هادئة... حتى لو لم نكن نملك الكثير، كانت القلوب ممتلئة بالحب. أجابت مارغريت بنبرة حنونة. ماركو أومأ برأسه مستذكرًا مشاهد طفولته مع أخته ووالديه وهم يجلسون على ضفاف البحيرة يستمعون لأصوات الطبيعة البريئة.

في الخلفية كانت الخادمات تتحرك بخفة بين الركاب، صوفيا تتحدث مع إحداهن بهدوء، عيونها تراقب كل حركة:

– هل ترين، لا يزال البعض يستمتعون بالهدوء رغم ما رأوه بالأمس؟

– نعم... أحيانًا أعتقد أن مجرد الضوء والهواء يجعلنا نتذكر أننا ما زلنا أحياء...

أجابت الأخرى بابتسامة خافتة.

الصمت يغلب على الأجواء، متخللاً بتبادل الكلام الخفيف بين الركاب وخطوات بعضهم على سطح السفينة وصوت المياه وهي تضرب جوانب الهيكل. وكل شيء يحمل شعورًا غامضًا بين الرهبة والسلام، كما لو أن البحر نفسه ينتظر اللحظة القادمة بصبر صامت. كيت ضغطت على يد أبيها تنظر إلى الأفق:

– أبي... أليس المنظر رائعًا؟

– نعم... رائع كما لو أن كل شيء مؤجل إلى هذه اللحظة. رد بابتسامة باهتة لكن عيناه تلمعان بالحنان:

– ونحن هنا معًا... وهذا يكفي...

ثم لاحظوا الأطفال على السطح يلهون، يضحكون مع الضوء والهواء وأصواتهم تنعش المكان تخلط بين صمت البحر وحفيف الرياح فتظهر صورة متناغمة مليئة بالطمأنينة المؤقتة وسط كل ما يخبئه الغد.

الأطفال يلهون على سطح السفينة يتبادلون الضحكات ويقومون بأدوار تمثيلية صغيرة، يركضون في أرجاء السطح كأنهم أبطال قصة قصيرة ابتكروها بأنفسهم. نظرات الركاب تتابعهم بابتسامات، يخففون بها من ثقل اليوم، بعض السيدات يضحكن بخفوت ورجال يجلسون على المقعد الطويل يبتسمون لهم بهدوء ويمسحون وجوههم بأطراف أصابعهم بعد أن غلبهم الشعور بالحنين إلى الطفولة.

انقطع سكون فترة ما بعد الظهر على خليج لوبيك فجأةً، ليس بصوت عاصفة، بل باهتزازٍ منخفض التردد اخترق الأعماق قبل الأسماع. كان الصوت يشبه هديرًا كونيًا يضغط على طبلة الأذن والقلب معًا، تنبأ بقوانين فيزيائية لا ترحم على وشك أن تُفعل. صوت بعيد ومستمر بدأ يملأ السماء هادرًا كعاصفة مفاجئة يزداد قوة مع كل ثانية، ارتجف

الأطفال وتوقفوا عن لعبهم ورفع الركاب وجوههم نحو الأفق يحاولون إدراك مصدر ذلك الصوت الذي خرق السلام المؤقت.

في الأفق، تشكلت نقاط سوداء صغيرة تظهر في الأفق تتحرك بسرعة تتصاعد كل لحظة، تقترب على نحو مخيف. لم تكن طائرات عادية، بل كانت سربًا من مقاتلات "تايفون" البريطانية تخترق حاجز الصوت واحدة تلو الأخرى، محركاتها تزأر بقوة والدوامات الهوائية تهب على سطح السفينة. لم يكن صوت انفجار Sonic Boom هو ما أرعب الركاب فحسب، بل كانت الموجات الصدمية التي سبقت الطائرات، والتي ضربت السفينة كلكمة خفية هزت الأجساد قبل أن تصل الطائرات نفسها.

رفعت كيت رأسها، عيناها تلمعان بالدهشة وهي تتشبث بيد أبيها، سألت بأذن مصمّمة من الضغط الجوي:

— أبي... ما هذه؟

رفع الأب نظره، عينيه تتسعان من الدهشة، يحاول إدراك حجم المشهد، قال بنبرة هادئة لكنها متوترة: — تبدو طائرات حربية... نعم... من نوع تايفون على ما أظن. لكنها تقترب بسرعة غير طبيعية!

كان محقًا. الطائرات لم تكن تحلق فحسب، بل كانت تندفع في غوص قصف عمودي شبه كامل، محركاتها تعمل بأقصى طاقة لتزيد من سرعتها الانقضاضية، محوّلة طاقة الوضع إلى طاقة حركية مدمرة. كيت شعرت بالرهبة لكنها أبقت يدها بين يدي أبيها تستمد منه الطمأنينة، بينما صوت المحركات يزداد ارتفاعًا يهز سطح السفينة كنبض رهيب من السماء.

لم تعد اللحظات جويةً فحسب، بل تحوّلت إلى معادلة ديناميكية قاسية. الدوامات الهوائية خلف أجنحة الطائرات خَلَّفَت وراءها تيارات هوائية لولبية قوية (اضطراب الذيل)، اضطربت لها السفينة كأنها لعبة في حوض. التفت الركاب الآخرون وعينهم كلها نحو الأعلى، بعضهم يحدق بدهشة وخوف، آخرون يلتقطون الهواتف أو الكاميرات بسرعة لالتقاط صور للطائرات وهي تحلق فوقهم.

وبالقرب، رفعت مارغريت رأسها، إليزابيث بجانبها وماركو واقف بقربهم كلهم يراقبون الطائرات والسماء المشتعلة بالضوء. بدأت الهمسات تنتشر بين الركاب:

– هل هذا جزء من التدريبات؟أم هجوم؟

– يبدو أن شيئًا سيحدث...

قبل أن يتمكن العقل من استيعاب الخطر، انطلق صوت صفير حادّ يقطع الأسماع. لم يكن صفيرًا عاديًا، بل كان صوت القنابل وهي تخترق الغلاف الجوي. كانت القوانين تحكم مصيرهم: مقاومة الهواء تزيد من حرارة القنابل حتى أصبحت متوهجة، والجاذبية تسحبها بتسارع ثابت يبلغ 9.8 متر لكل ثانية مربعة، ثم جاءت لحظة الصمت... ذلك الصمت الذي يسبق الانفجار مباشرة.

الانفجار لم يكن مجرد هزة، بل كان تحريرًا مفاجئًا لكميات هائلة من الطاقة الحرارية والكهربائية والميكانيكية. تحوّلت المادة داخل القنبلة إلى

غازات ساخنة تمدد بسرعة تفوق سرعة الصوت، مسببة موجة صدمية كروية الشكل انتشرت في كل الاتجاهات.

اهتزت السفينة كما لو أن عملاقًا ضرب قاع البحر. الركاب على الأسطح انقلبوا على الأرض، بعضهم اصطدم بالدرابزين، آخرون تعثّروا وسقطوا على أقدام بعضهم. الزجاج لم يتصدع فحسب، بل تبخر. تحوّل زجاج النوافذ فورًا إلى شظايا دقيقة تطايرت في كل اتجاه كرصاصات قاتلة. الأثاث الثقيل تحول إلى مقذوفات.

من زاوية القاعة، أسرعت كيت لتغلق أذنيها بقوة، جسدها يرتجف من الصوت المفزع بينما أبوها يمسك بها يحاول حماية قلبها وروحها الصغيرة.

من جانب آخر، إليزابيث ووالدتها مارغريت ومع ماركو بدأوا ينزلون نحو الداخل بسرعة، كل خطوة مليئة بالرعب والارتباك، عيونهم تلمع بالدموع من شدة الصدمة. القبطان رغم سكونه منذ لحظات، شعر بالاهتزاز عنيفًا، بدأ يتمايل على قدميه محاولًا الوصول إلى الأمان لكن خطواته كانت غير مستقرة كأنه يخطو فوق أرضية متحركة بلا استقرار.

وفي ثوانٍ معدودة صعدت ألسنة اللهب من مقدمة السفينة تتلوّن بالبرتقالي والأحمر، بينما الدخان الأسود الكثيف يتصاعد يغطي كل شيء حوله يشبه ستارًا قاتمًا يمتص كل ضوء. من الأعلى آخر ما رأت صوفيا وصديقاتها كان سقوط القنبلة قبل أن تتبخر بالكامل في شعلة ضوئية مدمّرة ولم يبق منها شيء حتى صديقتها على بعد أمتار قليلة تبخرت أمام عينيها، وصرخات الركاب على السطح تلاشت في فجوة الصدمة. داخل القاعات في الدرجة الثانية، بدأ الجميع يلمس حرارة النار والدخان الكثيف ينساب داخل القاعات بسرعة يشعل الخوف في قلوبهم، الركاب يصرخون ويصرخ الأطفال، صوتهم يختلط بصوت الزجاج المكسور والأثاث المتهاوي ووجوههم شاحبة، عيونهم واسعة من الرعب. سيدة مسنة لم تصمد أمام الحرارة والانفجار، اختفت فجأة أمام عيون الجميع وكأنها لم تكن موجودة من الأساس بينما بعض الأطفال كانوا يبكون بشدة، أيديهم الصغيرة تمسك بآباءهم، أصواتهم مخنوقة بالهلع.

في الدرجة الثالثة، الاضطراب كان أعظم، الجميع ينظرون إلى النيران والدخان يتسللان من الفتحات والركاب يصرخون يحاولون إمساك بعضهم البعض، الأثاث يسقط على الأرض، الطاولات والكراسي تتطاير، الزجاج المتكسّر يجرح أقدام بعض الركاب. من بين الركاب بعض النساء يحاولن حماية الأطفال يضعنهم على الأرض، يغطون وجوههم بأيديهن بينما يصرخون:

– تمسكي! لا تحركي رأسك!

الجميع على متن كاب أركونا أصبحوا يختنقون من رائحة الحريق والدخان الأسود الكثيف، العيون مغمضة بإحكام لا يجرؤ أحد على فتحها كأن مجرد النظر يعني مواجهة الموت المباشر. الأرض تهتز تحت أقدامهم كما لو كان زلزال ضخم يبتلعهم، وكل اهتزاز يرسل موجات من الرعب إلى أعماق نفوسهم، صوت الانهيار، الصوت المخيف للرجّ الذي يقصف القاعات يرتد في المكان بلا هوادة يقطع الصمت بين الصرخات والأنين.

الحرارة تتسلل إلى الجلد تحرقه ببطء، تجعل كل حركة أكثر صعوبة وكل نفس أصعب من سابقه. فجأة على الدرجة الأولى انهار السقف بانهيار مروع، الألواح الخشبية والحديد المتكسّر سقط فوق الركاب بعنف، دماء امتزجت بالغبار واللهب، أصوات الصراخ تتعالى بشكل هستيري، نصف الأغنياء أو أكثر قد لقوا حتفهم على الفور، أجسادهم مشوهة ممتدة وكأنهم صُهروا في فرن الموت، تحولت بعضهم إلى كتلة مشوهة من اللحم والعظام الممزقة، منظر دموي لا يطاق.

من الخارج بدت السفينة ككرة من اللهب، النيران تلتهمها من مقدمتها حتى المؤخرة بسرعة جنونية، ألسنة اللهب ترتفع عشرات الأمتار والعمود الدخاني الأسود يعلو إلى السماء كرمز لعذاب مأساوي. الركاب على السفينة ثيبلبيك القريبة يحدقون بدهشة ورعب، وجوههم محمرة من الصدمة، العيون تلمع بالدموع والهلع، أحدهم صرخ:

— انظروا! السفينة... تحتضر!

صرخات الصدمة امتزجت بصوت الرياح وهدير البحر، بعض الركاب حاولوا الاختباء خلف الطاولات أو الدرابزين لكن المشهد أمامهم كان لا يرحم، لا يوجد مكان للنجاة من الرعب البصري. فجأة لاحظوا الطائرات التي لم تعد تحوم فقط فوق كاب أركونا، بل بدأت تتجه نحوهم مباشرة واهتزت أجسادهم من إدراك المصير القريب.

قصفٌ جديد أصاب ثيلبيك مباشرة، انفجارات هائلة جعلت السفينة ترتج بشدة، تتكسر الألواح والأحجار المعدنية وتتصاعد ألسنة اللهب على الفور. خلال خمس عشرة دقيقة اختفت أجزاء كبيرة من السفينة تحولت إلى كتلة مشوهة من اللهب والدخان، الركاب يصرخون ويجري بعضهم محاولة النجاة لكن موجة الدمار كانت أسرع منهم كأن اليد الميتة للقدر امتدت لتبتلع كل شيء.

في الأفق، أصوات الصراخ والدماء الممتزجة بالانفجارات ترتفع من كلا السفينتين، منظر مروع دموي لا يترك مجالًا للعقل ليفكر إلا في هول الكارثة. من على الأسطح بعض الركاب الذين نجوا لحظة يلوحون بأيديهم

محاولين النجاة بصراخهم بينما النار والدخان يخنقان كل محاولة للتنفس ويغطي المشهد بالكامل برائحة حادة وقاتلة مختلطة بالحديد المحترق واللهب.

في الطابق السفلي حيث العنابر المظلمة المكتظة بالمساجين، كان نصفهم على قيد الحياة أما البقية فكانت هياكل عظمية مهترئة من المعاناة السابقة، يتحركون ببطء، تتطاير حولهم رائحة الرطوبة والعرق والدم القديم. فجأة اهتزت السفينة بعنف، اهتزاز متواصل كأنه زلزال لكن زلزال من صنع الجحيم. الصوت القوي للانفجارات القادمة من الأعلى اخترق الجدران المعدنية جعله يبدو وكأنه يمزق أجسادهم واهتزت الأرض تحت أقدامهم وكأن كل شيء حولهم ينهار.

الظلام الدامس غطى العنابر، الكهرباء انقطعت والأعين التي حاولت التمسك بالبصر لم تر شيئًا سوى وميضات حمراء غريبة تتخلل الدخان الكثيف، ألسنة لهب تتصاعد من الأعلى لتلامس الجدران والأسقف. بعض المساجين حاولوا تغطية آذانهم لكن الصوت كان أقوى من كل

حماية كأنه صرخة الجحيم نفسها.فجأة ظهر فالتر، شبه مجنون، عينيه متسعتان من الرعب، شعره متعرق، جسده يرتجف، يداه تغطي أذنيه بينما صوته يصرخ من الألم والغضب:

– ماذا يحدث بحق الجحيم؟!

بدأ يركض داخل العنبر، يصطدم بالأبواب والجدران، يتجنب الجثث والهياكل المتحللة لكنه لا يستطيع النجاة من حرارة النار التي تتسرب من فوقه ولا من الدخان الكثيف الذي يختنق منه حتى الروح. حوله آخرون حاولوا المقاومة، حاولوا الفرار، لكن بعضهم لم يستطيعوا فقد ماتوا بسرعة، فقدوا حياتهم بلا أي فرصة، أما من كانوا متعذبين من قبل فقد كانت نهايتهم الآن مجرد لحظة اختفاء مؤلمة يبتلعهم اللهب والدخان. بدأ الطابق السفلي يميل تدريجياً، الميل البطيء للسفينة جعل الجثث والركاب الأحياء يتدحرجون فوق بعضها البعض وكل شيء يتحرك بعنف.

في هذه اللحظة الحرجة، وبينما كان فالتر يحاول الهروب من النار، وصلت مجموعة من الجنود كانت تبحث عن أقرب مخرج آمن. لمحوا فالتر،

يصارع النار عند باب العنبر. بسرعة فتح الجنود الباب المعدني بصعوبة وسحبوه بالقوة من العنبر المشتعل قبل أن يبتلعه اللهب بالكامل.

كان شبه محترق، صرخاته تتداخل مع صوت الانفجارات. فور إخراجه سقط على الأرضية المائلة فاقدًا للوعي من شدة الإعياء والحرارة. لاحظ الجنود حالة يده اليمنى التي أصيبت بحروق بالغة، فقام أحدهم بلفها بضمادة سريعة من قطعة قماش عثر عليها، في محاولة لوقف تدهور حالته.

سارع الجنود بحمله عبر الممرات المشتعلة نحو الأعلى. على السطح، كانت كيت تصرخ بذهول:

– أبي! أبي! ماذا يحدث؟

لكن الأب كان مختفيًا في سحب الدخان الأسود الكثيف. لم تستطع رؤيته ولم تكن تعرف إذا كان حيًا أو قد ابتلعه الجحيم بالفعل. من بعيد اختفى الضوء الأحمر للحريق عن الطابق السفلي للحظة لكنها سرعان ما اكتشفت الرعب الحقيقي: نصف الركاب قد تم ابتلاعهم، مشاهد

لأشلاء وجثث متناثرة، صرخات ممتدة من الداخل وجحيم مشتعل يحيط بكل شيء.

الركاب الذين بقوا على السطح صُدموا من الخارج، ألسنة اللهب تلتهم السفينة من المقدمة إلى المؤخرة بسرعة غير طبيعية والدخان يتصاعد بكثافة، بعضهم لم يعد يميز بين الماء واللهب، بين البحر والسماء. كل شيء أصبح رماديًا محاطًا بالنار والدخان والصراخ البشري، أصوات الصرخات الممزقة، أصوات الحرق، الدخان والحرارة القاتلة، كل شيء خلق مشهدًا مروعًا أشبه بعرض لجحيم حي على الأرض.

داخل القاعات كل شيء انهار: درابزينات مكسورة، أثاث متطاير، زجاج محطم، النار تتسلق كل زاوية والدخان الأسود يملأ كل فراغ، الأطفال يبكون، النساء يصرخن، المساجين يركضون ويقع بعضهم فوق البعض الآخر واللهب يبتلع الجميع بلا هوادة. وعندما وصل الجنود بفالتر إلى سطح السفينة المائل، كان قد استعاد وعيه جزئيًا، لكنه كان ضعيفًا ومرتعبًا. لكن رؤية الدمار ومصير السفينة أعادت إليه هدفه الأساسي

وغضبه المطلق. دفع الجنود الذين كانوا يسندونه، وبصوت مبحوح بالكاد يُسمع ولكنه قاطع وحازم، أشار إلى قارب نجاة كان قد تم إنزاله بالفعل:

– قارب! أسرعوا!

اندفع الجنود معه نحو القارب. وبمجرد أن صعد واستقر جسده المنهك، نظر إلى القوارب القليلة الأخرى المليئة بالجنود والبحارة الذين كانوا يهربون، ثم التفت نحو الركاب المدنيين الذين كانوا يصارعون للنجاة بالقفز في الماء أو التشبث بحطام السفينة.

في لحظة شيطانية، أمر فالتر الجنود الذين معه بصوت جهوري يقطع الصراخ:

– أطلقوا النار! لا تدعوا مدنياً واحداً ينجو! يجب أن يغرقوا!

صُدم الجنود للحظة، لكنهم امتثلوا على الفور لأوامره القاسية. بدأ إطلاق نار عشوائي ومُركّز على الركاب العائمين في الماء والذين كانوا يحاولون الوصول إلى قوارب النجاة.

الصوت الحاد للرصاص وصرخات الركاب الممتزجة جعلت البحر كله يبدو كأنه يغلي من الرعب. ماركو التفت بسرعة يرى بعض القوارب تنفجر وجماجم بعض الركاب تتحطم بعنف تحت تأثير الرصاص والانفجارات.

فالتر، على الرغم من إصابته، لم يتراجع. راقب المشهد الدامي للحظات، وظهرت على وجهه ابتسامة سخرية مجنونة عندما رأى الرصاص يخترق الماء ويصيب أجساد العالقين. ضحك بصوت عالٍ هستيريًا، ضحكة عكست عمق جنونه وتوقه للدمار.أمر الجنود:

– ابتعدوا! بأقصى سرعة!

انطلق القارب بسرعة قصوى مبتعدًا عن الجحيم المشتعل الذي خلفوه.

داخل القاعات كل شيء انهار: درابزينات مكسورة، أثاث متطاير، زجاج محطم، النار تتسلق كل زاوية والدخان الأسود يملأ كل فراغ، الأطفال يبكون، النساء يصرخن، المساجين يركضون ويقع بعضهم فوق البعض الآخر واللهب يبتلع الجميع بلا هوادة.

القاعة بدأت تميل، كل شيء فيها: الطاولات، الكراسي، الخزائن جميعها مال وانكسر، سقوط متواصل للأجسام الثقيلة. في قاعة الدرجة الثانية كان الركاب متشبثين بكل ما أمكنهم يميلون مع السفينة التي أخذت تتحرك ببطء لكنها بلا رحمة، الأثاث ينهار تحت أقدامهم، الصرخات تتصاعد مع كل سقوط وكل شيء يختلط بالنار والدخان.

كيت تقف بجانب أبيها تبحث عنه بعينيها الذاهلتين، حين لاحظت سقوط جسم ضخم على سيدة كانت تحاول النجاة، ارتطم بها بطريقة مروعة واندلعت النار حولها وأصبحت أشلاء. بسرعة تحركت، اندفعت إلى الجانب الآخر من القاعة محاولة النجاة، لكن الزجاج المتطاير والجثث المتكسرة جرح ذراعها أثناء البحث عن والدها.

في هذه اللحظات، القبطان وقف في غرفة القيادة عينيه تملؤها مشاعر الكبت والعجز، كل ما كان يستطيع فعله هو محاولة النجاة بينما قلبه يعتصر من القهر، لم يستطع إنقاذ الركاب، لم يستطع حتى السيطرة على طاقمه، كل ما فعله هو توجيه بعض الجنود بسرعة نحو قوارب النجاة.

تم نزول القوارب بسرعة والقبطان وبعض الجنود ركضوا نحوها، يقذفون بها في الماء وبدأوا يجدفون بعنف يبتعدون عن السفينة المشتعلة، البعض الآخر من الطاقم لم ينتظر القوارب قفزوا مباشرة إلى البحر المتقد تحتهم، يصرخون ويحاولون النجاة بأجسادهم من النيران واللهب.

المشاهد كانت دموية: النار تلتهم السفينة من المقدمة إلى المؤخرة، الركاب على السطح يقاتلون للحياة، وبعضهم اختفى بين اللهب، بينما الضحايا الآخرون على الطوابق السفلى يصرخون ويختنقون في الدخان. كل شيء أصبح مليئًا بالحرارة، الصراخ، والانكسار، حتى صمت البحر بدا وكأنه يختنق هو الآخر من الرعب. في لحظة شعرت كيت بيد والدها تلمسها، سحبها نحو قارب نجاة قريب لكنها كانت متعبة ومرعوبة، والأصوات، والحرارة، والدماء، والدخان جعلتها شبه فاقدة الوعي، بينما القبطان والطاقم يواصلون دفع القوارب والنجاة بأنفسهم، كل لحظة كانت مليئة بالعنف، الموت، والرعب المروع الذي لا يُنسى. بينما كان القبطان وقليل من جنوده يغادرون بسرعة على قارب النجاة نظروا خلفهم ورأوا

السفينة كاب أركونا وقد تحولت إلى كتلة لهب ضخمة تميل تدريجيًا إلى جانبها كما لو أن النار نفسها دفعتها نحو البحر، الصوت المتصاعد للانفجارات والهيكل المتهالك يختلط بصراخ الركاب يتردد في كل اتجاه، كصرخة جماعية من الجحيم.

قبل أن يتمكنوا من تهدئة أنفاسهم، لاحظوا أن ثيلبيك، السفينة القريبة لم تعد آمنة، النيران بدأت تلتهم هيكلها بسرعة مذهلة وألسنة اللهب تتصاعد بعنف من مقدمتها إلى مؤخرها، في غضون دقائق قليلة بدأ ميلها يزداد ثم فجأة سقطت بشكل كامل مكونة انهيارًا هائلًا وتحولت إلى كتلة محترقة غارقة في مياه خليج لوبيك، لتنقلب المياه حولها إلى فوضى من الصرخات والركام المشتعل.

على السطح، الركاب ينظرون بدهشة ورعب، أصواتهم محشورة بين الصراخ والذعر، بعضهم سقطوا على الأرض من قوة الميل والارتجاج. كيت شعرت بغصة تكاد تخنق قلبها بينما تحاول البحث عن والدها بين

الركاب المتدافعين، كل خطوة كانت صعبة، كل مرة كانت تدفع فيها أو تتعثر يزداد شعورها بالعجز والخوف.

رأت والدها أخيرًا لكنه كان محاصرًا أسفل مائدة ضخمة سقطت عليه مع الحطام المحيط، صرخات كيت ارتفعت محاولًا الوصول إليه، بينما هو محاصر بين الحطام والدخان واللهب. بحركة سريعة بدأ الجنود الذين ينجون بين الركاب بإزاحته عن الأثاث وكان والدها يصرخ من الألم لكن عينيه لم تفقد الأمل، نظر إلى كيت وابتسم بسرعة، كأنه يطمئنها: "سأكون بخير، اصبري."

لكن الرعب لم يتوقف، إحدى المدخنات المحملة بحبال متآكلة بدأت تتفكك وتسقط على بعض الركاب القريبين، مسببة فوضى جديدة وصرخات مدوية. القارب اقترب من السفينة المشتعلة والجنود كانوا يحاولون إخراج كل ناجٍ بسرعة، لكن بعض السيدات والركاب كانوا يختنقون من الدخان والحرارة يبكون ويصرخون بلا توقف.

والد كيت بعد أن تم سحبه إلى القارب، دفعها نحو الداخل بعنف خوفًا عليها وهي سقطت على سطح القارب بين الركاب الآخرين، كانت ترتعش، تبكي، تصرخ باسم والدها الذي ظل ينظر إليها من فوق السفينة يحاول التوازن وسط الحطام واللهب، شعرت بأن قلبها سيتوقف من شدة الرعب، كل دمعة كانت حارة كالنار، كل صرخة كانت انفجارًا داخليًا من الألم واليأس.

بينما بدأ القارب يبتعد رأت والدها يحاول النجاة وسط الهلع لكن المدخنة سقطت جزئيًا على بعض الركاب، لحظة قصيرة شعرت كيت أن والدها قد يُسحق أمام عينيها وأصبحت تصرخ وتبكي بلا توقف محاولة القفز والاقتراب منه لكن البحارة ممسكين بها بقوة حتى لا تقع في المياه المتقدة، كل ما استطاعوا فعله هو تهدئتها بصعوبة بينما الدم والدخان واللهب يملأ كل زاوية وكل شيء أصبح مظلمًا ومرعبًا بلا رحمة، نظراتها متعلقة بوالدها، قلبها يكاد ينفجر من الرعب وكل مرة تحاول أن تراه بشكل واضح تزداد الدموع وتختلط بالصراخ حولها، شعرت بالعجز

الكامل بينما السفينة تحترق بالكامل خلفهم والركاب يصرخون والدماء تلطخ كل شيء والحرارة تحرق الجلد والدخان يختنق بالرئتين والآلام النفسية تتفاقم مع كل ثانية تمر.

في هذه اللحظات شعر كل من على القارب بالصدمة، لكن كيت كانت في قلبها صورة والدها بين الحطام والنار، تنظر إليه وكأنه اختفى أمام عينيها وصرخاتها تمزق الصمت، تعكس المأساة الكاملة العنف، الدم، والرهبة العميقة التي استحوذت على كل شيء من حولهم.

خرج ماركو ووالدته وأخته بسرعة من قاعة الدرجة الثالثة يجرّون أقدامهم وسط الركاب المذعورين والدخان المتصاعد، يبحثون عن قوارب النجاة، من بعيد رأوا الجنود يقفون مع مسدساتهم موجهة نحو الركاب، ينظرون إليهم بصرامة فيما يترجى بعض الركاب صعود القوارب بسرعة. صرخ أحد الجنود بحدة:

— نحن أولى بهذه القوارب! أسرعوا أو لا مجال لكم!

صرخ الركاب مدويًا، يترنح البعض ويحاول البعض الآخر الدفع للوصول، ماركو شعر برعب شديد أمسك بيد أخته وحاول إبعاد والدته عن الدخان واللهب لكن الخوف شلّ حركتهم.

تقدموا نحو الجهة الأخرى حيث رأوا بعض الجنود يساعدون الركاب على الصعود بسرعة، اقترب ماركو من القارب، مد يده لأمه وأخته يحاول سحبهم إلى الداخل لكنهما تجمدتا من الرعب:

— قومي، أمي! أسرعي أرجوكِ!

صرخ ماركو ويده ترتجف لكن الخوف كان أقوى، ولم تتحرك والدته ولا أخته، توتر قليلاً، ارتعش جسمه ثم دفعهما برفق إلى القارب بعد قليل من المقاومة وأمسكهما أخيرًا وسحبهما داخله.

— أسرعوا! القارب ممتلئ!

صاح أحد أفراد الطاقم وكان الصوت كالسيف يقطع الجو، حاول ماركو إدخال والدته وأخته إلى القارب وأراد الصعود لكنه صُدم حين قال له أحد أفراد الطاقم:

– لا يمكنك الدخول، القارب ممتلئ بالكامل، عليك البحث عن قارب آخر.

صرخت اليزابيث بصوت مرتجف من فوق سطح القارب:

– لا تتركنا! أرجوك لا تتركنا!

صوت مارغريت ارتجف أيضًا، تمسك بيد ابنتها وتقول:

– ابق هنا ماركو! لا تذهب إلى القارب الآخر إنه خطر!

ماركو ودموعه تتدفق على خديه، نظر إليهم بعينين مليئتين بالخوف واليأس، صوته يهتز لكنه يحاول التماسك:

– سأتي إليكم بعد هذا القارب! اهتموا بأنفسكم الآن.

وعندما بدأ القارب يبتعد عن السفينة، ذهب بسرعة الى القارب الآخر وجلس، بدأ القارب الذي تجلس فيه اليزابيث و مارغريت يبتعد عن السفينة، ارتفع صوته وهو ينظر للخلف يرى بوضوح انفجار جزء من قاعة الدرجة الثالثة والنيران المندلعة:

– لا... لا!

صرخ بأعلى صوته ودموعه تتدفق بغزارة، جسده يرتجف من اليأس.

رأى في تلك اللحظة والديه وأختهما في القارب الآخر محاطين بالنيران واللهب ولم يستطع فعل شيء لإنقاذهم، صرخ من الألم والصدمة:

– أمي! أختي اليزابيث!

صرخ حتى خنقه صوته، جسده يهتز بعنف، حاول القفز من القارب لكن البحارة أمسكوا به وقالوا بصوت صارم:

– ابقَ! لا يمكنك القفز الآن ستقتل نفسك!

لكنه كان غير مدرك لأي شيء، صرخ وعانق الهواء وكأنه يريد الإمساك بأمه وأخته، جسده يهتز بعنف ودموعه تبلل وجهه، صوته يختلط بصراخ الركاب الآخرين واللهب والدخان:

– لا، لا! لماذا؟ لماذا حصل هذا!

صرخ بعنف، يضرب قبضتيه في الهواء، يصرخ ويصرخ، صوته يخترق السماء المشتعلة واستمر بالضغط على يديه، عينيه مثبتتين على القارب

الآخر الذي بدأ يغرق ببطء وكل جزء من جسده يصرخ من الألم النفسي، الهلع، والخوف من فقدان أحبائه.

ابتعد قارب القبطان ببطء عن السفينة كاب أركونا وعين القبطان مثبتة على المنظر المروع أمامه السفينة المشتعلة تميل تدريجيًا، النار تتصاعد من مقدمتها إلى مؤخرها، ألسنة اللهب تتراقص كوحوش متعطشة والدخان الأسود يغطي كل شيء. من بعيد أصبح المنظر شبه مستحيل، السفن الأخرى التي كانت راسية بالقرب من كاب أركونا غرقت تمامًا، تحترق، وتختفي تحت الأمواج.

شعر القبطان بالذنب ينهش قلبه، كل صورة من الصور التي تذكره بالركاب الذين فقدوا، كل صوت انفجار كل صراخ مبحوح كان يطعنه داخليًا، حاول أن يخفف من نفسه عبر التركيز على القارب على النجاة لكنه شعر بالعجز التام، صمت طويل ملأ رأسه فقط صوت الأمواج والدخان يعكسان فوضى الجحيم التي خلفتها السفينة.

على سطح القارب، كيت تبكي بحرقة، عيونها حمراء من الصراخ والبكاء، تردد بصوت مبحوح:

– لماذا يحدث هذا؟ لماذا؟ لقد رأيت والدي بعد سنوات والآن... مات أمام عيني...

الركاب الآخرون على القوارب يصرخون ويستعطفون الجنود الذين يتحركون ببرود رهيب، امرأة تمسك أطفالها الذين يصرخون وتلوح بذراعيها:

– أرجوكم! من أجل هؤلاء الأطفال، لا تتركونا!

لكن الجنود يبتعدون عنهم بلا رحمة، بعضهم يرفع بنادقهم ويطلق طلقة واحدة في الهواء تتبعها صرخات متتالية:

– آه! لا!

صرخ الركاب، بعضهم سقط، بعضهم دُفع بعيدًا والدخان واللهب يحيط بكل شيء.

الفوضى امتدت بسرعة، الذعر اجتاح كل القوارب، الجنود بدأوا بإسراع القوارب المليئة بهم فقط دون أي اهتمام بالركاب الآخرين، صراخ وبكاء وصرخات استغاثة اختلطت مع صوت المدافع واللهب المتصاعد من السفينة.

ماركو وكيت، كل واحد على قاربه شعرا بالخيانة المطلقة، يراقبان القوارب الأخرى تبتعد بسرعة تحمل الجنود فقط فيما الركاب الأبرياء يُتركون يصرخون ويبتلعهم اللهب والدخان من بعيد.

كيت ممسكة بيديها، تحدق في الفراغ أمامها، دموعها تتدفق بغزارة، تتلوى من الصدمة وتحاول التمسك بما تبقى من عائلتها بينما النار والدخان يستوليان على كل شيء خلفها.

ماركو على القارب الآخر يصرخ ويضرب الماء بقدميه، صوته يتردد فوق الأمواج، قلبه يتمزق، كل مرة يرى فيها القارب الآخر يبتعد وكل مرة يفتقد أحبائه، كل صرخة كانت إعلانًا عن الألم المستحيل تحمله، كل لحظة صمت بعد الصراخ كانت كالطعن في قلبه.

الركاب الآخرون يصرخون ويتوسلون، البعض ينهار على الأرض، البعض يحاول السباحة نحو القوارب لكن القوارب تحوي الجنود فقط، الصوت المزدوج للنار والدخان والمياه المتحركة يغطي كل شيء والمشهد أصبح رمزًا للخيانة المطلقة، رمزًا للفقدان النهائي.

من بعيد على قوارب أخرى، ركز الجميع أنظارهم على السفينة المائلة، كتلة الحديد الضخمة تتأرجح ببطء على جانبها الأيمن كجثة عملاقة مستلقية في مياه خليج لوبيك، كل زاوية من زواياها تصدر صريرًا رهيبًا صوت المعدن المتآكل يئن ويشوه الهواء من حوله، الألواح الخشبية الممزقة، السقالات المقلوبة الحبال المتشابكة، كل شيء يتدحرج في الفوضى العارمة.

الركاب الذين تمكنوا من البقاء على الأسطح قبل الانقلاب كانوا يصرخون بلا توقف، بعضهم يسقط مباشرة في الماء، آخرون يحاولون التمسك بأي شيء متاح، بينما النيران تتسلق الجدران، تلتهم كل شيء في طريقها، ألسنة اللهب ترتفع كوحوش متوحشة والدخان الأسود يغطي

كل جزء من السفينة يختلط برذاذ الماء المحترق ليشكل غيمًا قاتمًا يخنق كل من يقترب.

الانقلاب أصبح أسرع، السفينة كاب أركونا تميل أكثر، كل شيء على ظهرها يبدأ في الانزلاق: الطاولات، الكراسي، الحواجز، كل قطعة أثاث ثقيلة تتحطم وتسقط مع صراخ الركاب.

الزجاج يتفتت، يتحطم إلى آلاف الشظايا التي تطير في الهواء، تصيب بعض من نجا من السطح.

الجنود على القوارب الأخرى كانوا يحدقون برعب لا يصدقون حجم الدمار، كل لحظة تمر كانت السفينة تبدو وكأنها تنهار أكثر، كتلة اللهب تتزايد، الرماد يتصاعد مع الدخان الكثيف، والهياكل المحترقة تتحرك بفعل الماء مما يجعلها تبدو كأنها كومة حية من النار والحديد المتلوي.

بعد أن مالت السفينة واستقرت نسبياً في المياه الضحلة، بدا لونها رماديًا كالحطام كهيكل ميت عائم نصفه مغمور بالماء والنصف الآخر يخرج منه أعمدة دخان متصاعدة. الداخل كان فوضى لا توصف الأثاث مقلوب،

الطاولات متكسرة، الكراسي المبعثرة تتدحرج مع تدفق المياه المتسللة عبر الثقوب المفتوحة في هيكل السفينة. الجاذبية المقلوبة جعلت الركاب الذين حاولوا الاحتماء يسقطون بلا رحمة، بعضهم يتحطم على النوافذ المتكسرة، آخرون ينجرفون إلى أجزاء حادة من المعدن الملتوي.

النار في كل مكان، تتسلق الأروقة بسرعة مذهلة، تحرق الأخشاب، تذيب المعادن، وتصاعد رائحة حادّة كأنها خليط من الزيت المحترق، اللحوم المحترقة، والجلد المنهار. أصوات أنين الجرحى اختلطت بصوت اللهب المتعطش، كل لحظة تزيد من وحشية المشهد، في إحدى الزوايا رأى بعض الركاب الناجين نافذة مفتوحة على الجحيم السفلي، حيث العنابر المدمرة كانت مجرد كومة من الرماد والجثث المتفحمة والظلام الكثيف يغلف المكان برائحة الموت والدخان الحارق، صوت تنفس ضعيف ودماء مخلوطة بالمياه تجعل القلب يقف للحظة.

من الداخل بعض الركاب كانوا قد احترقوا بالكامل بينما آخرون غرقوا في المياه المتدفقة عبر الثقوب الأشلاء المبعثرة تشبه عجينة محمرة من لحوم

البشر والهواء ملوث برائحة كريهة تخنق كل من يحاول التنفس، أصوات الصراخ لم تتوقف لكن معظمها أصبح مختلطاً بالذعر الصامت لأولئك الذين لم يستطيعوا الفرار. وعلى القوارب الموقف كان كارثياً، الجنود الذين نجوا بدأوا بإطلاق النار على القوارب الأخرى لمنع أي أحد من النجاة، الصوت الحاد للرصاص وصرخات الركاب الممتزجة جعلت البحر كله يبدو كأنه يغلي من الرعب. ماركو التفت بسرعة يرى بعض القوارب تنفجر وجماجم بعض الركاب تتحطم بعنف تحت تأثير الرصاص والانفجارات.

بدون تفكير قفز ماركو في الماء، الأمواج الباردة تغمره مباشرة بينما يصرخ في ذعر، مشاهد الأشلاء والنيران تطارده في كل زاوية. قارب كيت كذلك تعرض للانقلاب، الأمواج رفعت القارب بعنف وأخذته المياه بعيداً عن السيطرة، سقطت كيت في البحر، تصرخ بشدة وعيونها ممتلئة بالذعر لم تعرف كيف تسبح، كل شيء حولها تحرك بسرعة مرعبة:

المياه الباردة تعانق جسدها، الأمواج تسحبها والوحشية من حولها تجعل قلبها يتوقف للحظة.

من بعيد، لاحظ ماركو الوضع، كان يسبح متخفياً تحت الماء، جسمه يختفي بين الأمواج ليحمي نفسه من أعين الضباط لكنه لم يغفل عن كيت. اقترب منها يسبح بحذر وكل حركة منه مدروسة لتجنب لفت الانتباه، قال لها بصوت مختنق:

– تشبثي بي... أمسكِ يدي!

مسكت يده بشدة وبرودة المياه جعلت أصابعها ترتجف بلا رحمة، شعرت وكأن سكيناً يقطع جسدها في كل لمسة، تحرك ماركو ببطء، يجرها عبر المياه الباردة يحاول الحفاظ على هدوءه بينما كل موجة تعيدهما خطوة إلى الوراء. بعد لحظات شديدة، لاحظا قارباً نصفه محطم، اقتربا منه أمسك ماركو بالحطام ساعد كيت لتصعد فوقه. انحنى ماركو على نفسه يحاول إخفاء جسده قدر الإمكان، يهمس لكيت بسرعة:

– حافظي على هدوئكِ... لا يرانا الجنود، بسرعة!

كيت كانت ترتجف من البرد والخوف، عيناها تلتقطان كل شيء من حولها: أجساد الركاب تطفو بعضهم بلا حياة، بعضهم يصارع النجاة، أصوات الصراخ تصلها مكتومة عبر الأمواج والدخان.

على الساحل وقف بعض الناس ينظرون بدهشة، يحدقون في الخراب، السفينة المحترقة، الركاب الذين يتقاذفونهم الأمواج، وطلبوا النجدة بأصوات متقطعة، لكن لا أحد يستطيع الوصول إليهم.

ماركو بدأ باستخدام مجذافة واحدة بالكاد يستطيع التحكم بها بينما بجانبه كيت تفرك يديها لتدفئتها. كل حركة من المجذافة كانت صعبة، المياه الباردة تثقل جسمه، القارب كان يميل مع كل موجة وكيت تتشبث بالحافة تشعر بكل تقلب وكأن الموت يلمسها مباشرة.

اقتربا من الساحل شيئًا فشيئًا وكل لحظة كان منظر الجثث والأشلاء يقترب من القارب، رأس يطفو بجانبهم، عينان مفتوحتان في صمتٍ

مروع وكيت صرخت من الذعر. ماركو حاول تهدئتها صوته مختنق لكنه حازم:

– ابقي هادئة... نحن قريبون جداً لا تلتفتي، ركزي فقط على القارب وعلى يدي.

شعورها بالبرد والخوف كان هائلًا، الأمواج تلتهم القارب وتدفعهما إلى الأمام والخلف بينما كل لحظة كانت تقربهما من الساحل، الجثث والأشلاء حولهم، الروائح الكريهة للدم والنار تمتزج مع رائحة البحر المالحة وكل حركة تجعل قلب كيت يتوقف للحظة.

ومع كل مجذافة يدفعها ماركو ومع كل ضربة موجة كانوا يقتربون أكثر حتى ظهرت الرمال تحت القارب، شعور طفيف بالأمان بدأ يلوح لكن عيون كيت كانت لا تزال تلتقط الرعب من حولها كل رأس يطفو، كل جسد متحرك جزئيًا، كل صرخة مكتومة من الموتى، وكل هذا يترك أثراً عميقاً في نفسها، مزيج من الفزع، اليأس، والخوف، ولكنه الأمل الأخير للنجاة.

قال لها ماركو بهدوء على الرغم من توتره الشديد:

– يجب أن نخرج من القارب ونسبح... سيكون أسرع حتى نصل للشاطئ.

كان الماء يصل فقط إلى ركبة كيت، لكن هذا سمح لها ببعض الطفو والدفع البسيط، نظرت حولها الأمواج المتقطعة والبركة الضحلة لم تكن مريحة، لكنها كانت فرصة النجاة الوحيدة. رفعوا رؤوسهم للتحرك نحو الخارج وما إن اقتربوا حتى لمحوا قارب الجنود القريب.

صرخ الجنود:

– توقفوا!

فجأة رفع أحدهم بندقيته تجاه ماركو، عينيه تتلألأ بالقسوة والصرامة. ماركو بسرعة بديهة نادرة دفع كيت في الماء لتغوص فجأة في البركة الضحلة، شعرت بالذعر لم تعرف كيف تتحرك في الماء لكن قبضتها تمسكت بطحالب أو حبال ممزقة عائمة كانت مربوطة بالقارب، السطح

الخشن بدأ يجرح يدها من الأسفل وظهرت قطرات الدم على أصابعها الرقيقة. نادت بسرعة:

– ماركو هيا انزل!

في اللحظة نفسها، أطلق الجنود رصاصة مرت بجانب ماركو، ضربت من رأسه ومن أسفل الجبهة خرجت من الجانب الآخر وسقط نصف جسده إلى الماء بهدوء، لم يعد قادرًا على التحرك بحرية. كيت شعرت بصدمه قلبها، دموعها انهمرت، صرخاتها اختنقت بين الأمواج، ورأت ماركو يكاد يفقد السيطرة، جسده يرتجف، وحياته على المحك.

لم تمض ثوانٍ حتى اكتشف الجنود وجودها، لكن كيت استجمعت كل شجاعتها، ضغطت على نفسها وأمسكت بالطحالب أو الحبال العائمة، بدأت تجري على الماء، تسحب نفسها بيدها بعنف نحو الشاطئ، كل حركة مؤلمة، كل لحظة مليئة بالخوف، كانت الرصاصات تأتي من القارب خلفها، تصيب الماء بقربها فتحدث تموجات تهز جسدها وتزيد من صعوبة حركتها.

صرخت حاولت حماية رأسها وعيناها تدمعان من الرعب والبرد بينما كانت عضلاتها تتعب من السحب المستمر، وأخيرًا بعد مجهود هائل استطاعت الوصول إلى الصخور القريبة من الساحل.

تحني برأسها، تتنفس بصعوبة بالكاد تستطيع الوقوف جلست خلف صخرة كبيرة تختبئ، عيناها تراقبان بحذر كل حركة على الشاطئ، كل لحظة كانت تعطيها أملًا بسيطًا وكل حركة خاطئة كانت تهدد حياتها، رأت الجنود يبتعدون شيئًا فشيئًا، القارب يبتعد وهدوء نسبي يبدأ يحل محل الرعب، لكنها لم تشعر بالأمان بعد، قلبها كان ما يزال يرفرف.

كل شهيق وزفير يحمل رهبة ما حدث وما يمكن أن يحدث بعد لحظة... بقيت مختبئة خلف الصخرة تراقب كل خطوة، كل حركة على الشاطئ، كل همسة للجنود، وكل مرة تشعر فيها بالبرد والغرق المحتمل. ولكن مع ابتعاد الجنود شعرت بوميض صغير من الأمل، شعور بالنجاة، رغم أن الدموع كانت لا تزال تبلل وجهها، وعينيها تلتقطان كل شيء حولها بحذر شديد.

وفي الساعة الخامسة والنصف

السماء بدأت تتلون بألوان الغروب الخافتة برتقالية وحمراء تمتزج مع رماد دخان السفينة المحترقة الذي ما زال يتصاعد في الهواء، نسيم البحر البارد يلسع وجوه الناجين يذكّرهم بوحشية الأمواج والنيران التي اجتاحت كل شيء قبل ساعات قليلة فقط.

كيت كانت مستلقية على الرمال فاقدة للوعي جسدها يرتجف من البرد والصدمات المتكررة وعقلها لا يزال عالقًا بين ذكريات الرعب الذي مرت به وبين حقيقة أنها نجت على نحو معجزة. من بعيد بدأت أصوات الناس تصل إليها، صرخات الذعر والدهشة، همهمات الذين يراقبون ما تبقى من السفينة وكيف تنهار أجزاؤها واحدة تلو الأخرى، انفجارات متفرقة صغيرة واللهب الذي يلتهم الهيكل المائل وأشلاء الطافحة على سطح الماء، كل ذلك جعل الأفق يبدو وكأنه لوحة من الجحيم.

ببطء بدأت وعيها يعود، أحسّت بالهواء البارد على وجهها، بصوت المياه المتلاطمة وبهمسات ومحادثات من حولها، نهوضها كان صعباً كل خطوة

ثقيلة على الرمال، كل حركة كأنها تطعن في روحها قبل جسدها. نظرت أمامها ورأت في الماء جثة ماركو، غارقًا وممزقًا جسده يطفو جزئيًا في دمائه والدموع تنساب من عينيها بلا توقف، قلبها انقبض وصراخ داخلي حاول الخروج، لكنها بالكاد استطاعت إصدار صوت، بالكاد استطاعت أن تحرك ساقيها.

رأت الناس حولها، بعضهم واقفون في حالة رعب من الحطام الذي يقترب من الشاطئ بعضهم يحاولون سحب أشخاص آخرين من المياه، عندما لمحوها صرخ أحدهم:

– انظروا! هناك ناجية!

على الفور تدافع نحوها عدة أيدي، حاولوا دعمها ومساعدتها على الوقوف، أحدهم مد لها زجاجة ماء سقاه بعض القطرات على شفتيها لكنها بالكاد استطاعت البلع، كانت تتمايل بين الناس، كل خطوة مؤلمة كل نظرة للأفق تذكّرها بالرعب الذي عاشته...

بينما كانت تتقدم بصعوبة، رأت أمامها كيف يتوجه الناس نحو الأماكن الآمنة، يرفعون المصابين ويهتفون من أجل تشجيع بعضهم البعض، بينما جثث وأشلاء من البحر تطفو على مقربة من السطح الرملي، فجأة تعثرت، فقدت توازنها، وانهارت على الرمال مرة أخرى، أحد الرجال صرخ:

– ماذا حدث؟!

لم يكن لديها قوة للرد، رفعوها بسرعة بين أذرعهم، يحاولون الحفاظ على توازنها يحملونها إلى منطقة أكثر أمانًا بعيدًا عن الأشلاء واللهب المتبقي، كل لحظة كانت كابوسًا حيًا، لكن الأمان النسبي للشاطئ بدأ يمنحها شعورًا خافتًا بالحياة.

في ذلك الوقت حملوها مسرعين، وأسعفوها بما توفر من ماء وهواء، حتى عادت أنفاسها تتردد ببطء شيئًا فشيئًا استعادت وعيها، ثم صحتها تدريجيًا، كزهرة ذابلة أعادتها الحياة من جديد.

لكن مع انطفاء النار شيئًا فشيئًا، كان البحر يلفظ ما تبقى من الناجين، لم ينجُ سوى مئة مدني إلى جانب مئتين وخمسين جنديًا كانوا قد فرّوا في القوارب. وسط الجثث المتفحمة والوجوه الغارقة في الصمت انتُشلت كيت من بين الأمواج شبه غائبة عن الوعي.

وضعت على الأرض الباردة بين الناجين القلائل، عيناها تفتحان ببطء تحدّق في الأفق حيث ترقد كاب أركونا كجثة هائلة تشتعل في صمت، كان صوت النحيب يملأ المكان فيما الدخان يعلو في السماء كأنه شاهد أبدي على المأساة.

رفعت كيت رأسها بصعوبة، نظرت حولها ثم أغمضت عينيها ثانية والدموع تنساب على خديها، لم تعد تعرف إن كان ما جرى حلمًا أم كابوسًا، لكنها أدركت أنها واحدة من قلةٍ كُتبت لهم النجاة على حساب آلاف الأرواح التي ابتلعها البحر.

الفصل السابع

وداعاً أيها البحر... أنت القاتل

بعد ثلاثة أشهر

قاعة محكمة كيوريوهاوس، هامبورغ

القاعة مكتظة بأنفاسٍ ثقيلة لا تُرى، لكنها محسوسة كغبار الحرب الذي لم يهدأ بعد. جدران رمادية متشققة، ونوافذ نصف محطمة يدخل منها ضوء باهت، ضوء باهت ينعكس على وجوه الشهود والناجين، أولئك الذين أُعيدوا من فم البحر ليواجهوا الآن جليداً من نوعٍ آخر: برود العدالة الرسمي.

في المقدمة جلس القاضي هانس غروبر، عيناه المتعبتان تنظران في الأوراق المتراكمة أكثر مما تنظران في الوجوه البائسة. وعلى يمينه المدعي العام فريدريش مولر الذي بدا كمن يحمل على كتفيه رماد سفينةٍ غارقة وعبء تحقيق تاريخي.

أعلن كاتب الجلسة بصوتٍ ثابت يحمل رصانة القانون:

– محكمة الشعب في هامبورغ تفتتح جلستها في قضية كاب أركونا، الجلسة الأولى بتاريخ التاسع والعشرين من أغسطس عام 1945م.

خيم صمتٌ ثقيل على الحضور. كيت موجودة بين الصفوف، ترتدي معطفاً رمادياً بسيطاً، يداها ترتجفان بوضوح على ركبتيها. لم تنم الليلة السابقة، كانت تسمع أزيز الطائرات يتردد في رأسها كلما أغمضت عينيها، كأن الحادثة تتجدد مع كل نبض.

وقف المحامي إرنست فاغنر ممثلاً عن الناجين، واندفع صوته المبحوح من الألم والغضب المكبوت يصدح في القاعة:

– سيدي القاضي، نحن هنا اليوم لا لنروي قصة عابرة من قصص الحرب التي لا تنتهي، بل لنروي الحقيقة التي ماتت مع أكثر من سبعة آلاف إنسان. هؤلاء الأبرياء احترقوا وغرقوا بينما كان يمكن إنقاذهم، لو لم يُخدع العالم بأكمله بشأن هويتهم المدنية التي أُنكرت، ولو لم يُمنعوا من النجاة بقرار عسكري مبيت!

تعالت همهمات الحاضرين المتأثرين بالكلمات، فيما دوّى اسم فالتر فون هانسن، الرجل المسؤول عن عمليات نقل السجناء، عندما استدعاه القاضي للشهادة. نهض فالتر بزيّه العسكري القديم الذي خفت بريقه، نظراته جامدة، خطواته بطيئة ومتعمدة، وعندما جلس أمام المنصة كان كمن يضع على صدره وزر التاريخ بأكمله، مدّعياً أنه مجرد منفذ.

القاضي غروبر يميل قليلاً نحو المنصة، يخترقه بنظرة فاحصة:

— السيد فالتر، هل كنت على علم بشكل صريح بأن السفينة كانت تحمل سجناء مدنيين ومدنيين ألمان تم تجميعهم؟

اجاب فالتر بصوتٍ بدا متوتراً، لكنه حاول أن يجعله واثقاً:

— الأوامر الصادرة إلينا كانت واضحة لا لبس فيها، سيدي القاضي. لقد أُبلغنا بوضوح أن هؤلاء هم مجرمون خطرون، وخونة للدولة في زمن الحرب. لم نكن على الإطلاق نعلم شيئًا عن كونهم مدنيين أبرياء أو سجناء سياسيين غير خطرين.

المحامي فاغنر يقف فجأة، يتقدم خطوتين للأمام، ويطرح السؤال بحدة بالغة:

– لكنكم لم تكلفوا أنفسكم عناء التأكد! سبعة آلاف إنسان يتم التعامل معهم على هذا النحو دون أي تحقيق مسبق أو تدقيق في سجلاتهم؟ ألا يقتضي واجبك العسكري أدنى درجات الشك والتحقق من هويات هذه الأعداد الهائلة؟

فالتر ينظر للأرض متجنباً نظرات المحامي القاسية، ويتحدث بنبرة منخفضة يحاول تبرير الموقف برمته بالظروف:

– كنا نعيش اللحظات الأخيرة لنهاية الحرب... لم يكن هناك وقت للتدقيق، لم يكن أحد يسأل الأسئلة الصحيحة، كان الجميع فقط يريدون النجاة بجلودهم من الفوضى العارمة والانهيار الحكومي.

ثم وقف المحامي الآخر هاينريش كلوف – ممثل الدفاع عن الضباط الألمان – وقال بصوتٍ حادّ يحمل نبرة التحدي القانوني:

– سيدي القاضي، موكّلي لم يصدر في أي لحظة أوامر بالإعدام الجماعي، ولم يكن لديه أدنى علم بالتصنيف الحقيقي لما حملته السفينة من ركاب. بل يجب أن نذكّر الحاضرين هنا بأن القصف المباشر الذي أدى إلى غرق السفينة بالكامل نفذته الطائرات البريطانية المعادية، وليس الجيش الألماني! لا يمكن تحميل موكّلي مسؤولية أفعال العدو!

فجأة، انطلق صوت صارخ من أحد الناجين في الصفوف الخلفية، وكان كالدوي المفاجئ الذي يكسر هدوء القاعة:

– لكنكم أنتم من وضعنا هناك! أنتم من منع القوارب من الاقتراب لإنقاذنا! أنتم من أطلق النار على من حاول السباحة باتجاه الشاطئ! لا مجال لتجميل الجريمة هنا!

تعاظمت الهمهمات وتحولت إلى غليان، كان الغضب أكبر من سلطة القانون، والذاكرة أعمق وأكثر حزماً من أي عدالة مؤقتة. أُحضرت صور للسفينة بعد الغرق – أجساد متفحمة، رماد البحر، وجوه لا يمكن

تمييزها من فرط التشوه. رفع المحامي فاغنر صورة بيده، وكأنه يرفع دليلاً دامغاً لا يمكن دحضه:

– هذه الصورة التقطت في خليج لوبيك، بعد يوم واحد فقط من الكارثة. هل هذا ما كنتم تسمونه أوامر عسكرية مشروعة؟ هل هذا هو الحد الذي تبرره الحرب؟ أن تُترك الأجساد هكذا شاهدة على وحشية لم يسبق لها مثيل!

انخفضت أنظار الجميع، بمن فيهم القاضي، في صمتٍ ثقيل.

كيت كانت تنظر للصورة بذهول بارد، تشد على معصمها حتى كادت أظافرها تغرز في جلدها. وبينما كان القاضي يستعد لرفع الجلسة للاستراحة، انطلقت من الخلف امرأة مسنة، كانت ترتجف من الغضب والحزن، وصرخت بوجع يهز القاعة:

– ابني كان هناك! مات ولم يستطع حتى أن يُدفن في تراب الوطن! هل يسمعنا أحد في هذه المحكمة المليئة بالقتلة؟!

رفع القاضي غروبر رأسه نحو المنصة، يتحدث بنبرة باردة حاول أن يخفي فيها رجفة صوته وتأثره البالغ:

– نستدعي القبطان هاينريش بيرترام إلى المنصة للإدلاء بشهادته.

تحرك القبطان بخطوات بطيئة نحو منصة الشهادة، كتفاه منحنيتان كمن يحمل البحر كله على ظهره. كان وجهه شاحباً كبقايا جثة، وعيناه تائهتين في مكانٍ لا يراه سواه، وكأنه يعيش الكارثة في كل لحظة.

القاضي:

– سيد بيرترام، بصفتك قبطان السفينة، هل كنت على علم بالركاب الذين كانوا على متن كاب أركونا وماهيتهم الحقيقية؟

القبطان (بتنهيدة طويلة ومريرة خرجت وكأنها استغاثة):

– كنت أعلم أن السفينة مخصصة للإجلاء، لا للاعتقال أو الإبادة... كانت الأوامر تتغير كل ساعة، لم نعد نعرف من هو العدو ومن هو المدني. ولكن الأمر الحاسم كان: تلقّينا أوامرنا من فالتر شتاينر مباشرة،

هو من حدّد مسار الإبحار وأمرنا بمنع أي نزول أو مغادرة من السفينة تحت أي ظرف!

تحوّل نظر القاضي فوراً نحو فالتر الجالس في الصف الأمامي من المتهمين.

كان فالتر يحاول التماسك، يشد قبضتيه تحت الطاولة، لكنه شعر بأن الهواء في القاعة بدأ يضيق، وأن شبكة الاتهام تُحكم حوله.

القاضي (بنبرة قاطعة لا تقبل الجدل):

– هل تنكر ما قاله القبطان الآن تحت القَسَم الرسمي، يا سيد فالتر؟

فالتر يتنفس بعمق، ينظر حوله ببرود مصطنع، لكن صوته يخرج أهدأ مما يجب:

– أنكر كل ما ورد على لسانه. لم أعطِ قط أوامر بإبقاء أي مدني على السفينة. نحن كنّا ننفّذ فقط بروتوكولات النقل المعتادة. القبطان هو من يتحمّل المسؤولية الكاملة لمنعه المغادرة، وليس أنا، بل هو من ارتبك وارتعد خوفاً.

تصاعدت همهمات الغضب بين المقاعد الخلفية مرة أخرى، حتى نهض أحد الناجين من كرسيه، رجل عجوز بوجهٍ محروق نصفه من أثر النار، فصاح بصوتٍ مبحوح لا يعرف الخوف:

– كاذب وقاتل! أنت من أمر بإطلاق النار علينا حين حاولنا السباحة! كنتَ واقفاً على الشاطئ تضحك ضحكة باردة وأنت ترى موتنا! هل تنكر هذا أيضاً يا فالتر!؟

ارتفعت الأصوات فجأة في هستيريا الغضب، صرخ آخرون من الناجين:

– أنتم من جعلتمونا وقوداً لهذه الحرب القذرة!

– قل الحقيقة! كم قبضتَ أيها الخائن مقابل أرواحنا التي زهقت ظلماً؟!

ضرب القاضي مطرقته بقوة ثلاث مرات متتالية، وكان الصوت يخترق صراخ الحضور كطلقة تحذير أخيرة:

– النظام في القاعة! النظام فوراً وإلا سأأمر بإخلائها الآن! على كل من أخل بالنظام أن يلتزم الصمت التام!

لكن الدموع كانت أسرع من القانون وأكثر صدقًا. كيت وضعت يدها على فمها، والدموع تنهمر رغماً عنها، تستعيد مشهد الرعب. كانت تسمع صرخات الرجال من حولها وكأنها عادت إلى ذلك اليوم نفسه، نفس الصوت، نفس الرعب اللامتناهي.

بعد دقائق من الفوضى، عادت القاعة إلى هدوء هشّ، أشبه بسكون ما بعد العاصفة الهوجاء. فتح القاضي ملفاً سميكاً أمامه وقد لُصق عليه ختم لجنة التحقيق البريطانية، وقال بصوتٍ جاف ومحايد يهدف إلى إعادة فرض النظام:

— سأقرأ الآن ما ورد في تقرير لجنة التحقيق الرسمية بتاريخ الخامس من يوليو عام 1945 بشأن الحادثة...

فتح الصفحة الأولى وبدأ يقرأ، بينما كانت الأنفاس في القاعة تتباطأ شيئاً فشيئاً، كل كلمة تسقط كحجر ثقيل في صدر الحاضرين:

— بعد القصف، جرفت التيارات البحرية آلاف الجثث إلى الشواطئ الممتدة على طول خليج لوبيك، خاصة في مناطق نويشتات في هولشتاين،

وبلتسيرهاكن، وغريفزمولين، وحتى جزيرة بويل. استمرت الأجساد المتفحمة والمتعفنة في الانجراف إلى اليابسة لأسابيع متتالية بعد نهاية الحرب، ما خلق منظراً مروعًا أجبر الناجين والسكان المحليين والجنود البريطانيين على جمعها ودفنها في مقابر جماعية فورية.

توقّف القاضي للحظة، تنفس بعمق ثم تابع بصوتٍ أعمق يرتعش بشكل طفيف:

– ونظراً للعدد الهائل من الضحايا وعدم انتشالهم بشكل كامل، أطلق الجنود البريطانيون على المنطقة الساحلية آنذاك لقب موثق: "شاطئ النازية الدامي" (Der Nazi-Leichenstrand).

رفعت كيت رأسها بصمت، لم تصدّق أنها تسمع هذا اللقب المُر للمرة الأولى. كأن التاريخ يسخر من الضحايا حتى بعد موتهم، واصفاً نهايتهم بهذه القسوة البشعة.

القاضي (متابعاً وهو يشد على كل كلمة):

– استمر هذا المنظر المأساوي لأيام عديدة، وحتى الآن، حيث تم توثيق العثور على عظام وبقايا الضحايا على الرمال والمياه الضحلة، مما يؤكد الفظاعة المستمرة للجريمة وعدم إغلاق ملفها بسهولة أو بالتقادم، بل هي جريمة مفتوحة على مدى التاريخ.

هنا، حاول فالتر أن يقاطع محاولاً التملص من المسؤولية، قائلاً بصوتٍ خافت متوسلاً:

– تلك أمور خارجة عن إرادتنا بالكامل، لم نكن نعلم أن التيارات البحرية ست—

قاطعه القاضي بصرامة حازمة، وتوبيخ واضح:

– اصمت الآن، فالتر! أنت تتحدث عندما يُطلب منك ذلك فقط، وليس لديك الحق في مقاطعة شهادة اللجنة الرسمية.

ثم واصل القراءة:

– يشير البحث الألماني إلى أن رفات ما يقدر بنحو ثلاثة آلاف ضحية لا تزال في قاع الخليج، على عمق يتراوح بين سبعة عشر وثمانية عشر متراً،

في مواقع حطام السفن الغارقة، حيث لم يتم انتشالها بالكامل أبداً وظلت جزءاً من قاع البحر. وقد تم تحويل مناطق الدفن الرئيسية على طول الساحل إلى مقابر شرف رسمية - مثل مقبرة الشرف في نويشتات - تخليداً لذكرى الضحايا، لكن الحقيقة التاريخية المؤلمة تظل أن الآلاف منهم لم يحصلوا على دفن لائق، واستمرت رفاتهم تشهد على الجريمة على مدى عقود طويلة.

خيم الصمت المطبق من جديد، لم يُسمع سوى صوت أوراق الملف وهي تُغلق ببطء.

انحنت كيت برأسها وهمست بصوتٍ يكاد لا يُسمع، وكأنها تخاطب البحر نفسه:

— حتى البحر لم يعد يريدهم... لكنه لم ينسَهم أبدًا ولن ينساهم.

نظر إليها القاضي طويلاً قبل أن يقول بنبرةٍ هادئة متوترة، ملخصاً جوهر القضية:

– هذه ليست مجرد قضية غرق عابرة... إنها وصمة عار أبدية في ضمير أوروبا وذاكرة الإنسانية جمعاء.

انحنى القاضي إلى الأمام، نظر بتمعن إلى فالتر، نظرة طويلة لم تخلُ من الحذر ولا من الغضب المكبوت. كانت القاعة هادئة حد الاختناق، لا يُسمع فيها سوى صوت ارتجاف الأوراق بين أصابع كاتب المحكمة. رفع القاضي صوته بهدوءٍ صارم، موجهاً الكلمة الأخيرة بتهديد ضمني:

– السيد فالتر فون هانسن... يبدو لي أنك تحاول تبرئة نفسك ببراعة عبر التلاعب بالكلمات والحقائق. لكن الآن، أطلب منك قول الحقيقة الكاملة... وباسم العدالة الألمانية والبشرية التي تنصت من خارج هذه الجدران، أُلزمك أن تحلف اليمين على ذلك. لن يُسمح لك بالمغادرة قبل قول الحقيقة.

تقدّم الحارس نحو فالتر، وهو يحمل إنجيلاً صغيراً موضوعاً في علبة خشبية قديمة. وضعه أمام فالتر على المنصة.

تردّد فالتر للحظة، وبدت يده ثقيلة كأنها ترفع جبلًا، ثم مدّها بترددٍ واضح نحو الكتاب، وقال بصوتٍ مرتجف:

– أقسم أمام الله وأمام هذه المحكمة أن أقول الحقيقة... كل الحقيقة... ولا شيء غيرها.

اختنق صوته تماماً عند الكلمة الأخيرة، وبقيت يده معلّقة فوق الكتاب لحظةً طويلة، كأنها تخشى العواقب التي سيجرّها هذا القسم.

تراجع القاضي غروبر إلى مقعده، وضع نظارته على الطاولة بحركة حاسمة، وقال بهدوءٍ حادّ يخترق الصمت:

– الآن، قل الحقيقة يا فالتر. من أصدر الأوامر بإبقاء السجناء على متن السفينة ومنع إخلائهم رغم علمكم المؤكد بالقصف القادم؟ من كان العقل المدبّر والمسؤول الفعلي عن تلك الكارثة البشعة؟

مرت لحظة صمتٍ ثقيلة، طويلة بما يكفي ليُسمع صوت دقات الساعة على جدار القاعة وكأنها تعدّ ثمن الحقيقة.

فالتر لم يجب، بل ظل يحدّق في سطح الطاولة أمامه، أصابعه ترتجف بعنف غير مرئي، وقطرة عرق باردة انزلقت من صدغه نحو ذقنه.

همس القاضي بنبرةٍ أخفض، لكنها بدت أخطر من الصراخ:

– تذكر أنك أقسمت للتو. لا مجال للتراجع.

أغمض فالتر عينيه بقوة، زفر بقوة دفع بها الهواء العالق في صدره، ثم بدأ يتحدث بصوتٍ متقطع، يعكس الصراع الداخلي:

– كنتُ مجرّد منفذٍ للأوامر... أتلقّى التعليمات من فوق... كنتُ مُجبراً على الانصياع منذ أعوام، سيدي القاضي، وهذا ما أورثني كل هذا القسوة التي ترونها. كنتُ... ضحيةً مثلهم في البداية، ثم تحوّلتُ إلى مسخ ينفذ الأوامر دون تردد.

تململ الناس في مقاعدهم، تعالت همهمات حائرة مختلطة بالغضب، وبعضهم صرخ بحدة لا يمكن كبتها:

– قاسٍ!؟ وأين كان ضميرك عندما أطلقت النار على من حاول النجاة؟!

– قل من أمرك! من هو فوقك يا فالتر، لا تتوارَ خلف أكاذيبك!

رفع القاضي يده بقوة آمرة يطلب الصمت. ثم تقدّم بجسده للأمام وقال ببطءٍ شديد، كل كلمة تخرج وكأنها تقرع طبول الكشف:

– اذكر الاسم الصريح.

رفع فالتر عينيه ببطء، كان في نظره مزيج بين الخوف من العواقب والارتياح المصاحب للاعتراف، كأنه على وشك أن يخلّص نفسه من حمل تاريخي. صمت طويلاً يتأمل وجوه الحاضرين، ثم همس، وصوته بالكاد يُسمع ولكنه حاسم:

– جوناثان... جوناثان لورنس.

كأن القاعة توقفت عن التنفس لسماع هذا الاسم. حتى الأقلام تجمدت في أيدي الكتّاب، والصمت يلف الجميع.

كيت كانت جالسة في الصف الثاني، لم تتحرك ولم تصدر صوتاً. اتسعت عينها ببطء شديد، كما لو أن العالم كلّه انهار داخل نظرتها الباردة. شفتاها انفصلتا قليلاً، لكنها لم تصرخ، لم تنهض، لم تتهشم أمامهم. قالت بصوتٍ خافتٍ، أقرب إلى الهمس الساخر:

– هذا... غير حقيقي. لم يكن...

كان وجهها جامدًا يخفي كل المشاعر، لكن عينيها تشعلان كل الصدمة التي لم تنطق بها. لم تعد تسمع القاعة، ولا صوت القاضي الذي قال بعدها:

– هل تؤكد أن الاسم الذي ذكرته هو الشخص الذي أعطاك الأوامر المباشرة؟

فالتر أطرق رأسه، ثم أجاب بصوتٍ خافت يبرر موقفه:

– هو الذي وقّع على برقية الإخلاء الكاذبة، هو الذي أمر بإبقاء السفينة في الميناء... قال لي بالحرف: "اتركوهم، لا أحد يغادر حتى تصل الإشارة." كنت أعلم أنه ضابط كبير يموّل النظام منذ زمن طويل... لكنني كنت خائفاً من بطشه.

اقترب القاضي أكثر، بنظراتٍ حادة لا تترك مجالاً للمراوغة أو الكذب:

– وأين هذا الرجل الآن؟

تنفس فالتر ببطء، وكأنه يلقي حملًا من على روحه، ثم قال بنبرة متصلبة تكشف عن فعلته:

– لقد احتجزته بنفسي، سيدي القاضي. في عنبر السجناء السفلي. كان محاولتي الأخيرة لوقف هذا الجنون. وبسبب الغرق... على الأرجح... مات هناك. مع من ماتوا في البحر. لم يُعثر عليه أبداً.

غرقت القاعة في صمتٍ خانق. حتى القاضي لم يتكلم. كيت ظلت تحدّق في الأرض، يديها ترتجفان على ركبتيها. صورة والدها التي عاشتها كل تلك السنوات كرمز للمفقود والضحية، بدأت تتفتت وتنهار بالكامل في داخلها.

مدّت يدها إلى عنقها لا شعورياً، حيث كانت قلادتها القديمة التي تحمل حرف "J"، هدية والدها الأخيرة.

همست بخفوتٍ حزينٍ لا يسمعه سوى مَن بجانبها:

– أنت كنتَ المنقذ في ظاهري... كيف صرتَ الآمر والمجرم في الخفاء؟

ساد الصمت من جديد، لكن القاضي لم يتحرك من مكانه. ثم قال القاضي بصوتٍ منخفضٍ لكنه حاد وموزون:

– يبدو أنك لم تقل كل الحقيقة بعد يا شتاينر. من كان هذا الرجل فعلاً؟ وما الدور الذي أدى بك إلى الغدر به واحتجازه؟

رفع فالتر نظره ببطء شديد، ووجهه شاحب كأنه يواجه حكمًا.

صمت لحظة طويلة، ثم قال بصوتٍ مبحوح، وكأن الكلام يخرج من تحت ركام السنين والأحداث:

– ذلك الرجل... جوناثان لورنس، لم يكن مجرد ضابط. بل هو من خطط لكل تفاصيل هذه المأساة منذ سنوات. كان من المموّلين السريين الكبار... كنتُ أعلم بطبيعة عمله الشنيعة، وهذا هو السبب الذي جعلني قاسيًا. كان يهددني ويهدد عائلتي... تردد للحظة ثم تابع بصوتٍ حاسم: ...ولكن عندما أدركت حجم الكارثة الوشيكة، وحجم الدماء التي ستسيل بسببه، غدرتُ به وحبستُه مع المساجين في الأجزاء السفلى. كانت تلك هي نهايته التي اخترتُها له.

ترددت همهمة حادّة في القاعة. ضرب أحد الناجين بيده على الطاولة وهو يصيح بعنف:

– كاذب! تُحمّله ذنبك لتبرئ نفسك! أنت من جعله يموت!

لكن آخر وقف بجانبه، وجهه شاحب وصوته مبحوح، يتذكر شيئًا قديماً:

– سمعتُ الاسم من قبل... لورنس. كان مذكوراً في الوثائق، على الأوامر الموقّعة بختم أحمر.

القاضي نظر نحوهما وقال بحدةٍ محسوبة يطلب الدليل:

– هل لديك دليل دامغ على ذلك التوقيع؟

رفع الرجل ورقة صفراء مهترئة من ملفه، وقال بصوتٍ حاسم:

– هذه نسخة من طلب تخطيط نموذج السفينة الصادر قبل أعوام من الكارثة... التوقيع واضح: J. Lawrence.

سادت القاعة فوضى عارمة من الهمسات، والعيون كلها تحولت نحو الصف الثاني، نحو كيت التي كانت جالسة في مقعدها لا تتحرك، كأنها تحوّلت إلى تمثال من رخام.

كان وجهها شاحباً كالموت، عيناها معلّقتان على الورقة الصفراء التي تحمل توقيع والدها، كأنها ترى من خلالها وجهاً قديماً يعود من بين الموتى ليطعنها في الصميم. اقترب القاضي منها بنظره الثاقب، لم يقل شيئًا، فقط حدّق فيها ملياً بالشك، وكأنه يريد تأكيد أسوأ مخاوفه.

فجأة، قال أحد الناجين بصوتٍ متهدّج يرتعش من الغضب والانفجار:

— لورنس... كيت لورنس... إنها ابنته! هذا يفسّر حضورها!

انفجر الصمت في القاعة مثل قنبلة صامتة مدوية. الكلّ التفت نحوها، البعض بذهول لا يصدق، والبعض بكرهٍ مكتوم يشتعل، والبعض بشفقةٍ غامضة على مصيرها. كيت لم تتنفس للحظة، شعرت بأن الهواء انسحب من رئتيها، حاولت أن تقول شيئاً، لكن الكلمات خانتها وتجمدت على شفتيها.

ثم همست بصوتٍ مكسورٍ بالكاد يُسمع، وكأنها تنازع للتصديق:

— إنه... والدي... لكنه لم يكن كذلك في النهاية... لقد كانوا يقولون لي إنه مفقود منذ سنوات... كان سجيناً مثلكم...

لكن صوتها انكسر أكثر مع كل كلمة، كأن الحروف نفسها ترفض الخروج حاملة الكذبة الثقيلة:

– كان سجيناً... ليس ضابطاً... لا يمكن... لا يمكن أن يكون هو الجاني!

تراجعت للخلف، وضعت يدها على فمها لتكتم شهقتها المؤلمة، بينما العيون تتبعها بنظراتٍ قاسية وحكم مسبق. رجل من الناجين قال بغضبٍ مكبوت، وصوته يرتفع حاملاً اتهامًا خطيراً:

– إذن هذا يفسّر كل شيء! ابنته كانت بيننا، تحاول تبرئته وتضليل العدالة!

صرخت امرأة كانت بجانبه، ووجهها يحمل آثار الفقد:

– ابنة الجاني نفسه! كيف نثق بما قالت لنا سابقاً؟! هل كانت تتجسس علينا؟!

ارتفعت الأصوات في القاعة، وتحولت الفوضى إلى هيجان، لكن القاضي طرق بمطرقته عدة مرات ببطء وقوة ليعيد النظام، وصوته يقطع الضجيج:

– النظام! النظام التام الآن!

كيت جلست مجددًا، تنظر إلى الأرض، عيناها ممتلئتان بالدموع لكنها لم تبكِ قط، خوفاً من إثبات الاتهام. فقط همست بخفوتٍ موجعٍ كأنها تحدث نفسها، تضع حداً فاصلاً بينها وبين الجريمة:

– أنا لستُ مثله... أنا لستُ أبي. لن أكون.

هنا، التفت القاضي إلى فالتر، وقد وجد الفرصة أخيراً ليبدأ سرد القصة التي ستهدئ الهيجان.

رفع القاضي صوته بهدوءٍ صارم، موجهاً كلامه إلى فالتر:

– السيد فالتر فون هانسن، هذه القاعة لن تهدأ قبل أن تفهم حقيقة جوناثان لورنس. لا تحاول تبرئة ضميرك عبر مشاعر العائلة. الحقيقة هي مسؤوليتك! كن رجلاً الآن، واروِ لنا القصة من بدايتها.

أغمض فالتر عينيه مرة أخرى، وكأنه يستدعي قوة خارقة للتحمل. بدا فجأة كأنه يغادر الحاضر ويعود إلى زمن بعيد. بدأ يتذكر سنوات القمع والتهديد، يتذكر اليوم الذي التقى فيه جوناثان لأول مرة.

تصلبت ملامحه، وراح يتذكر الماضي القاسي...

عام 1924

فندق أتلانتيك - هامبورغ

كانت هامبورغ في ذلك المساء تختنق بجمال مضلل؛ غروب شمس برتقالية دافئة ينعكس على مياه بحيرة "ألستر" الهادئة، والسفن الصغيرة الراسية هناك تمايل بهدوء ورتابة، كأنها تتنفس مع إيقاع المدينة. على الضفة المقابلة، كانت أضواء شارع "يونغفيرنشتيغ" - أشهر شوارع التسوق في المدينة تشتعل واحدة تلو الأخرى ببريق خادع، تنبض بالحياة الزائفة والضحك والموسيقى الصاخبة.

في الخارج كانت العربات الفخمة تمر على مهل، والسيدات بأثوابهن اللامعة والمجوهرات البسيطة يتبادلن الأحاديث الهامسة، بينما صدى موسيقى الجاز يمتد من داخل فندق أتلانتيك الفخم نحو الشارع، وكأنه دعوة للغوص في عالمه.

في الداخل، كان الجو مختلفاً تماماً، رائحة السيجار الفاخر الممتزجة بالعطور الثقيلة تملأ الصالة الرئيسية. موسيقى الساكسفون تتهادى في الأرجاء كأنها همس مُتعب، تختلط بأصوات قرع الكؤوس الرقيقة والضحكات العالية.

في زاوية قريبة من النوافذ الواسعة المطلة على البحيرة، جلس جوناثان لورنس مرتدياً بدلة رمادية أنيقة، يعكس ضوء الثريا على شعره المصفف بعناية بالغة. أمامه جلس كونراد مان، الرجل الذي يصفه الجميع بأنه "صاحب القرار الذي لا يُقال عنه لا"، وكأن كلمته هي القدر.

كان كونراد يرتدي بدلة داكنة بثلاث قطع، ويضع على معصمه ساعة ذهبية باهتة اللمعان. وجهه جامد لا يحمل أي تعبير، وعيناه ثاقبتان لا تعترفان بالعبث أو العواطف. جلس متكئاً على المقعد وكأنه يراقب خصماً عنيداً، لا محاوراً يسعى للتمويل.

أما جوناثان، فكان يحمل في ملامحه توتراً خفيفاً يخفيه خلف ثقته الظاهرة. مدّ جسده قليلاً للأمام وقال وهو يبتسم بخفة مصطنعة:

– أتعلم يا سيد مان؟ البحر يشبه الإنسان كثيراً... لا يهدأ أبداً حتى يُعيد نفسه لما كان عليه من قوة وجبروت. وألمانيا الآن، بعد كل ما مرّ بها من هزائم، تحتاج إلى سفينة تعيدها إلى البحر، إلى مكانتها وقوتها القديمة.

ارتسمت ابتسامة باردة على وجه كونراد، وقال بصوت متزن خالٍ من المجاملة الرقيقة:

– هذا كلام شاعر، يا لورنس، لا مهندس أو رجل مال. لا تقل لي إنك جئت لبيعني حلماً قابلاً للغرق.

ضحك جوناثان بخفة وهو يرفع كأسه:

– ربما... لكن هناك أحلام لا تباع بالمال، بل تُبنى بالإرادة. وما أريده ليس مشروعاً عابراً. إنه مجد ألمانيا القادم. أريد بناء سفينة... بل قصراً يجر فوق البحر. شيئاً يجعل كل من في العالم ينظر إلينا بإعجاب عميق، ويقول: الألمان عادوا بقوة لا تُقهر.

أمال كونراد رأسه قليلاً، وقال وهو ينقر بأصابعه على الطاولة في إيقاع يدل على تفكير عميق:

– استمر في الإبهار، يا لورنس. يبدو أن في جعبتك شيئاً يستحق فعلاً أن يُسمع ويُناقش.

فتح جوناثان حقيبته الجلدية السوداء ببطء، وأخرج منها مجموعة أوراق زرقاء مطوية بعناية، وضعها على الطاولة بينهما. كانت خطوطها الهندسية دقيقة، متناغمة كأنها نُقشت على آلة موسيقية معقدة.

– هذه هي... كاب أركونا.

كرر كونراد الاسم بخفوت، متسائلاً عن مغزاه:

– كاب... أركونا؟

– نعم، يا سيد مان. ستكون جوهرة الأسطول الجديد لشركة هامبورغ زود، أريدها أن تكون الأسرع، الأضخم، والأفخم في تاريخنا الحديث. هي البديل عن كاب بولونيو القديمة، وستكون رمزاً جديداً لقوتنا البحرية التي لا تذبل. تخيّلها للحظة... طابق كامل للرقص، قاعة موسيقى، ملعب تنس، أجنحة ملكية لركاب الدرجة الأولى، وسرعة تبلغ عشرين عقدة بحرية! هذا شيء لم يره العالم من قبل،

وسيكون ملكاً لنا.

أطلق كونراد ضحكة خافتة، لم يُعرف إن كانت سخرية أم دهشة من هذا الطموح، ثم قال:

– الطموح جميل وخطير، لكن المال يا لورنس، المال هو الحقيقة الوحيدة. مشروع كهذا سيبتلع ميزانية صغيرة لدولة بأكملها. لماذا أستثمر في شيء قد يغرق قبل أن يُبحر كما فعلت التايتنك؟

رفع جوناثان نظره بثقة خالية من الشك وقال ببطء، وكأنه يلقي حكمة:

– لأنك لا تبحث عن ربح مالي عابر، بل عن إرث تاريخي خالد. هذه ليست سفينة تايتنك يا كونراد، بل إعلان بقاء أزلي. أنت وأنا سنعيد هيبة البحر لألمانيا، وسنُثبت للعالم أن العظمة لا تموت بالمعاهدات ولا بالهزائم.

أطرق كونراد برأسه للحظة، ثم التفت إلى النافذة، حيث كان الغروب قد تحول إلى أضواء ذهبية تلامس صفحة البحيرة، في مشهد يشبه الأمل.

همس:

– ربما أنت على حق... هذه البلاد بحاجة ماسة إلى رموز لا تنكسر، رموز ترفع الرأس.

ابتسم جوناثان ابتسامة نصر صغيرة داخلية، وقال بتأكيد:

– إذن، فلنبنِ الرمز معاً، يا سيد مان.

رفع كونراد كأسه وقال بابتسامة باهتة لا تصل لعينيه:

– أعتبر هذه المشروع وافقت عليه.

ضحك كونراد مان ضحكة عالية مفاجئة، اهتزت معها الكؤوس الصغيرة على الطاولة المجاورة، وجعلت رؤوس بعض الرجال والسيدات يلتفتن نحوهما باستغراب. رفع يده وقال بصوت مسموع للنادل:

– مبلغ كهذا يا لورنس؟ أنت لا تبني سفينة، أنت تبني قارة طائرة!

أحضر لنا زجاجة من نبيذ روت فاين بيرغَندر – الأجود في هذا المكان، بسرعة!

ابتسم جوناثان ابتسامة متوترة، تخفي خيبةً صغيرةً تحت هدوئه المتعمد.

أحسّ للحظة أنه فقد زمام الإقناع، وأن ضحكة كونراد الساخرة اخترقت كبرياءه كخنجر صغير.

مدّ يده إلى كأسه وحرّكه ببطء، بينما عيناه تتبعان حركة الزجاجة وهي تُفتح خلف البار. كان يكره الشعور بالعجز أمام المال، يكره فكرة أن يضحك عليه أحد... خصوصاً من يملك المال الذي يحتاجه.

عاد النادل حاملاً الزجاجة، صبّ النبيذ في الكؤوس بيد مرتجفة. كان الفتى صغيراً، لا يتجاوز الخامسة عشرة، شعره الأشقر منكوش قليلاً، بشرته شاحبة كمن لم يعرف الراحة يوماً. قميصه البالي لا يتناسب أبداً مع أجواء المكان اللامعة، لكن عينيه... كان فيهما بريق حاد، لا يليق بطفل نجول.

نظر إليه كونراد بدهشة، وقال بنبرة ساخرة ممزوجة بالاهتمام العابر:

– ما الذي تفعله هنا يا صغيري؟ ألا يوجد مدارس في هامبورغ لتلتحق بها؟

انخفضت نظرات الفتى إلى الأرض، أجاب بهدوء نجول، متجنباً النظر إليه:

– أعمل يا سيدي... يجب أن أعمل لكي أعيش.

لكن جوناثان لم يُحوِّل بصره عنه. كان يراقبه بعينين ساكنتين، كأنه يرى فيه شيئاً أعمق من مجرد نادل صغير، شيئاً يشبه الانعكاس القديم لشخصيته، أو ربما الجرح نفسه الذي لم يندمل. ابتسم بخفة، وقال بصوت منخفض أقرب للهمس المخيف:

– ما اسمك، يا فتى؟

اجابه الفتى بنبرة بالكاد حملته من الخجل:

– فالتر... سيدي.

صمت جوناثان لحظة، ثم قال ببطء شديد:

– الاسم الكامل.

– فالتر... فون هانسن.

كرر جوناثان الاسم ببطء كمن يتذوقه ويختبر تأثيره:

– فون هانسن... عائلة قديمة ذات هيبة؟

هزّ فالتر رأسه نفياً، وقال بمرارة نابعة من سنوات الفقد:

– كانوا... ثم انتهوا، يا سيدي. الحرب أخذت كل شيء مني.

في تلك اللحظة، تسللت إلى وجه جوناثان ابتسامة خافتة، لكنها لم تكن ودودة بل كانت ابتسامة اكتشاف. كانت ابتسامة رجلٍ التقط فكرةً لا يريد أن يضيعها.

قال بصوت هادئ للقاضي:

– سيد مان، أستأذنك لحظة.

أومأ كونراد بلا اهتمام، منشغلاً بتذوّق النبيذ الذي طلبه. نهض جوناثان من مكانه، وسار نحو طرف البار حيث يقف فالتر.

وقف أمامه، اقترب منه ببطء حتى صار صوته لا يُسمع إلا لهما، في لحظة خاصة بهما:

– كم عمرك يا فالتر؟

– خمس عشرة سنة، سيدي.

– وهل تعمل هنا منذ زمن طويل؟

– منذ عامين تقريباً... بعد أن مات أبي في البحر.

رمش جوناثان ببطء، ثم وضع يده على كتف الفتى. كانت يده باردة، لكنها ثابتة ومسيطرة.

قال بكلمات دافئة متناقضة مع بروده المعتاد، تزرع الغواية:

– أتعرف، يا فالتر؟ أنت لا تنتمي لهذا المكان الرخيص. هذه الطاولات، هذه الزجاجات، هذا البار... كلها ليست لك. أنت أذكى وأكثر جدارة من هذا بكثير.

تراجع الفتى نصف خطوة إلى الوراء، مدهوشاً من نبرته الغريبة، وسأل بارتباك:

– لماذا تقول هذا؟

ابتسم جوناثان ابتسامة غامضة وهادئة:

– لأنني أراك جيداً... وأعرف الوجوه التي خُلقت لتكون أكثر من خدمٍ يحملون كؤوساً للآخرين. لدي عمل الآن، مشروع ضخم جداً... وسأحتاج إلى يدٍ قوية وفية، لا تخاف، ولا تسأل كثيراً عن مصدر الأوامر.

بدت الحيرة الشديدة على ملامح فالتر، ثم قال بخفوت متلهف:

– هل تريد أن أعمل معك، سيدي؟

– بل أريدك أن تكون معي، يا فالتر. أن تصبح ظلي الحقيقي. من هذه اللحظة، كل ما تفعله، كل ما تسمعه، كل ما تراه، يخصني أنا فقط. لن تكون مجرد نادل بعد اليوم... ستكون عيني في كل مكان، وأذني في الظلام.

تردّد الفتى قليلاً، نظر إلى الأرض في صراع داخلي، ثم رفع رأسه وفي عينيه مزيج من الخوف والامتنان والحاجة الملحة. قال بصوت خافت يعكس نهاية المقاومة:

– سيدي... أنا لا أملك شيئاً لأخسره. لا عائلة، ولا بيت. إن كنت تعني ما تقول... فأنا لك.

في تلك اللحظة، لمعت في عيني جوناثان شرارة صغيرة، تشبه ابتسامة الشيطان حين يوقّع أول روحٍ على عقده الأزلي. مدّ يده ببطء وقال بتملك:

– هذا يكفي... الآن، أنت ملك لي يا فالتر.

صافحه الفتى بيده الصغيرة المرتجفة، بينما كانت موسيقى الجاز تعلو من خلفهما كأنها توقّع على اتفاقٍ لم يُكتب بالحبر، بل سُطر بالقدر.

وعندما عاد جوناثان إلى الطاولة، جلس أمام كونراد مجدداً وهو يقول بابتسامة هادئة ذات مغزى عميق:

– لقد وجدت أول استثماراتي اليوم، يا سيد مان... لكنه ليس من الذهب ولا من المال.

رفع كونراد حاجبيه مستغرباً، لكنه لم يسأل، فقد كان جوناثان نوعاً من الرجال لا تُطرح عليه الأسئلة.

أما فالتر، فقد وقف خلف البار، ينظر إلى الرجلين بصمتٍ غامض، دون أن يعلم أن تلك اللحظة البسيطة كانت بداية طريق طويل ومظلم سيغرق فيه البحر نفسه لاحقاً، وسيغرق فيه ضميره للأبد.

الفصل الثامن

المشنقة البيضاء

29 أكتوبر 1927

حوض بناء السفن بلوم أند فوس، هامبورغ

أصوات صفارات البواخر تتعالى من الأفق البعيد، تختلط بصخب المطارق وأزيز الرافعات في حوض بلوم أند فوس الضخم، حيث يقف عمال المصنع بملابسهم الملطّخة بالزيت والعرق، وقد تجمّعوا كمن يشهد ولادة كائنٍ أسطوري خرج من صلب الفولاذ. تقف كاب أركونا، العملاقة الجديدة التي سرقت أنفاس الجميع؛ سفينة طولها مئتان وخمسة أمتار وتسعة أعشار المتر، بلونها الأسود اللامع يمتد مثل ليلٍ أبدي فوق مياه الميناء، فيما يعلو هيكلها الأبيض الناصع في تباينٍ مهيب، تزينه ثلاث مداخن ضخمة مطلية بالقرمزي اللامع كأنها مشاعل مجد ألمانيّ جديد. تحت خط الماء يبرز طلاءها الأحمر الطوبيّ كجذرٍ ناريّ يمتد في الأعماق، يوحي بالقوة والسيطرة.

الشمس تلتقط أطراف المداخن الثلاث فتصير كأنها ألسنة لهبٍ تحرس مدينة هامبورغ. تجمّع العمال على الرصيف التاسع، بعضهم يصفّر بحماس صاخب، وبعضهم يلوّح بقبعاته فرحاً عفوياً.

أما المهندسون وموظفو الإدارة، فقد وقفوا على الجانب الآخر بملابسهم الأنيقة النظيفة، ووجوههم التي لم تمسها النار ولا العرق، يتبادلون النظرات المتغطرسة التي تفصلهم عن العمال.

وسطهم، وقف جوناثان لورنس، مرتدياً معطفاً رمادياً طويلاً، وربطة عنق داكنة تعكس ثقة المنتصر الذي لا يُقهر. عيناه تلمعان كمن يرى حلمه وقد تجسّد من فولاذ ونار وقدرة مطلقة. رفع ذراعيه وصاح بصوتٍ عالٍ قوي، يخترق ضوضاء الميناء:

— لقد فعلناها أيها السادة! هذه هي الملكة الجديدة للمحيطات! إرفعوا رؤوسكم!

انفجر الحشد بالتصفيق الهستيري، وراح جوناثان يصفق هو الآخر، ضاحكاً ومصفراً بحماسةٍ لا تشبه هدوءه المعتاد، كأنه يستمتع بلحظة الأبوة لهذه العملاقة.

اقترب منه كونراد مان، الممول العظيم ذو البدلة الداكنة والنظرة الحادة التي لا تخطئ الهدف، ووضع يده على كتف جوناثان بثقة وشراكة:

– أحسنت يا لورنس... لقد جعلت 'كاب أركونا' أعجوبة حقيقية، قطعة فنية من فولاذ وعقلٍ ألمانيّ خالص، تستحق كل مارك دُفع فيها.

ضحك جوناثان بخفوت، ورشف من كأس الشمبانيا الذي حمله إليه أحد الخدم بوقار:

– لا شيء مستحيل حين نملك الإصرار... إنها ليست مجرد سفينة يا سيدي، إنها إعلانُ ولادة جديدة لكرامة هذا البلد ورفعته بعد الهزيمة، وهي رهاننا على المستقبل.

بجانبهم، يقف فالتر فون هانسن صامتاً في ظل المشهد، يرتدي معطفاً بسيطاً ملوّثاً ببقايا الزيت من العمل. كان قد بلغ الثامنة عشرة، وجهه ما

زال يحمل شيئاً من براءة الصبي الذي التقطه جوناثان قبل سنوات، لكن عينيه الآن أعمق، كأنهما مرآتان من حديد وندم مستقبلي.

نظر إلى السفينة الهائلة، إلى جسدها المهيب الذي يلامس السماء، وتمتم بصوتٍ خافت يغلفه الإبهار:

– يا للروعة والضخامة... من كان يصدق أنني سأرى هذا اليوم وأكون جزءاً منه؟

اقترب منه جوناثان، فضربه على كتفه بقوةٍ ودودة، وقال مبتسماً بفخر وتملك:

– أتراها يا فالتر؟ كل هذا أنت كنتَ جزءاً لا يتجزأ منه. أنت لم تكن مجرد عامل، بل يدٌ حقيقية من أيدي هذا الإنجاز العظيم. لقد كنتَ عيني في ورشة العمل.

رفع فالتر نظره إليه، وابتسم ابتسامة صغيرة يغلفها شيء من الامتنان العميق، ثم قال بهدوءٍ شابٍ تعلم كيف يخفي ضعفه خلفه:

– كنتَ تقول لي دائماً إن العرق لا يُهدر، وها أنا أرى أنك كنت محقاً في كل شيء يا سيدي.

ضحك جوناثان بصوتٍ عالٍ وهو يربّت على كتفه مرة أخرى، يدعوه لمكانة أعلى:

– لا تقل "يا سيدي"، نحن الآن زملاء في هذا المجد الساطع يا فالتر!

ثم نظر إليه نظرة مليئة بالحماس الذي لا يهدأ، وأضاف بنبرةٍ حادة تحمل وعوداً ضخمة:

– وقد وصلتنا للتو دعوة رسمية وشخصية من شركة 'هامبورغ زود' لحضور الرحلة الأولى لكاب أركونا في التاسع عشر من نوفمبر... دعوة خاصة لك ولي، على متنها، بصفتنا ضيوف شرف!

اتسعت عينا فالتر بدهشةٍ صادقة، كأن قلبه لم يحتمل المفاجأة والترقية:

– أنا؟! على متنها؟! تقصد... سأكون معك أنا شخصياً؟

ضحك جوناثان، وهو يرفع كأسه نحو الأفق حيث تنعكس صورة السفينة في المياه الهادئة، مؤكداً على شراكتهما:

– بالطبع، أنت ستكون معي أينما أذهب. من اليوم، نحن لا ننظر إلى السفن من الخارج بعد الآن، بل نبحر بها ونحكمها من الداخل.

أحنى فالتر رأسه بخجلٍ خفيف، وابتسم بامتنان وهو يراقب انعكاس المداخن الثلاث على سطح الماء، في شعور طاغٍ بالانتصار.

ارتفعت أصوات الموسيقى الاحتفالية من خلف الرصيف، وعلا هدير الرافعات وهي ترفع آخر شحنة من المؤن إلى السفينة، فيما أخذت صفاراتها تدوي كقلبٍ عملاقٍ بدأ ينبض بالحياة. العمال صفقوا، النسوة لوّحن بمناشف بيضاء من بعيد، والسماء امتلأت بطيور النورس التي تدور فوق المداخن الثلاث في مشهد مهيب.

وفي تلك اللحظة، حين كان الجميع ينظر إلى السفينة بفخرٍ وانبهار، كان فالتر يحدّق فيها بنظرةٍ غريبة، فيها فرحٌ غامض، وخوفٌ لا يعرف له اسماً... كأنه يرى في ذلك الجسد الحديدي العملاق مستقبله كلّه — مجده... وعبوديته.

اهتزت الأرض تحت الأقدام، صفارات حادّة تقطع الهواء، والحبال السميكة تُفكّ ببطءٍ من أعمدة الرصيف فيما الرافعات تدور كأنها أذرع فولاذية تمهد للحظة المنتظرة. يتراجع العمال خطوة بعد أخرى، أصواتهم تختلط بصدى البحر، وصياح المشرفين يعلو:

— انتبهوا! واحد... اثنان... ثلاث!

تحرّر السفينة من قيودها كوحشٍ ضخمٍ يستيقظ من سباته، تنزلق بهدوءٍ ملكيّ نحو الماء، والأنظار كلها مشدودة إليها في صمتٍ مبهور. حين يلامس جسدها الفولاذي سطح البحر، يتصاعد رذاذ هائل يلمع تحت ضوء الغروب كأمطارٍ من ذهب، ثم تستقر السفينة في حضن الموج بثباتٍ مهيب.

الجموع تصفق، وبعضهم يصرخ بفرحٍ هستيريّ، بينما تتصاعد الأبواق البحرية في تناغمٍ يشبه النشيد الوطني المظفر. العمال يلوّحون بقبعاتهم، بعضهم يجهش بالبكاء من شدة الفخر بالإنجاز، وآخرون يرفعون أيديهم إلى السماء كأنهم يحيّون الإله الذي منحهم العظمة.

تتجه الأنظار نحو السفينة التي بدأت تتحرك ببطءٍ في الميناء، تتهادى فوق الماء بثقةٍ مطلقة. الشمس تنكسر على بدنها، واللون الأسود يشتعل ببريقٍ ذهبيّ، كأنها مخلوقة من نورٍ وحديد معاً.

فالتر يلتفت نحو جوناثان، يراه يرفع يده تحيةً لهذا الفخر الألماني الجديد، ملامحه مزيجٌ من الكبرياء المطلق والجنون الواثق. لحظةٌ مجيدة تلمع في الذاكرة — السفينة تستقر في الماء، المداخن تبخر أول أنفاسها، والسماء تتلون بأحمر المساء. الجموع تردّد الصيحات، والموسيقى العسكرية تبدأ بالعزف قرب الرصيف.

فوق الرصيف، يقف فالتر للحظةٍ أطول من الجميع، عيناه على السفينة التي تبتعد ببطء، وجهه ساكن لكن قلبه مضطرب، كأنه يشعر بأن هذا المجد الذي صنعاه معاً، يخفي تحته شيئاً أثقل من البحر نفسه، شيئًا سيكون ثمنه روحه.

الصفارات تصمت تدريجياً، والموج يعيد هدوءه، والسفينة تبتعد شيئاً فشيئاً في الأفق... حتى لا تبقى سوى صورتها — عملاقة، فاخرة،

وغامضة – تذوب في غروب هامبورغ، وتترك خلفها وعداً بالهيبة...

ووهماً بالعظمة الزائفة.

عام 1927 - الرحلة الأولى

19 نوفمبر 1927

الصباح الباكر يكسو الميناء بضباب خفيف، تتخلله أشعة الشمس الخافتة التي تعكس ذهبيتها على واجهات المباني القديمة والمياه الهادئة لنهر إلبه. الجو مليء برائحة الملح البحري ممزوجة بدخان قوارب النقل الصغيرة والروائح المعدنية للأرصفة، فيما يهتز الهواء بخفوت من أصوات التحميل والتفريغ. في وسط هذا النشاط، تقف كاب أركونا، ملكة الأطلسي الجنوبي، راسية بفخرٍ مهيب، تبدو كجوهرة نادرة بين قوارب الميناء. البدن الأسود اللامع يعكس الضوء بشكل يخطف الأبصار، والأجزاء العلوية البيضاء تتلألأ تحت الشمس، فيما المداخن الثلاثية البيضاء بحوافها القرمزية تلوح كرموز للهيبة والقوة.

الجسر الممتد بمرونة يربط السفينة بالرصيف، يتيح للركاب الوصول من الميناء مباشرة إلى فخامتها، بينما تُنقل البضائع بانتظام، والعمال يلوحون

للأقارب ويهتفون فرحًا بإنجاز العملاق البحري الجديد. الركاب من جميع الطبقات يبدون منبهرين، بعضهم يتوقف لالتقاط صور ذهنية لهيبة السفينة، والبعض الآخر يتحدث بصوت منخفض عن الفخامة التي تراها أعينهم للمرة الأولى.

يقف جوناثان لورنس مبتسمًا إلى جانب فالتر، وعيونه تتسع بدهشة وهو يتأمل العملاق البحري. قال جوناثان، وهو يصفق بيديه على صدره بحماس:

— هيا يا فالتر، لنركب هذا الجمال! العالم بأسره ينتظرنا في الداخل!

فالتر يبتلع أنفاسه، ويدخل خطوة خطوة على الجسر الممتد، كل حركة تثير في قلبه مزيجاً من الخوف والرهبة الممزوجة بالفخر. عند المدخل، يقف مراقب يبتسم للركاب ويأخذ التذاكر. عندما يسلم جوناثان تذكرتيهما للدرجة الأولى، أومأ المراقب لهما باحترام زائد:

— تفضلا، سيدي، نرحب بكما على متن الدرجة الأولى. نتمنى لكما رحلة سعيدة تليق بهذه الملكة.

داخل سفينة كاب أركونا - عالم من الترف

داخل السفينة، الديكور يخطف الأنفاس: الخشب الداكن المصقول يكسو الجدران، مع تطعيمات من النحاس والزجاج الملون، وثريات كريستالية ضخمة تتدلى من السقف العالي، تعكس الضوء على الأرضيات المصقولة. الممرات تتخللها سجادات حمراء فاخرة تمتص وقع الخطوات، والستائر المخملية الثقيلة تُضفي شعورًا بالدفء والفخامة المفرطة. فالتر يبتسم بدهشة غير مصدقة، كل شيء يبدو أوسع وأفخم مما تصوره، الدرجات الأنيقة تربط بين الطوابق، وكل زاوية تحمل تفصيلًا دقيقًا يظهر البراعة الهندسية الألمانية.

جوناثان يقود فالتر نحو غرفهم في الدرجة الأولى. الغرف واسعة وراقية، مع سريرين كبيرين، واحد له وواحد لفالتر، وطاولات جانبية مزينة بأدوات مكتبية صغيرة ومرايا فاخرة. فالتر يقترب من النافذة، ينظر إلى الماء وهو يلمع تحت الشمس.

– هذه الغرفة ستكون بيتنا لأيام الرحلة، يقول جوناثان بابتسامة تملك، ثم يضيف بجدية: وأعدك، فالتر، سنستكشف كل زاوية من هذه السفينة معًا، من القمة إلى الأعماق.

فالتر يبتسم له، شعور بالفخر والدهشة يتخلل كل حركة. يمسك بطرف السرير ويستدير لينظر حول الغرفة، ثم إلى الأفق حيث البحر الممتد بلا نهاية، وكأن السفينة بأكملها ترتاح في حضن المياه، جاهزة لتبدأ رحلتها التاريخية.

لحظة الإهانة والتحول

بعد دقائق، بدأت السفينة تشق مياه نهر إلبه ببطء وأناقة، بدت كملكة تتحرك بثقة على سطح البحر، الأمواج تتلاطم برفق على بدنها الأسود اللامع. الركاب على الأسطح العليا، يرتدون المعاطف الفاخرة والقبعات، يتأملون البحر الممتد.

داخل قاعة الطعام الكبرى للدرجة الأولى، الجو فخم جدًا، الجدران مزخرفة بالخشب الداكن المطلي، والثريات الكريستالية تتدلى من السقف العالي، تعكس الضوء الذهبي على الطاولات المغطاة بمفارش بيضاء نقية. جوناثان يجلس على طاولة كبيرة مع مجموعة من الأغنياء والمهمين، وفالتر يجلس إلى جانبه، يراقب كل شيء بعين مدهوشة. جوناثان يشرح بتفوق بعض التفاصيل الهندسية للسفينة، وفالتر يشعر بالفخر، ويضع الكؤوس بعناية على الطاولة.

تغدو قاعة الطعام الفاخرة مثل عالم آخر... أصوات الكريستال تتداخل مع موسيقى هادئة يعزفها رباعي من العازفين قرب الجدار. جلس جوناثان متكئًا على كرسيه المزخرف، مبتسمًا وهو يتحدث مع رجلين يرتديان بدلات رسمية وسيدة ذات عقد لؤلؤ.

رفع كأسه عاليًا، وقال بابتسامة فاخرة:

– إلى المجد الهندسي... وإلى "كاب أركونا"، الملكة التي ستعيد للألمان مكانتهم فوق الماء!

تناولت النادلة كأسًا من النبيذ الأحمر المعتّق ووضعته أمامه بخفة. كانت زجاجة النبيذ تحمل ختمًا فاخرًا، يعود لعام 1913. التفت جوناثان نحو فالتر الجالس بجانبه، وقال وهو يناوله الكأس بابتسامة شبه جادّة:

– اشرب يا فتى. هذا من أجود ما صنعته فرنسا قبل أن تسقط في الفوضى... لن ترى مثيله ما حييت.

تردد فالتر، نظر إلى الكأس ثم إلى عيني جوناثان. تنهد بصوت خافت وقال بارتباك:

– سيدي، لم أجرب... أعني، أنا لا أشرب عادة.

رفع جوناثان حاجبه باستخفاف وضحك بخفة باردة:

– لا تشرب؟! هذه ليست خمرة رخيصة من الميناء، يا فالتر. هذا طعم الرجال الأقوياء، طعم الحياة الراقية التي اخترتك لها. اشرب، ولا تخيب ظني بك أمام هؤلاء السادة.

أحنى فالتر رأسه بخجل ممزوج بالإذعان، وراح يدوّر الكأس ببطء بين أصابعه، يرى لمعان السائل الأحمر تحت الضوء، كأنه دم يتحرك في

الزجاج. في داخله شعور بالتوتر، بالخوف من الإهانة، من نظرات الحاضرين. رفع الكأس بيد مرتجفة، والنظرات كلها تتوجه نحوه. وضع الكأس على شفتيه ببطء... الرائحة كانت قوية ولاذعة. تجرّع رشفة صغيرة، وما إن ابتلعها حتى حرقت حلقه كالنار، دمعت عيناه، انقبض وجهه، ثم فجأة اختنق بالسعال العنيف.

وفي لحظة صمت قصيرة... تقيأ فالتر النبيذ على الأرض أمام الطاولة الفاخرة.

صوت الكراسي وهي تتحرك للخلف، وسيدة تصيح بخفة ذعر:

– يا إلهي! يا للبشاعة!

تجمد فالتر مكانه، وجهه احمرّ خجلاً وغضباً، قلبه ينبض بعنف. أمسك المنديل بسرعة ومسح فمه، صوته يرتعش وهو يقول:

– أنا آسف... آسف جدًا، لم أقصد الإساءة.

لكن جوناثان لم يتحرك ليساعده. بالعكس، ابتسم ابتسامة خافتة، فيها من القسوة والتملك ما يكفي لإحراق كل دفء في الغرفة. قال بصوت بارد حاد يسمعه الجميع بوضوح:

– يبدو أن صديقي الصغير لم يعتد بعد على طعم الأشياء الفاخرة... لا بأس، هو معتاد على مياه الحوض الملوثة، أليس كذلك يا فالتر؟

ضحك بعض الرجال بخفة مجاملة لاذعة، فيما خفضت السيدات وجوههن بإحراج مريع. كان فالتر يحدق في بقعة النبيذ على الأرض، الدم يغلي في صدره. شعر بالذل يمر في عروقه مثل السمّ البطيء. شعر بأن دموعه خانته، تساقطت على الأرض ببطء، تتلألأ تحت الضوء الذهبي للقاعة. قال بصوت مبحوح، وهو لا يرفع رأسه:

– سأذهب... فقط... إلى الحمام قليلاً، وأعود.

لم يجبه أحد. حتى جوناثان اكتفى بنظرة ضجر بارد، رشف من كأسه وقال للرجل الجالس بجانبه:

– لا بأس، دعه يتعلم. العالم لا يرحم من لا يعرف الطعم الحقيقي للترف، ومن لا يستطيع كبت ردود فعله أمام السادة.

الخروج إلى السطح - ولادة القسوة

وقف فالتر ببطء، ظهره محني قليلًا، تحاشى النظر لأي شخص، خرج من القاعة بخطوات ثقيلة، كأن كل ضحكة خلفه كانت طعنة.

دخل الحمام أخيرًا، وأغلق الباب خلفه. اندفع نحو الحوض يغسل وجهه بسرعة، لكن الماء البارد لم يطفئ نار الغصة التي تضغط على صدره.

انسكبت دموعه بغزارة في صمت، محاولاً بكل قوته ألا يصدر صوتًا. في الداخل شعور بالوحدة المرة، شعور بأن كل العالم يتحكم به، وأنه مجرد دمية في أيدي الآخرين.

رفع رأسه إلى المرآة، نظر إلى وجهه الشاحب، ثم قال لنفسه بصوت منخفض، حاد كالفولاذ:

– لست سلعة، لست مجرد شخص يمكن أن يتحكم به الآخرون... لن أكون كذلك بعد اليوم.

خرج فالتر من الحمام متجهًا نحو سطح السفينة، عاكسًا صورته على جدرانها المعدنية اللامعة. نسيم البحر الخفيف يداعب وجهه، حاملاً معه رائحة الملح والمياه المفتوحة، ويمنحه شعورًا غريبًا بالحرية لأول مرة في عمره. وقف على حافة الدرابزين، نظر إلى السفينة وهي تشق البحر بخطى ثابتة، والمداخن الثلاثة تقف شامخة كأنها ترمز إلى القوة.

تجول فالتر ببطء على السطح، يراقب الركاب وهم يستمتعون بالرحلة.

وصل إلى ملعب التنس الخلفي، حيث كان اللاعبون يضربون الكرات، ضحكاتهم تعلو فوق صوت الأمواج. وقف عند الزاوية يراقب المشهد، لكن الابتسامة لم تعد تظهر على شفتيه.

نظر إلى السفينة وهي تتوهج بالأضواء، وتشق طريقها بخفة وقوة في البحر، ثم همس لنفسه بصوتٍ بالكاد سمعه البحر:

— الآن عرفت... الضعف هو الطعم الحقيقي الذي لا يرحمه أحد.

واليوم، هذا الطعم انتهى.

شعر فالتر بأن قلبه يخف تدريجيًا من الألم القديم، ليحل محله صلابة وقسوة باردة. نظر إلى البحر الممتد أمامه، وأخذ خطوة للأمام، مستعدًا لمغامرات جديدة على متن السفينة العظيمة، وهو يعلم أن لحظة ولادة شخص جديد بداخله قد اكتملت، شخص لن يتقيأ أبداً أمام سادة العالم.

أواخر عام 1944

ميناء لوبيك، بحر البلطيق

البحر في تلك الليلة كان يشبه جسداً هائلاً ميتاً، مغطّى بالرماد والندم، لا يصرخ ولا يهدأ. الرياح تهبّ من جهة الشمال محمّلة بملحٍ بارد كطعنةٍ من حديد، بينما يقف هيكل "كاب أركونا" الراسية قرب الميناء الرمادي، سفينةً شاخت فجأة، كما لو أنّها نُزعت من مجدها القديم وسُجنت في زمنٍ لا يخصّها.

لم تعد السفينة الملكة البيضاء التي عرفها العالم، بل كياناً من معدنٍ مُرهق، مُغطّى بطبقة من الصدأ والطلاء الرمادي الباهت الذي ابتلع كل ألوان الفخامة القديمة. المداخن الثلاث تقف شامخةً، لكنها فقدت بريقها الأحمر القرمزي، واستبدلته بلونٍ كئيبٍ يشبه رماد الحرب. نوافذها العليا أُغلقت بألواح معدنية ثقيلة، والصالونات التي كانت تلمع بالثريات تحوّلت إلى مهاجع خشبية باردة للجنود، تملأها رائحة الزيت والرطوبة والعفن.

في الرصيف، يسير فالتر فون هانسن بخطواتٍ ثابتة ومحسوبة، يضع قفازيه الجلديين ويشدّ ياقة معطفه الداكن. عمره الآن ستةٌ وثلاثون عامًا، لكنه يبدو أكبر من ذلك بكثير. لم يعد ذلك الشاب الذي كتب ذات يوم في دفتره عن البحر والحلم؛ لقد صار جزءًا من آلةٍ لا تتوقف. هندسياً هو ناجح، إنسانياً ميت تقريباً.

يحمل أوراقاً مختومة بشعار "المفوضية الإمبراطورية للشحن البحري".

ملامحه تجاوزت الخمسين؛ تجاعيد التعب حفرت وجهه كما تحفر الموجة اليابسة شاطئاً منسيّاً. لم يبقَ من الصبيّ الذي كان ذات يوم يحدّق بانبهار في السفينة سوى نظرةٍ باردةٍ، خالية من الدهشة أو الخوف.

وقف عند مقدّمة السفينة، نظر إلى اسمها الموشوم على بدنها المعدني:

CAP ARCONA.

قرأها همساً كما يقرأ اسمَ ميتٍ محفور على شاهد قبر. ثم أخرج من جيبه دفتر ملاحظاته العسكري، وأشار بيده إلى فريق من العمّال والجنود الذين كانوا يُدخلون صناديق وأجهزة إلى العنابر السفلية. كان ذلك جزءاً من تحويلها الرسمي إلى سفينة إيواء للجنود تحت إشراف بحرية الحرب الألمانية، الـ كريغسمارين.وقبل أن يُكمل تفحّصه، سمع صوتاً أجشّاً مألوفاً خلفه:

– يا له من منظرٍ محزن، أليس كذلك؟

استدار ببطء، فرأى رجلاً متقدّم السنّ يقترب منه بخطواتٍ متثاقلة. جوناثان لورنس. شَعره الفضيّ المبعثر تحت قبّعةٍ عسكرية قديمة، ووجهه الشاحب الذي أكلته السنون، جعلاه يبدو أشبه بظلٍّ باهتٍ لما كان عليه في العشرينات. ومع ذلك، ظلّ يحمل في عينيه تلك الشرارة الصغيرة التي كانت تصنع منه وحشاً من الطموح المريض.قال فالتر وهو يحيّيه بتحيةٍ عسكريةٍ مقتضبة:

– سيدي، لم أتوقع رؤيتك هنا مجدداً. هل أتيت في مهمة؟

ضحك جوناثان بصوتٍ خافتٍ مبحوح:

– ولا أنا توقعت أن أراك ما زلتَ واقفاً على قدميك. يبدو أن البحر لم يبتلعك بعد، يا فالتر.

أجابه فالتر ببرودٍ، دون أن ينظر إليه مباشرة، في ردٍ قاسٍ:

– البحر يبتلع الحالمين يا سيدي، وأنا أتقنت فن النجاة عبر التوقف عن الحلم.

سارا معاً على طول الرصيف، والبردُ يلسع وجهيهما. توقّفا أمام السفينة، التي كانت أضواؤها الخافتة تتلألأ كجنازةٍ مهيبة.قال جوناثان وهو يضع يديه خلف ظهره:

– أتذكر، فالتر؟ هنا كنتَ تقف ذات صباحٍ من نوفمبر، تنظر إليها كأنها معجزة. الآن أصبحت مثل ألمانيا نفسها... مجدٌ قديم مغطى بالحديد والرماد.

لم يعلّق فالتر، فاكتفى جوناثان بزفرةٍ طويلة، ثم أكمل بصوتٍ أعمق:

– قبل عامين، جعلوها موقعاً لتصوير فيلم تايتانيك... يا للمفارقة. كنتُ هناك، رأيتُ كيف ملأوها بالممثلين والديكور المزيف. جعلوا الأغنياء الإنجليز يغرقون تحت الكاميرا بينما كانوا يضحكون في الكواليس.

ابتسم فالتر ابتسامةً باهتة لا تصل لروحه:

– إنها العدالة الشعرية، أليس كذلك؟ الفنّ دائماً يسبق المأساة الحقيقية.

توقّف جوناثان أمامه ونظر إليه بدقّة، كما لو كان يحاول أن يقرأ ما تبقى من الإنسان في وجهه الذي صار حجراً.

– أتعلم، فالتر... كنتُ أرى فيك شيئاً يشبه الأمل. صبيّاً صلباً لا يعرف الخداع. والآن أراك تتحدث مثل رجلٍ وُلِد من رماد الآلة التي كنا نكرهها.

رفع فالتر نظره نحوه ببطء، وبدت ملامحه كأنها من صخر قاسٍ:

– أنتم من صنع الآلة يا سيدي، وأنتم من علّمني كيف أعيش داخلها. كنتَ تقول لي يوماً إن البحر لا يرحم الضعفاء. وأنا لم أعد ضعيفاً. بل صرت ترساً قوياً في آلتكم.

صمت الاثنان في جو مكهرب. كانت الموجات تضرب بدن السفينة بعنف، وكأن البحر نفسه يحتجّ على هذا الحوار المأساوي.

في تلك اللحظة، صعد ضابط من الكريغسمارين يحمل رسالة مختصرة لفالتر. فتحها وقرأها بصوتٍ منخفض، ثم أعادها إلى جيبه:

— إنهم يريدون تقرير حالة المحرك قبل نهاية الشهر. لا نية لإصلاحه. سيتم استخدامهما في أي حال.

قالها ببرودٍ كامل، كأنه يتحدث عن شيء ميت سلفاً. قبل أن يضيف شيء، التفت جوناثان نحو فالتر وقال بصوتٍ منخفض جداً، وكأنه يخشى أن يسمعه البحر نفسه:

— لقد وصلتني تأكيدات جديدة... السفينة لن تعود لنقل أحد من المدنيين بعد اليوم، يا فالتر. لقد صدر القرار من الجهات العليا... ستكون للمساجين.

لم يتحرك فالتر في البداية. ظلّ واقفاً مكانه، والريح تدفع معطفه للخلف. نظر إلى الأفق الرمادي ثم إلى السفينة، كأنّه يحاول أن يفهم كيف انتهى بها المصير من سفينة أحلامٍ إلى قفصٍ من حديد.

قال بعد صمتٍ ثقيل، وقد ارتفع صوته قليلاً:

— للمساجين؟ على متن كاب أركونا؟ إنها سفينة ركّاب، ليست سجناً، ولا يُمكن تحويلها بهذه السرعة!

اقترب منه جوناثان، بنظرةٍ تجمع بين التعب والتحذير الجدي:

— احفظ صوتك يا فالتر. الأمر ليس بيدنا. القرار وُقِّع، والبحرية نُفّذ فيها ما أُمِرَت به. لقد جاءت التعليمات من كوفمان نفسه... وهو لا يراجع أحداً.

تراجع فالتر خطوة صغيرة، كأنه يزن كلماته في صراع داخلي أخير. قال بهدوءٍ مشوبٍ بشيءٍ من الغضب المكبوت والمحبط:

– لكن هذا خرقٌ لكل المواثيق يا سيدي، خرقٌ لقوانين البحر! هذه السفينة لم تُصمم لتُغلق منافذها بهذا الشكل. إنها مصيدة. إذا حدث أي شيء، لن ينجو أحد منهم أبداً.

ابتسم جوناثان ابتسامة قصيرة باهتة، وقال بصوتٍ مبحوح مخيف:

– ومن قال إن أحداً يجب أن ينجو؟

تجمد فالتر مكانه. شعر للحظة أن الريح توقفت والزمن تجمد. كان وجه جوناثان خالياً من أي مشاعر، لكنه قالها بثقة البيروقراطي الذي فقد إنسانيته منذ زمن بعيد.

أخفض فالتر رأسه قليلاً، ثم تمتم:

– أنت تتحدث عن بشر، يا سيدي. عن مئات الأرواح.

ردّ عليه ببطء، مبرراً جريمته:

– أنا أتحدث عن أوامر، يا فالتر. ونحن لسنا أكثر من تروسٍ صغيرة في ماكينةٍ ضخمة. هذه ليست حربك ولا حربِي، إنها آلة أكبر من كلينا. يجب أن نطيع.

رفع فالتر نظره نحوه وقال بصوتٍ خافتٍ لكنه حاد ومؤلم:

– وهل هذا ما تبقى من إيمانك بالبحر؟ كنتَ تقول دائماً إن البحر لا يقبل الظلم. كنتَ تراه عظيماً.

ضحك جوناثان ضحكة قصيرة باردة، وقال بكلمات تقطع الأمل:

– البحر؟ البحر لا يعرف الظلم ولا العدل. إنه يبتلع الجميع، الصالح والطالح، الغني والفقير. نحن الذين اخترعنا الأخلاق لنبرر أفعالنا ونحن على اليابسة. أما هنا، في الميناء، فلا مكان للأخلاق، فقط للأوامر والنجاة.

تراجع فالتر ببطء، عيناه تلمعان بانفعالٍ مكبوت. أراد أن يقول شيئاً، أن يعترض بشدة، أن يعلن رفضه لهذا التحول الكارثي، لكن الكلمات خانته.قال أخيرًا بصوتٍ منخفضٍ متردد، يختبر رد الفعل:

– وماذا لو رفضتُ التنفيذ؟

أجابه جوناثان ببرودٍ قاطع، ينهي كل مقاومة:

– لن ترفض، لأنك تعرف الثمن. لقد رأيتَ ما حدث للذين ترددوا قبلنا. هذه السفينة ستُغلق أبوابها على مئات الأرواح، سواء رضيتَ أم لم ترضَ. كل ما عليك أن تفعله هو التأكد من أن المحركات جاهزة، والهيكل مُحكم. نحن لسنا جلادين يا فالتر، نحن مهندسون. هذا ما أقنع نفسي به كل يوم.

سكت فالتر. ارتعشت أصابعه قليلاً وهو يضم الأوراق بين يديه. قال بهدوءٍ يشبه الهمس،

يحمل نذير النهاية:

– أحيانًا يكون المهندس أخطر من الجلاد، يا جوناثان... لأن الجلاد يقتل جسداً واحداً، أما نحن فنصمم ما يقتل المئات في ضربة واحدة.

لم يردّ جوناثان هذه المرة. اكتفى بالنظر إليه نظرة طويلة، فيها شيء من الحزن الميت والتعاطف البارد.

ثم قال بصوتٍ منخفض:

– لقد صنعتَ لنفسك اسماً، يا فالتر. لا تهدمه الآن. أطع، واكتب التقرير. لا تدع السفينة تسحبك إلى الأعماق معها.

استدار جوناثان مغادراً، خطاه بطيئة على أرض الميناء المبتلة.

أما فالتر، فبقي واقفاً، ينظر إلى السفينة الرمادية التي تهتزّ بخفة مع الموج، كأنها تسمع كل ما يُقال عنها. رفع بصره إلى مداخنها العالية، وتذكّر شكلها حين كانت بيضاء تُضيء البحر مثل قصرٍ عائم.

الآن أصبحت رمادية، مصابة بالصدأ، صامتة، مثل قلبه تماماً. مدّ يده ولمس الدرابزين البارد، وشعر أن الحديد نفسه فقد حرارته. بقي واقفاً

حتى غابت الشمس تماماً خلف الأفق، واختلط الدخان بالضباب. تلك اللحظة، رغم صمتها، كانت إعلاناً خفيّاً عن النهاية التي تقترب.

نهاية السفينة. ونهاية ما تبقّى من أي إحساس بالإنسانية في داخله...

الأمر الآن مجرد تنفيذ حرفي للأوامر.

أوائل فبراير 1945

كانت المداخن الثلاثة لـ"كاب أركونا" تقطع ذلك الضباب كأبراجٍ باهتةٍ، تُصدر صفيرًا خفيفًا يتآكل في الهواء البارد. السطح الخارجي الذي لم يعد يلمع بالنور الأبيض الذي عرفته السفينة في شبابها أصبح رماديًّا متآكلًا، الطلاء الحديث العسكري قد غطى قصورَها، والصدأ ينخر أطراف الصفائح كمرضٍ يستهلك لحم الهيكل. لم تعد رائحة العطور الفاخرة تملأ الممرات، الآن رائحة زيت الديزل وأدخنة المداخن تُمزج برائحة المعدن الحارق والبراغي القديمة.

على رصيف الميناء، بدأ كل شيء هادئًا بصورةٍ مُخيفة. المحركات البخارية التي كانت تُموج بالحياة قد أصبحت الآن رمادًا من القدرة: توربيناتها

الثمانية تُجاهد من غير جدوى، والسرعة التي كانت تُعدّ فخرَ الصفقة — عشرون عقدة — تحوّلت إلى وهمٍ لا يليق بحجم ذلك الهيكل. السفينة، التي صُنعت يوماً لتشق المحيط بفخر، تقف راسيةً كجسدٍ متعبٍ لا يقوى على الوقوف.

فالتر فون هانسن ينزل السلم المعدني بخطواتٍ منظمة، وجهه مُقفلٌ كما لو أن الزمن قد طحن فيه أي أثرٍ من الشغف الذي كان يملكه في الشاب ذي الثامنة عشرة. أربعة وثلاثون سنةً واثنان من القِسوة السياسية قد صاغت منه رجلًا عمليًا، صارمًا، يضع العقل فوق الضمير.

لكنه لا يزال يحملُ نظرةَ الفتى الذي رآه جوناثان ذات مرة؛ تلك النظرة ما صنعت منها الأيام إلا وعاءً فارغًا. كان عمره اليوم ستة وثلاثين عاماً، يعتمر قبعة خدمتية، وطبقات من التراب على حاشية المعطف العسكري. صعد إلى عنبر القيادة ببطء. القبطان يوهانس غردتس يجلس خلف مكتبه الصغير، يحدق في خريطة بحرية مبعثرة، قامته تميل قليلًا إلى الأمام كمن يحمل على ظهره حملاً لا يُحتمل. ملامحه المنهكة تُظهر خطوط

سنواتٍ من البحر، لكن في عينيه كان هناك شيء أقدم: رفض، أو ربما نعشٌ بداخله لم يُدفن بعد.

وقف فالتر أمام المكتب، نبرة صوته لا تعرف البهجة:

– قُمتُ بتفتيش العنابر السفلى. البضائع أُزيلت، الأرفف كلها فارغة. الأبواب الخشبية التي كانت تفصل نُقلت، والألواح الحاملة رتبت. فتحات التهوية أُغلقت بصفائح معدنية، والنوافذ الملاحية صُبّغت وأُحكم إغلاقها بحيث لا تُفتح. تم تركيب الأقفال الداخلية والعتلات المعدنية، وأجرينا اختبارات الضغط على الأبواب الحديدية. المخططات تُشير إلى قدرة وضعية لاستيعاب خمسة آلاف... أو أكثر.

تجمد القبطان لثوانٍ طويلة، كأنّ الكلام عن "خمسة آلاف" يزلزل الخريطة التي أمامه. تنهد بعمق، ثم بالكاد قال:

– خمسة آلاف...؟ صوته ارتجف بشدة: يا إلهي! أتعرف ماذا تعني هذه الأرقام، يا فالتر؟ هذه ليست أحصاءاتَ شحنٍ تُرسل إلى شركة. هذه أرواحٌ محكومٌ عليها! هذه سفينة ولدت للترف، ليس لتكون تابوتًا...

فالتر لم يرفع عينيه كثيرًا، لهجته حادة، مُتقنة العمل الإداري أكثر من أي شعور:

– الأوامر وصلت من المفوضية، والتقارير التنفيذية وُضعت. لدينا الحسابات: مساحات الفضاء، التهوية المؤقتة، جذوع الخشب لأرضيات العنابر تُثبت بالمسامير، نقاط ربط لتقييد الحركة إن لزم الأمر. التقنية جاهزة، يا سيدي. ما لم يتمّ فعلُه، فهو مجرد تعديل تشغيلي.

نظر غردتس إلى نافذةٍ صغيرة باتجاه البحر، يرفع يده بكفٍّ لرسم ما يشبه الحدود على الهواء، كأنه يحاول أن يبعد عن نفسه هذه الحقيقة الماثلة:

– التحكمُ تحت السيطرة؟ تأخذ الكلمات هنا معنىً آخر. أن يُحيِّد الإنسانَ عن ضميره باسم "التحكم" هل هذا يخفف شعورك؟ هل تلك الأقفال تُغسل يدك من أي عار؟

فالتر أشار بيدٍ بطيئةٍ، يوضّح ما اعتبره أمرًا عمليًا ضروريًا:

– أنا لا أمثّل السياسة هنا، يا قبطان. أنا أعني أن أنجز مهمتي. إن أُريدَ النظام أن يستخدم السفينة على هذا النحو، فدوري هو جعلها مُتينةً

ومحكمة. إذا رفض أحدنا، سيأتي الآخر لينفّذ بمزيد من برود. وفي هذه الظروف، البقاء حيًا في مركز القرار يتيح لنا على الأقل أن نفرّق بين التدبير والوحشية إلى حدٍّ ما. إما أن نُقلل الضرر، بشكل يضمن استمرارنا في العمل دون تفجير الضمير تماماً، وإما أن نغلق أعيننا فنُصبح أداةً بلا أثر وبلا رقابة على وحشية الآخرين.

التصريح جاء ببرودٍ باردٍ، لكن في عيني فالتر ارتعشت انعكاسة صغيرة؛ شيءٌ كمنادٍ، سحبته الذاكرة للخلف. لكنه أطفأ التردد كما يُطفئ منارةً تصدر ضوءًا يُعرّضه للخطر.

– التجهيزات الفنية؟ سأل غردتس بصوتٍ مُنخفضٍ، كأنه يتشبث بسؤالٍ أخيرٍ للحضور: ماذا عن المولدات؟ ماذا عن مخارج الطوارئ إن صارت الحاجات...

أجاب فالتر بواقعيةٍ حاسمة:

– المولدات الاحتياطية صُنعت للعمل المحدود. لقد أعدتُ مخارج الطوارئ بحيث يتم تحويلُها لخدمات عملية ضمن التهيئة الداخلية، لكن،

بصراحة، الكفاءة في حالة الطوارئ ليست على مستوى الالتزام الإنساني الذي تريده، بل هي على مستوى حماية البنية من أي تخريب أو فوضى. الزوايا القابلة للانزلاق والمسامير الخاصة بالعتبات تجعل الفتح من الداخل غير ممكن إلا بفكٍ خارجي. نظام التهوية مؤقت ومعدّ لمراقبة الدفق الهوائي في فترات زمنية محددة، لا شيء دائم. هذا ما طُلِب مني فنيًا.

سكت غردتس، ثم قال بصوتٍ ينفر منه كلّ الكلام الهش:

– أنتَ تصف قطعة معمارية. أنا أحاول أن أتصور بشرًا داخلها. لا أريد أن أتصبب عرقًا مخافةً على خط سيرٍ هندسيّ. هل تعتقد أنك تبرئ عقلك بقولك إنك "تقلل الضرر"؟

ابتسم فالتر ابتسامةً بلا دفءٍ، ورفض الدخول في دراما أخلاقية:

– لم أأتِ هنا لأناقش الأخلاق، يا قبطان. أنا هنا لأجعل البنية صالحة للاستخدام المطلوب. إن النظام أعطى تعليماته، وأنا أوفّي. سأجعلها صالحةً. هذا كل ما عليّ فعله.

غادر فالتر المقصورة قبل ان يتكلم غردتس، بعد أن نظر لآخر مرةٍ إلى الخريطة والبحر. ترك القبطان وحيدًا في صمته الذي اتسع، وخلفه ارتدَّ صدى الآلات، كأنه إعلانٌ عن زمنٍ يخلق الرجال آلاتٍ، والإنسان داخلهم يموت ببطء.

وفي الأيام التالية، ظلّ القبطان يوهانس غردتس وحده أمام الخريطة البحرية، يتحدث مع نفسه، يكرر كلماتٍ مثل "الشرف", "العار", "الهواء". وفي صباح العشرين من فبراير عام 1945، سُمع صوت طَلقةٍ واحدةٍ داخل السفينة.

هرع البحّارة إلى المقصورة، فوجدوه جالسًا على كرسيّه، رأسه مائلٌ إلى الخلف، وبيده مسدس الخدمة. على المكتب أمامه بقيت الخريطة

مفتوحة على خليج لوبيك، وبجانبها دفتر صغير كتب عليه بخطٍّ سريع:

"لقد خُنقتُ قبل أن يُخنقوا. لن أكون قبطان قبر."

سُجّل الحادث في التقارير الرسمية تحت بندٍ مقتضب: "القبطان يوهانس غردتس – وفاة ذاتية بسبب اضطرابٍ عصبيٍّ حاد، لا أثر لجريمة." وتم دفنه على عجلٍ. وبعد يومٍ واحدٍ فقط من موته، تسلّمت المفوضية ملفه الإداري مختومًا بختمٍ أحمر يحمل العبارة: "تم استبدال القيادة – المشروع مستمر."

بعد أيام قصيرة في نهاية فبراير

على السطح العلوي لكاب أركونا، وقف جوناثان متكئاً على السور الحديدي، ينظر إلى البحر. وجهه جامداً كالصخر، والبحر أمامه بدا ميتاً، ساكناً بلا روح.

اقترب فالتر بخطواتٍ مترددة، معطفه الطويل يرفرف بريحٍ مالحةٍ قاسية، وعيناه غائرتان من السهر. وقف خلف جوناثان بصمتٍ لبرهة، ثم قال بصوتٍ مبحوحٍ خافت:

– سيدي... هل نسيت؟

لم يلتفت جوناثان، فقط بقي ينظر إلى البحر. سأل فالتر بهدوءٍ ثقيل:

– هل نسيت ما قاله القبطان غردتس قبل أن يطلق النار؟ قال إنه لا يستطيع تحمّل تحويل هذه السفينة إلى سجن... وإن ضميره لن يحتمل يوماً أن يرى البحر شاهداً على جريمة كهذه.

التفت جوناثان أخيراً، نظراته جامدة، كأنها صُقلت بالثلج:

– اهدأ يا فالتر. أنت تعرف ما هو دورك هنا. تنفيذ الأوامر، لا أكثر. لقد وصلت برقية من المفوضية صباح أمس: (يُستدعى كامل طاقم السفينة لتجهيزها لاستقبال الفئة الخاصة من الأسرى). وهذا يعني أننا ننفذ قرار الدولة، لا أهواءنا الشخصية.

قال فالتر بحنقٍ خافت:

– قرار الدولة؟ أم قرار الجنون؟ غردتس مات لأنه فهم ما سيحدث. ونحن الآن نغسل آثار دمه من الأرض ونتابع العمل كأن شيئاً لم يكن! هل أصبحنا آلات يا سيدي؟!

تقدّم جوناثان نحوه بخطوتين باردتين، ونظر له بصرامةٍ عسكريةٍ باردة:

– آلات؟ لا، بل جنود. أنتَ وأنا نؤمن بالواجب. القبطان كان شاعراً في زمنٍ لا يقبل الشعراء. لقد اختار الضعف. ونحن لا نستطيع ذلك. نحن نُبقي هذه السفينة واقفة حتى النهاية. أوامر القيادة العليا واضحة: تجهيز العنابر للسجناء، غلق جميع الفتحات، منع الوصول إلى سطح

السفينة إلا للحراسة. وبعد ذلك، تُسلَّم الأوامر الجديدة. لا أحد منّا مخوّل بالمناقشة.

صمت فالتر لحظة، نظراته تتحرك بين وجه جوناثان والبحر، ثم قال ببطءٍ غاضبٍ:

— سيدي، هل حقاً ما زلت تؤمن أن الطاعة تُبقي الإنسان حيّاً؟ أم أنها فقط تُبقي الجسد واقفاً؟

هنا التفت جوناثان نحوه فجأةً، نبرته ارتفعت لأول مرة:

— من قدّمك إلى هذا المكان؟ من جعلك رجلاً ذا وظيفةٍ وراتبٍ واسمٍ يُذكر؟ أنا من اختارك من الشوارع عندما كنتَ طفلاً في الحانات يقدم الخمر!

اقترب أكثر، صوته كالسوط:

— من أدخلك إلى المدرسة التقنية؟ من جعلك تلبس هذا الزي وتُوقّع على التقارير بختم رسمي؟ أنا فعلت! ومنذ ذلك اليوم وأنتَ تُعيد ذات

الجملة، ذات الشك، ذات السؤال! كلّ يوم تفتح الحديث ذاته، وكأنك لا تبحث عن النظام، بل عن رضاي أنا!

ارتبك فالتر للحظة، ثم نظر له بنظرةٍ جامدةٍ كأنها خرجت من بئرٍ مظلم:

– رضاك؟ قالها ببطءٍ غريبٍ، كأنه يتذوّق الكلمة لأول مرة. ثم أضاف بمرارةٍ حادةٍ: لمَ قد أطلب رضى أحدٍ في هذا العالم المدمّر؟

اقترب جوناثان حتى صار بينهما ذراعٌ فقط. وجهه قاسٍ، عيناه تتسعان كأنهما تتوهجان بغضبٍ بارد. مدّ يده ووضعها على كتف فالتر، وضغط بقوةٍ متعمّدة، وقال بصوتٍ متهدّجٍ من الغيظ:

– انسيت؟ كنتَ لقيطاً... وأنا من أوَيْتك. كنتَ لا شيء. لا أحد يذكرك. لولا يدي، لكنتَ الآن في الشوارع تمسح النوافذ للجنود.

ارتجف فالتر، ليس خوفاً، بل من شيءٍ آخر... شيءٍ يشبه انفجار صامت في صدره. تراجع نصف خطوة، نظر إلى البحر ثم إلى يد جوناثان على كتفه، ثم قال بصوتٍ خافتٍ لكنه مملوءٌ بالعاصفة:

– لولاك... نعم، ربما. لكنك لم تأوِني، سيدي... أنت فقط نقلتني من الشارع إلى قفصٍ أكبر.

لم يتحرك جوناثان. ظلّ ينظر إليه بدهشةٍ باردة، ثم قال بنبرةٍ قاسيةٍ:

– أغلق فمك، يا فالتر! احذر نغمة التمرد! أنا من خلقك من العدم!

ابتسم فالتر ابتسامةً صغيرةً، غريبة، بلا فرح، وقال:

– لم أعد أعرف الفرق بين التمرد والطبيعة البشرية.

الريح اشتدت. أحد الأبواب المعدنية ارتطم بجدار السفينة فأصدر صوتاً عالياً. الطيور ارتفعت من سطح الميناء مذعورة. أقترب جوناثان خطوةً نحو فالتر، مدّ يده فجأةً وصفعه بقوة. صفعةً واحدةً فقط، لكنها كانت كافيةً لتدوّي كالرصاصة في فضاء السطح الفارغ.

تجمّد الزمن. الريح توقفت. والبحر صمت.

ظلّ فالتر واقفاً، جسده يتصلّب كالقبر. رفع يده ببطءٍ شديد، يتحسس أثر الكف على خده. حرارته كانت تلسع جلده، لكن ما كان يحرقه لم

يكن الألم الجسدي، بل الذكرى التي اندفعت من عمقٍ غامضٍ في ذاكرته. الورشة القديمة. السخرية. الرائحة المعدنية في يديه. كلّ شيءٍ عاد دفعةً واحدة.

فتح عينيه ببطء، والهواء صار أثقل مما يحتمل. وجوناثان استدار عنه، يهمّ بالمغادرة، صوته منخفض:

– تجاوزتَ الحد، يا فالتر. لا أريد أن أراك الآن.

خطا خطوتين باتجاه السلالم. حينها، كأن صاعقةً عبرت جسد فالتر. شيءٌ ما انكسر تماماً في داخله، دون صوت، لكن صداه ملأ السفينة. شعر بأن العالم صار ضيقاً جداً، وأن أنفاسه لا تكفي.

التفت حوله بسرعةٍ مشوشة، رأى إلى جانبه مطرقة راسية من أدوات الصيانة، طويلة، ملطخة بالزيت والصدأ. أمسكها بيده دون وعيٍ، قبضته ترتجف، ثم التفت نحو جوناثان، الذي كان قد بدأ بالنزول على الدرج المعدني.

اللحظة التي تلت كانت صاعقةً: رفع فالتر المطرقة وضربه على ظهر جوناثان بكل ما تبقّى فيه من عمرٍ وغضبٍ ودمٍ مكبوت.

صرخ جوناثان بصوتٍ عالٍ، التوى جسده للأمام، سقط على الركبة الأولى. التفت بذهول، صرخ بصوتٍ خشنٍ متقطع:

— كيف تجرؤ... على فعل هذا... بسيدك؟!! هل جننتَ يا فالتر؟!!

لكن فالتر لم يسمع. كلّ ما كان يسمعه هو صدى صرخاته القديمة، أوامر، صفعات، تهديدات، وابتسامات باردة كانت تحاصره لسنين.

رفع الأداة مرةً ثانية، وضرب. ثم ثالثة. ثم رابعة. كان يبكي وهو يضرب، يبكي بصمتٍ رهيبٍ، والدموع تمتزج بالعرق والزيت، يضرب كمن ينتقم من عشرين عاماً من الذلّ، من كلّ يدٍ جعلته طيفاً بلا حياة.

وجوناثان حاول أن يصرخ، لكن صوته انكتم. تراجع على الأرض المعدنية، والدم يسيل من كتفه، وفالتر يواصل الضرب، عيناه مفتوحتان بلا وعي، يهمس بصوتٍ متقطعٍ ممزّقٍ:

— دمرتَ مراهقتي... وشبابي... وكل شيء...

ضربة.

– جعلتني آلة...

ضربة.

– جعلتني وحشاً مثلك...

ضربة.

– كنتُ أريد أن أبني الجسور... لا القبور...

ثم فجأة توقف. الأداة سقطت من يده. السطح امتلأ بصدى أنفاسه اللاهثة. سقط فالتر على ركبتيه، يلهث، يداه ترتجفان، عيناه فارغتان. جوناثان ممدد على الأرض، وجهه نصفه مغطى بالدم، عينيه مفتوحتان على اتساعهما، ينظر إليه بدهشةٍ لم يُعرف إن كانت غضباً أم شفقةً متأخرة.

قال فالتر بصوتٍ متحشرجٍ، بالكاد يُسمع:

– أنا لم أرد... أن أكون هكذا.

ثم سقط إلى الأمام، متكئاً على ذراعيه، جسده كله يرتجف، كأن السفينة تهتزّ معه.

ظلّ المطر الخفيف ينزل على سطح "كاب أركونا". كان فالتر جالساً على الأرض، ظهره مسندٌ إلى الجدار المعدني، يلهث، وبجانبه جسد جوناثان شبه المغمى عليه.

ببطءٍ شديد، رفع فالتر رأسه، نظر إلى البحر، ثم إلى الرافعة الراسية الملقية بجانبه. همس لنفسه، صوته مشروخ، متردد:

– لم يمت...

ثم بعد صمتٍ قصيرٍ، تابع بصوتٍ أبرد:

– إذن... سيبقى هنا.

قام واقفاً ببطءٍ، جسده يرتجف من الإرهاق، عيناه متصلبتان. سحب حبلًا من أحد صناديق الصيانة، لفّه بإحكامٍ حول ذراعي جوناثان ثم

حول معصميه، عقد العقدة بعنايةٍ هندسية دقيقة. رفع رأسه، ينظر إلى وجهه للحظة، وقال ببرودٍ مُخيفٍ:

– ستبقى تحت الحراسة. أنت لم تعد سيدي، يا جوناثان.

القفص المتبادل

في الأيام التالية تغيّر كل شيء... بدأت الأوامر الجديدة: "ابدأوا بتحميل السجناء من معسكرات نويينغامه إلى السفن فوراً."

فالتر كان يشرف على كل شيء بوجهٍ جامد، عيناه زجاجيتان. لم يعد يتحدث مع أحد، لا يأكل، لا ينام.

وفي ركنٍ مظلمٍ من العنبر السفلي، وراء بابٍ معدنيٍ صغيرٍ لا يعرفه أحد غيره، كان جوناثان مقيداً. جلس فالتر أمامه للحظةٍ، في المرة الأخيرة التي رآه فيها قبل أن يبدأ تحميل السجناء.

قال له بصوتٍ باردٍ لا حياة فيه:

– كنتَ تقول إنني لست سوى تلميذك، وأنني لقيطٌ لا يعرف الانضباط. رفع عينيه ببطءٍ، نظرةً ثقيلة كأنها تخرج من جثةٍ تتكلم: الآن أنت التلميذ... وأنا المعلم.

ثم أضاف هامساً:

– أنت ستبقى هنا، معهم. في قفصك الذي صممته بنفسك.

لم يصرخ جوناثان، لم يتكلم. أغلق الباب الحديدي بإحكامٍ، أدار العتلة المعدنية، سمع صوت الأقفال وهي تشتبك كأنها تصفق على ماضٍ كاملٍ يُدفن. ثم وقف للحظةٍ خارج العنبر، يضع يده على الباب، وهمس لنفسه:

– لا مزيد من الأسياد... لا مزيد من الأوامر... انتهى كل شيء.

ومع المساء، حين اكتمل تحميل أكثر من خمسة آلاف سجين، وبدأت الأبواب الحديدية تُغلق واحداً تلو الآخر، لم ينتبه أحد لذلك الباب الصغير في أقصى العنبر الثالث... الباب الذي كان خلفه، في الظلام،

جوناثان مقيداً إلى الحائط، يسمع أصوات التنفس الجماعي، وصدى الماء في الأسفل، ورنين خطوات فالتر وهي تبتعد.

كانت تلك اللحظة التي تحوّل فيها البحر إلى قبرٍ ضخمٍ، وفالتر تحول إلى ظلٍ لا يمكن تبريره بعد الآن. خارج العنبر، كانت الموجات ترتطم بجدار الحديد كنبضٍ متعبٍ يحاول النجاة، وفي الأعلى، أضاء البرق وجه فالتر للحظةٍ وهو يقف عند السور، عيناه لا ترى البحر بل ترى عشرين عاماً تنزف أمامه.

أدار ظهره، وسار ببطءٍ نحو العتمة، وفي الأسفل، كان صدى صرخةٍ مكتومةٍ يُخنق داخل الحديد، كأن السفينة نفسها بدأت تبتلع سرّها...

الفصل التاسع

ألف ليلةٍ من العار

قاعة محكمة كيوريوهاوس، هامبورغ

العودة للشهادة

القاعة أصبحت غارقة في صمتٍ ثقيل بعد أن انتهى فالتر من روايته.

بعض الناجين لم يتمالكوا دموعهم، وآخرون تجمدوا في مقاعدهم، يحدقون في الأرض كما لو كانوا يحاولون هضم كل لحظة رعب عاشوها مرة أخرى. كيت في المقعد الأمامي، عيونها متسعة، يداها ترتجفان، ووجهها شاحب كلوح الجليد، وكل صورة والدها وأفعاله تتقاطع في ذهنها مع ما سمعته من فالتر.انطلقت بعض الأصوات المكتومة:

– هذا لن يبرر عذابنا!

– لن يبرر ما حدث لنا!

آخرون بدأوا يصرخون، بعضهم يلوّحون بأيديهم في الهواء، بعضهم يغطون وجوههم، وبعضهم صاروا صامتين، لكن نظراتهم كانت تشي بالغضب

والصدمة معًا. فالتر رفع رأسه، لم يظهر دمعة، لكنه شعر بثقل كل تلك الأرواح على صدره. صمت لحظة، ثم بالكاد همس:

– أعتذر عن ما تسببت به من أذى... أعتذر عن كل قفل وضعته. كل ما فعلته كان فوق إرادتي، غصب عني... لكن ذلك لا يعفيني. كل تنفس، كل أنين من الخلف، كان جزءًا من الحقيقة التي لا يمكن محوها. بعض الناجين انهاروا، وجوههم في راحة أيديهم، بعضهم اكتفى بالصمت الحاد، وبعضهم لم يتمالك نفسه وصرخ:

– أين كان ضميرك؟ أين كان ضميرك عندما أغلقت الأبواب؟!

فالتر انخفض رأسه أكثر، كأن كل الوزن المادي للصندوق الحديدي الذي صنعه لعذابهم قد حُمل على قلبه. ثم أضاف بصوت خافت، يتكلم أكثر لنفسه:

– كل شيء بدا منذ عام 1924 حتى الآن... كانت سلسلة لا تنكسر. واحد وعشرون سنة من الطاعة العمياء، سنوات من الخوف القابع في العظام... سنوات من القوة المفقودة... فقدتُ نفسي مع كلِّ أمرٍ نفذتُه.

بعض الحاضرين بدأوا يهمهمون، كأنهم يحاولون استيعاب مدى الصراع الداخلي لهذا الرجل، لكن الغضب لم يهدأ، بل ازداد.

– كل هذا الكلام... كل الاعتذارات... هل يردّ الأرواح؟!

– أطفالنا... آباؤنا... هل هذا يبرّر موتهم؟

فالتر وقف صامتًا، جسده متصلب، عينيه ترقب الحاضرين دون أن يظهر أي تردد، فقط التبلد الذي عاشه طوال عقود، لكنه داخلياً كان يحترق. ثم قال بصوت منخفض، لكنه ثابت، لكل الحاضرين:

– أنا جزء من هذه المأساة... جزء تقني، نعم... لكن كل سطر، كل قفل، كل باب... كان بين يديّ... ولم أستطع... لم أستطع أن أمنعها... هذا هو عاري.

القاعة ارتجت مرة أخرى، الصمت والهمهمات، وبضع أصوات بدأت بالبكاء الصامت، آخرون كانوا يحاولون السيطرة على أنفسهم، والغضب امتزج بالحزن.

القاضي هانس غروبر رفع رأسه، ينظر مباشرة إلى فالتر، وكأن نظره تبحث عن أي أثر للندم، لأي انعكاس إنساني يمكن أن يوازن بين التقنية والدمار.

– لقد أدركت المحكمة مسؤوليتك التقنية الكاملة، يا سيد فون هانسن...

قال القاضي، صوته منخفض لكنه حازم: شهادتك ستؤخذ بعين الاعتبار، لكنها لا تنسخ أفعالك. اجلس.

فالتر لم يرد، بل جلس بهدوء، يضغط على يديه، كل عضلة في جسده متوترة، وكل شيء داخله صامت ومشتعل في نفس الوقت.

القاعة صمتت للحظة، تتنفس ثقيلة. الكل يلتفت نحو كيت، التي جلست منحنية قليلاً، عيناها شاخصتان في الأرض، ويداها ترتجفان على ركبتيها. أضاف القاضي مرة أخرى بصوت هادئ لكنه صارم:

– آنسة كيت، هل سمعتِ أفعال والدك... وما فعل؟

ارتفعت همهمات خافتة بين الحضور، وظهرت بعض النظرات الموجهة نحوها، نظرات تتراوح بين التساؤل، الاحتقار، والغضب المكبوت.وقف أحد الناجين من الصفوف الخلفية، صوته غاضب متقطع:

– كيف تسمحين لنفسكِ أن تكوني بيننا وأنتِ ابنته؟! ألا تشعرين بالعار؟

كيت رفعت عينيها للحظة، ثم أعادت النظر للأسفل، دموعها تتساقط بصمت. فالتر جلس على مقعده، جسده متيبس، عينيه جامدة.نظر فالتر إليها بصوت خافتٍ، محايدٍ في نبرته لكنه عميق في معناه، وقال:

– لا بأس... ليس خطأكِ. الخطأ والعار... لا يمكن أن يتوارثا.

كانت الجملة بسيطة، لكنها سقطت في القاعة كحجرٍ في بحرٍ راكد. ساد صمتٌ لثانية، ثم انطلقت الهمهمات، أولًا خافتة، ثم اشتدت شيئًا فشيئًا.صوت امرأة من الخلف قال بحدةٍ مرتجفة:

– لكنها ابنته! ابنة القاتل!

رجل آخر صاح:

– هي تحمل اسمه! ألم تروا ما فعله؟! كيف نستمع إليها وكأنها واحدة منا؟!

تعالت الأصوات. البعض يصرخ، البعض يبكي، آخرون يحدّقون فيها بنظراتٍ مليئةٍ بالاحتقار والخوف والغضب المكبوت منذ الحرب.القاضي ضرب مطرقته بقوةٍ على الطاولة:

– النظام! النظام في القاعة! ساضطر لإخراج الجميع إن لم تتحلوا بالهدوء!

لكن الأصوات لم تهدأ، بل ازدادت. بعضهم قال:

– هي ابنة السفاح!

– كل ما حدث بسبب والدها!

– هي تحمل دمه في عروقها!

انكمشت كيت في مقعدها، يداها ترتجفان بشدة. لم تعد قادرة على التنفس بشكلٍ طبيعي، العرق البارد يسيل على جبينها، ثم رفعت رأسها فجأة، عيناها حمراوان كأنهما تنزفان دمًا بدل الدموع، وقالت بصوتٍ مرتجفٍ مبحوحٍ يخرج من حنجرةٍ محطّمة:

– ما ذنبي أنا؟!

وقفت بسرعة، الكرسي ارتطم بالأرض بصوتٍ أجوف، ثم ركضت خارج القاعة. دموعها كانت تسابق خطواتها، والهواء البارد في الممر ضرب وجهها، لكنها لم تتوقف. في داخلها كان كل شيء يتكسر: "هل هذه أنا؟ هل هذا ما أنا عليه؟ هل كان أبي قاتلاً؟ هل كل الذين ماتوا، كل الذين احترقوا، كل الذين غرقوا... ماتوا بسببه؟ ماركو... لقد ضحى لأجلي، وأنا ابنة من تسبّب في موته!"

وراءها ساد ذهول في القاعة. القاضي وقف مذهولًا، المطرقَة ما زالت في يده، لم يستطع قول شيء. بعض الناجين نهضوا بعنف، آخرون تبعوا كيت خارج القاعة وهم يصرخون:

– لن تهربي من دماء والدك! هذا الاسم مطعونٌ في قلبه بالعار!

– أنتِ تحملين دمه وعاره! أنتِ مثلُه!

خرجوا إلى الشارع يلحقوها وهم يصرخون تحت المطر. السماء انفتحت كأنها تبكي هي الأخرى. المطر يهطل بغزارة، يختلط بدموعها وهي تركض في الشارع الرئيسي لهامبورغ. تبكي بصوتٍ عالٍ وهي تركض:

– ما ذنبي أنا؟ لماذا فعل هذا بي؟ لماذا جعلني أعيش بحمله؟!

كانت خطواتها متعثرة. انزلقت قدمها فجأة بسبب الوحل، التوت كاحلها بعنف، صرخت بألمٍ حادٍّ وسقطت على الأرض. المطر غطّى وجهها وشعرها ومعطفها الرمادي، جسدها يرتجف، وقدمها اليسرى ترتعش من الألم.

رفعت رأسها بصعوبة، ورأت مجموعة من الناجين يقفون على بعد أمتار، بعضهم يصرخ، وبعضهم فقط ينظر إليها بصمتٍ قاتل. أحدهم صاح من بعيد:

– أنتِ لا تستحقين العيش!

أغمضت عينيها بقوة، ودموعها تختلط بماء المطر. همست بصوتٍ خافتٍ متقطعٍ بالكاد يُسمع:

– أنا لست هو... أنا لست هو...

حاولت أن تنهض، كل جسدها يرتجف. نظرات الناجين تتبعها من على الرصيف، بعضهم يصرخون:

– انتبهي! انتبهي!

من بعيد، ظهرت شاحنة كبيرة، أضواؤها قوية، قادمة بسرعة على الشارع المبلل. كيت لم تنتبه إليها بسبب المطر، لم تعد ترى إلا انعكاسات الضوء على الأرض، وتجاهلت كل التحذيرات.

الناجون يصرخون بصوت واحد، مكتوم من غزارة المطر:

– توقفي! انتبهي!

لكن قبل أن تستطيع فهم أي شيء، ارتفع صوت زئير الشاحنة فجأة، يقطع الليل والمطر، يحفر في صدور الحاضرين، تحذير قاتل لا يمكن تجاهله. كيت رفعت رأسها للحظة، أدركت الخطر، لكن الوقت لم يكن كافيًا. ثم حدث ما لا يمكن تصوره... انفجارُ الألم، لا صوتٌ للارتطام. الصوت لم يُسمع بوضوح بسبب المطر الغزير، لكن هدوء الناجين المتجمّدين بعده كان أعظم رعبًا من أي صراخ يمكن تخيّله. كل شيء توقف للحظة، العالم صامت، إلا من رعد يعلو فوقهم.

تطاير الدماء في المكان، عالقة بالمطر والليل. يد خنصرها مقطوعة على الأرض، رجلها ممددة بعنف حتى الحوض، رأسها ينفتح وتخرج منه الدماء بسرعة، كل شيء أصبح مشهدًا من الرعب الصافي. على الأرض بجانبها، انقطعت قلادة كانت حول رقبتها، وسقطت ورقة صغيرة ممزقة. رفعت يدها التي لم تعد قادرة على الحركة، حاولت الإمساك بها، كان كل شيء ثقيلًا ومليئًا بالدم.

على الورقة، رسالة قصيرة، بخط والدتها ماري، كلماتها الأخيرة:

"كيت... ابقِ قوية... أنا دائمًا معك..."

آخر ما رأته كان لقطات متقطعة من الماضي الذي علق بها: ماركو وهو يسقط، طلقة تصيب رأسه وهو يحاول دفعها بعيدًا عن الخطر، صرخة ألم لا تنتهي، وجوه إليزابيث ووالدتها، قارب النجاة ينفجر،

الألسنة القبل أن تزهد روحها، سمع صوتًا خافتًا من ماركو، كما لو كان يعبر الزمن نفسه:

– تعالي لنا... نحن ننتظركِ هنا...

عاجل / حادث مأساوي في شارع هامبورغ الرئيسي!

في 29 أغسطس 1945، تعرضت الشابة كيت لورنس، ابنة جوناثان لورنس، المسؤول عن الكارثة البحرية الشهيرة لسفينة "كاب أركونا"، لحادث مأساوي في شارع هامبورغ الرئيسي أثناء هطول أمطار غزيرة. ووفقًا لشهود العيان، كانت كيت تركض وسط حشود الناجين الغاضبين، في أعقاب جلسات محاكمات جرائم الحرب، عندما انزلقت على الأرض المبتلة ودهستها شاحنة قادمة بسرعة.

تم نقل الجثمان على الفور إلى المستشفى المركزي في هامبورغ، حيث أعلن الأطباء وفاتها فورًا بسبب الإصابات الخطيرة التي لحقت بها. وبحسب تقرير الشرطة، لم يكن للحادث أي دوافع جنائية، لكنه أُدرج ضمن الحوادث المؤسفة التي صدمت المدينة بأكملها وأعادت فتح جراح المأساة القديمة.

يُذكر أن المحكمة كانت قد أصدرت حكمها النهائي بعد ساعات قليلة من وقوع الحادث، حيث قُضِيَ بالإعدام على أغلب الحراس الذين أطلقوا النار على الضحايا، وحُكم على القبطان بالسجن لمدة 16 عامًا. أما فالتر فون هانسن، الذي اعترفت المحكمة بتَبَلُّدِه التقني، فقد تم تحويله إلى مصحةٍ للعلاج النفسي والدعم العاطفي، وهو حكمٌ يضمن له عيش ما تبقّى من حياته مثقلاً بعبء العار والذنب الذي لا يمكن غفرانه. وأخبار وفاتها انتشرت في الصحف والمجلات الكبرى:

هامبورغ تايمز:

"كارثة أخرى تلحق بعائلة كاب أركونا... وفاة كيت لورنس، ابنة الرجل الذي تسبب بمأساة كاب أركونا، وسط فوضى شوارع هامبورغ."

دي فيلت:

"الحادث يسلط الضوء على مأساة الناجين من كارثة كاب أركونا، والشابة كيت، التي نجت سابقًا من المجزرة البحرية، لا تستطيع النجاة من قسوة المصير."

تمت مراسم الدفن في مقبرة هامبورغ العامة، بحضور عدد محدود من الناس، بينما تابع معظم الناجين الحداد بصمت، كأن التاريخ قد أغلق فصلاً مظلماً بضربة قاضية في شارع المدينة. بعد أيام قليلة مضت على وفاتها،تم اكتشاف القبر وجثتها من طرف عائلة آل لورنس عائلة عمها التي كانت كيت تعيش معهم وهربت منهم بحسب الصحف العالمية، تم استرجاع الجثة بعد حرب طويل مع القانون لينتهي المطاف بسحب الجثة وكل ما يخصها والتبرع بها للعريس التي رفضت الزواج منه، تُقال الشائعات بأنه اسكب حمض ليذيب ما تبقى منها، بينما آخرون وثقوا بمقابلة وهو يحتفظ بها بخزانة شفافة كتمثال أثري بعد تحنيطها.

وفي شقة صغيرة بإحدى ضواحي هامبورغ

جلست أم وابنتها على طاولة الطعام مساءً، الصحنان بينهما مليئان ببقايا العشاء البسيط، والتلفاز في الخلفية يعرض نشرة عاجلة. على الشاشة، كان الخبر يتحدث بصوت هادئ وبارد: حادث مأساوي في شارع هامبورغ الرئيسي... ضحية الشابة كيت لورنس، ابنة أحد المسؤولين عن كارثة "كاب أركونا".

رفعت الابنة الصحيفة التي تحمل صورة كيت، تنظر إلى وجهها المتألم، وقالت بصوت مكسور:

– يا لها من مسكينة...

لم تلتفت الأم إلا بعد لحظة، والدموع تترقرق على وجنتيها. قالت الابنة بدهشة:

– ما بك؟ لماذا تبكين يا أمي؟

اقتربت الأم منها ببطء، وضمتها، وربتت على ظهرها وقالت بصوت مملوء بالحزن والحكمة:

– لا شيء يجعلني بهذا الحزن أكثر من فتاة فقدت أمها... تجردت من عائلتها، أجبرت على الزواج، هربت، ثم بحثت عن الأمان... وفي النهاية اكتشفت أن من ظنت أنه ملاذها كان أسوأ من إبليس. لم تكن تعلم أن الحرية الحقيقية ليست في النجاة الجسدية، بل في أن نحتفظ بالضمير حيًا مهما دبّ الظلام في قلوبنا واشتدت قوة الأوامر. يا لها من وحدة قاسية!

دفنت الأم كيت في حضنها، وارتخت الابنة في عناقها، والدموع امتزجت بصمت الليل.

في الخارج، كانت شوارع الضاحية هادئة، والمطر يتساقط على النوافذ. كانت السماء بلا ضوء ولا صمت، لكنها تحمل في قطراتها كل الخيانات، وكل الألم، وفوق هذا المنظر الهادئ، لم يبق من الهرم القديم إلا حجر واحد. حجرٌ لم يُبنى أبداً، لكنه كان يزنُ الكون بأكمله.

" في الثالث من مايو من عام 1945 وبينما كانت آخر أنفاس الحرب العالمية الثانية تلفظ في أوروبا تحوّلت الباخرة الألمانية الفاخرة كاب أركونا التي طالما كانت رمزًا للترف، إلى تابوت عائم في مياه خليج لوبيك الهادئة، حيث رست بالقرب من سفينتين أخريين كانت تحمل في أحشائها سراً مدوياً: أكثر من سبعة آلاف سجين أُجبروا على تحمل أقسى ظروف الاحتجاز، لم تكن الكارثة قنبلةً واحدة، بل سلسلة من الضربات الجوية المأساوية التي حوّلت السفينة إلى جحيم من اللهب، ليصبح مصير آلاف الأبرياء إما الحرق أو الغرق في المياه الجليدية، أو الموت برصاص الجنود، لقد كان صمت التاريخ ثقيلاً على هذه المأساة التي تجاوزت في عدد ضحاياها كوارث بحرية أخرى، لكنها لم تجد مكاناً لها في الذاكرة الجمعية للعالم. لقد غابت هذه القصة عن أعين التاريخ وأخفتها ضوضاء الحرب الصاخبة. لكنني وعدت بأن أعود وأسلط الضوء عليها... "

" لقد أرادوا إبادتنا، محونا كدليل. لكننا هنا. لم ننجُ فحسب، بل أصبحنا أجداداً. هذا هو انتقامي على النازيين؛ أن نعيش، ونتذكر، ونجعل العالم لا ينسى أبداً مأساة 'كاب أركونا'. "

— مانفريد غولدبرغ، ناجٍ من سفينة كاب أركونا (1945)

حينما اندلعت الحرب العالمية الثانية، وجدت سفينة كاب اركونا طريقها كضحية أخيرة تحتضر وسط مأساة الحروب حينما أخفت سرًا كبير يتعلق بين المساجين... بين الركاب... وبين عروس هاربة من زفافها لتابوت الأحلام... وبين شاب يحاول بكلتا يديه احتضان امه وأخته وحمايتهم من ويلات الحرب

«قصة حقيقية لغرق الباخرة كاب اركونا في القرن الماضي »





آيان ماكسويل

مؤلف روائي وكاتب سيناريو وفنان، بدأ بكتابة الرواية التي تدور أحداثها عن سفينة كاب اركونا حوالي عام 2020،واجه ظروف ورفض من دور نشر عديدة لينتهي به المطاف بنشر العمل الكترونيًا.

البريد الألكتروني الخاص بالمؤلف:

maxlarg472@gmail.com